سورة النجم

ستون وآيتان مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾

وقبل الشروع في التفسير نقدم مسائل ثم نتفرغ للتفسير وإن لم تكن منه:

المسألة الأولى: أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظًا ومعنى: أما اللفظ فلأن ختم الطور بالنجم، وافتتاح هذه بالنجم مع واو القسم، وأما المعنى فنقول: الله تعالى لما قال لنبيّه ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] بيّن له أنه جزأه في أجزاء مكايدة النبي ﷺ، بالنجم وبعده فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

المسألة الثانية: السورة التي تقدمت وافتتاحها بالقسم بالأسماء دون الحروف وهي الصافات والذاريات، والطور، وهذه السورة بعدها بالأولى فيها القسم لإثبات الوحدانية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] وفي الثانية لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦] وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ⑦ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨]. وفي هذه السورة لنبوة النبي ﷺ لتكمل الأصول الثلاثة: الوحدانية، والحشر، والنبوة.

المسألة الثالثة: لم يقسم الله على الوحدانية ولا على النبوة كثيرًا، أما على الوحدانية فلأنه أقسم بأمر واحد في سورة الصافات، وأما على النبوة فلأنه أقسم بأمر واحد في هذه السورة وبأمرين في سورة الضحى، وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به، فإن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] إلى غير ذلك - كلها فيها الحشر أو ما يتعلق به، وذلك لأن دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

ودلائل النبوة أيضًا كثيرة وهي المعجزات المشهورة والمتواترة، وأما الحشر فإمكانه يثبت بالعقل، وأما وقوعه فلا يمكن إثباته إلا بالسمع، فأكثر القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقادًا جازمًا.

(١) هذا البيت لأبي العتاهية، وتقدم ترجمته.

وأما التفسير ففيه مسائل:

الأولى: الواو للقسم بالنجم أو برب النجم، ففيه خلاف قدمناه، والأظهر أنه قسم بالنجم، يقال ليس للقسم في الأصل حرف أصلاً لكن الباء والواو استعملتا فيه لمعنى عارض، وذلك لأن الباء في أصل القسم هي الباء التي للإلصاق والاستعانة، فكما يقول القائل: استعنت بالله، يقول: أقسمت بالله، وكما يقول: أقوم بعون الله على العدو، يقول: أقسم بحق الله، فالباء فيهما بمعنى كما تقول: كتب بالقلم، فالباء في الحقيقة ليست للقسم غير أن القسم كثر في الكلام فاستغنى عن ذكره، وغيره لم يكثر فلم يستغن عنه، فإذا قال القائل: (بحق زيد) فُهم منه القسم لأن المراد لو كان هو مثل قوله: ادخل زيد، أو اذهب بحق زيد، أو لم يقسم بحق زيد لذكر كما ذكر في هذه الأشياء لعدم الاستغناء، فلما لم يذكر شيء علم أن الحذف للشهرة والاستغناء، وذلك ليس في غير القسم فعُلم أن المحذوف فعل القسم، فكأنه قال: أقسم بحق زيد، فالباء في الأصل ليس للقسم لكن لما عرض ما ذكرنا من الكثرة والاشتهار قيل الباء للقسم، ثم إن المتكلم نظر فيه فقال: هذا لا يخلو عن التباس فإني إذا قلت: (بالله) توقف السامع فإن سمع بعده فعلاً غير القسم كقوله: بالله استعنت وبالله قدرت وبالله مشيت وأخذت، لا يحمله على القسم، وإن لم يسمع حمله على القسم إن لم يتوهم وجود فعل ما ذكرته ولم يسمعه، أما إن توهم أني ذكرت مع قولي بالله شيئًا آخر وما سمعه هو أيضًا يتوقف فيه ففي الفهم توقف، فإذا أراد المتكلم الحكيم إذهاب ذلك مع الاختصار وترك ما استغنى عنه، وهو فعل القسم، أبدل الباء بالتاء، وقال: تالله، فتكلم بها في كلمة الله لاشتهار كلمة الله والأمن من الالتباس، فإن التاء في أوائل الكلمات قد تكون أصلية، وقد تكون للخطاب والتأنيث، فلو أقسم بحرف التاء بمن اسمه داعي أو راعي أو هادي أو عادي يقول (تداعى أو تراعى أو تهادى أو تعادى) فيلتبس، وكذلك فيمن اسمه رومان أو توران إذا قلت ترومان أو تتوران، على أنك تقسم بالتاء تلتبس بتاء الخطاب والتأنيث في الاستقبال، فأبدلوها واوًا. لا يقال: عليه إشكالان:

الأول: مع الواو لم يؤمن الالتباس، نقول ولى فتلتبس الواو الأصلية بالتي للقسم لأنا نقول: ذلك لم يلزم فيما ذهبنا إليه، وإنما كان ذلك في الواو حيث يدل وينبئ عن العطف وإن لم يستعمل الواو للقسم، كيف وذلك في الباء التي هي كالأصل متحقق، تقول: برام في جمع برمة، وبهام في جمع بهمة، وبغال للبسية الباء الأصلية التي في البغال والبرام بالباء التي تلصقها بقولك مال ورأى فتقول بمال، وأما التاء لما استعملت للقسم لزم من ذلك الاستعمال الالتباس حيث لم يكن من قبل حرفًا من الأدوات كالباء والواو.

الإشكال الثاني: لمَ تركت مما لا التباس فيه كقولك: تالرحيم وتالعظيم؟ نقول: لما كانت كلمة الله تعالى في غاية الشهرة والظهور استعملت التاء فيها على خلاف الأصل، بمعنى لم يجز أن يقال عليها إلا ما يكون في شهرتها، وأما غيرها فربما يخفى عند البعض، فإن من يسمع

الرحيم وسمع في الندرة تر بمعنى قطع ربما يقول ترحيم فعل وفاعل أو فعل ومفعول، وإن كان ذلك في غاية البعد لكن الاستواء في الشهرة في المنقول منه والمنقول إليه لازم، ولا مشهور مثل كلمة الله، على أنا نقول: لمَ قلت: إن عند الأمن لا تُستعمل، ألا ترى أنه نُقل عن العرب برب الكعبة، والذي يؤيد ما ذكرنا أنك تقول أقسم بالله ولا تقول أقسم تالله. لأن التاء فيه مخافة الالتباس عند حذف الفعل من القسم، وعند الإتيان به لم يخف ذلك فلم يجز.

المسألة الثانية: اللام في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ لتعريف العهد في قول ولتعريف الجنس في قول، والأول قول من قال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ المراد منه الثريا، قال قائلهم:

إنْ بَدَا النَّجْمُ عَشِيًّا ابْتَغَى الرَّاعِي كَسِيًّا

والثاني فيه وجوه: أحدها: النجم هو نجم السماء التي هي ثابتة فيها للاهتداء، وقيل: لا بل النجوم المنقضة فيها التي هي رجوم للشياطين. ثانيها: نجوم الأرض وهي من النبات ما لا ساق له. ثالثها: نجوم القرآن.

ولنذكر مناسبة كل وجه ونبيّن فيه المختار منها، أما على قولنا: (المراد الثريا) فهو أظهر النجوم عند الرائي لأن له علامة لا يلتبس بغيره في السماء، ويظهر لكل أحد والنبي ﷺ تميز عن الكل بآيات بينات فأقسم به، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق بالبكر حان إدراك الثمار، وإذا ظهرت بالعشاء أواخر الخريف نقل الأمراض، والنبي ﷺ لما ظهر قلَّ الشك والأمراض القلبية وأدركت الثمار الحكمية والحلمية، وعلى قولنا (المراد هي النجوم التي في السماء للاهتداء) نقول: النجوم بها الاهتداء في البراري، فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة، وعلى قولنا (المراد الرجوم من النجوم)، فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء، والأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض، وعلى قولنا (المراد القرآن) فهو استدل بمعجزة النبي ﷺ على صدقه وبراءته فهو كقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يس: ١ - ٤] ما ضللت ولا غويت، وعلى قولنا (النجم هو النبات)، فنقول: النبات به ثبات القوى الجسمانية وصلاحها، والقوة العقلية أَوْلى بالإصلاح، وذلك بالرسل وإيضاح السبل، ومن هذا يظهر أن المختار هو النجوم التي هي في السماء لأنها أظهر عند السامع، وقوله ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أدل عليه، ثم بعد ذلك القرآن أيضًا فيه ظهور ثم الثريا.

المسألة الثالثة: القول في ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ كالقول في ﴿وَٱلطُّورِ﴾ حيث لم يقل والنجوم ولا الأطوار، وقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ وقد تقدم ذكره.

المسألة الرابعة: ما الفائدة في تقييد القسم به بوقت هو به؟ نقول: النجم إذا كان في وسط السماء يكون بعيدًا عن الأرض لا يهتدي به الساري؛ لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال، فإذا زال تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال، كذلك النبي ﷺ خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وكما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فإن قيل: الاهتداء بالنجم إذا كان على أفق المشرق كالاهتداء به إذا كان على أفق المغرب، فلم يبق ما ذكرت جوابًا عن السؤال. نقول: الاهتداء بالنجم وهو مائل إلى المغرب أكثر لأنه يهدي في الطريقين الدنيوي والديني، أما الدنيوي فلِما ذكرنا، وأما الديني فكما قال الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وفيه لطيفة، وهي أن الله لما أقسم بالنجم شرَّفه وعظَّمه، وكان من المشركين من يعبده فقرن بتعظيمه وصفًا يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة، فإنه هاوٍ آفل.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝﴾

ثم قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الضلال والغي، والذي قاله بعضهم عند محاولة الفرق: أن الضلال في مقابلة الهدى، والغي في مقابلة الرشد، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وتحقيق القول فيه أن الضلال أعم استعمالاً في الوضع، تقول: ضل بعيري ورحلي، ولا تقول: غوى، فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقًا أصلاً، والغواية أن لا يكون له طريق إلى المقصد مستقيم، يدلك على هذا أنك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد إنه سفيه غير رشيد، ولا تقول إنه ضال، والضال كالكافر، والغاوي كالفاسق، فكأنه تعالى قال: ﴿مَا ضَلَّ﴾ أي ما كفر، ولا أقل من ذلك فما فسق، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦] أو نقول: الضلال كالعدم، والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة.

وقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ فيه وجهان: الأول: سيدكم. والآخر: مصاحبكم، يقال: صاحب البيت ورب البيت، ويحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿مَا ضَلَّ﴾ أي ما جُن، فإن المجنون ضال، وعلى هذا فهو كقوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ١ - ٣] فيكون إشارة إلى أنه ما غوى، بل هو رشيد مرشد دال على الله بإرشاد آخر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩] وقال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] إشارة إلى قوله هاهنا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ فإن هذا خلق عظيم، ولنبين الترتيب فنقول: قال أولاً: ﴿مَا ضَلَّ﴾ أي هو على الطريق ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي طريقه الذي هو عليه مستقيم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي هو راكب متنه آخذ سمت المقصود، وذلك لأن من يسلك طريقًا ليصل إلى مقصده فربما يبقى بلا طريق، وربما يجد إليه طريقًا بعيدًا فيه متاعب ومهالك، وربما يجد طريقًا واسعًا آمنًا، ولكنه يميل يمنة ويسرة فيبعد عنه المقصد، ويتأخر عليه الوصول، فإذا سلك الجادة وركب متنها كان أسرع وصولاً، ويمكن أن

يقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ دليل على أنه ما ضل وما غوى، تقديره: كيف يضل أو يغوى وهو لا ينطق عن الهوى، وإنما يضل من يتبع الهوى. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] فإن قيل: ما ذكرت من الترتيب الأول على صيغة الماضي في قوله ﴿مَا ضَلَّ﴾ وصيغة المستقبل في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ في غاية الحسن، أي ما ضل حين اعتزلكم وما تعبدون في صغره ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ حين اختلى بنفسه ورأى في منامه ما رأى، وما ينطق عن الهوى الآن حيث أرسل إليكم وجعل رسولاً شاهدًا عليكم، فلم يكن أولاً ضالاً ولا غاويًا، وصار الآن منقذًا من الضلالة ومرشدًا وهاديًا. وأما على ما ذكرت أن تقديره كيف يضل وهو لا ينطق عن الهوى فلا توافقه الصيغة؟ نقول: بلى، وبيانه أن الله تعالى يصون من يريد إرساله في صغره عن الكفر، والمعايب القبيحة كالسرقة والزنا واعتياد الكذب، فقال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ﴾ في صغره؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، وأحسن ما يقال في تفسير الهوى أنها المحبة، لكن من النفس يقال: (هويته) بمعنى أحببته، لكن الحروف التي في هوى تدل على الدنو والنزول والسقوط ومنه الهاوية، فالنفس إذا كانت دنيئة، وتركت المعالي وتعلقت بالسفاسف، فقد هوت فاختص الهوى بالنفس الأمارة بالسوء، ولو قلت: (أهواه بقلبي) لزال ما فيه من السفالة، لكن الاستعمال بعد استبعاد استعمال القرآن حيث لم يستعمل الهوى إلا في الموضع الذي يخالف المحبة، فإنها مستعملة في موضع المدح، والذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٣٧، ٣٨] إلى قوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] إشارة إلى علو مرتبة النفس.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾

بكلمة البيان، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] كأن قائلاً قال: فبماذا ينطق أعن الدليل أو الاجتهاد؟ فقال: لا، وإنما ينطق عن الله بالوحي.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿إِنْ﴾ استعملت مكان (ما) للنفي، كما استعملت (ما) للشرط مكان (إنْ)، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] والمشابهة بينهما من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظ فلأن (إنْ) من الهمزة والنون، وما من الميم والألف، والألف كالهمزة والنون كالميم، أما الأول فبدليل جواز القلب، وأما الثاني فبدليل جواز الإدغام ووجوبه، وأما المعنى فلأن (إنْ) تدل على النفي من وجه، وعلى الإثبات من وجه، ولكن دلالتها على النفي أقوى وأبلغ؛ لأن الشرط والجزاء في صورة استعمال لفظة (إنْ) يجب أن يكون في الحال معدومًا إذا كان المقصود الحث أو المنع، تقول: إن تحسن فلك الثواب، وإن تسئ فلك العذاب، وإن كان المراد بيان حال القسمين المشكوك فيهما كقولك: إن كان هذا الفص زجاجًا فقيمته نصف، وإن كان جوهرًا فقيمته ألف، فهاهنا وجود شيء منهما غير معلوم وعدم العلم حاصل، وعدم

العلم ههنا كعدم الحصول في الحث والمنع، فلا بد في صور استعمال إن عدم، إما في الأمر، وإما في العلم، وإما الوجود فذلك عند وجود الشرط في بيان الحال، ولهذا قال النحاة: لا يحسن أن يقال: (إن احمر البسر آتيك)، لأن ذلك أمر سيوجد لا محالة، وجوزوا استعمال (إنْ) فيما لا يوجد أصلاً، يقال في قطع الرجاء (إن ابيضَّ القار تغلبني)، قال الله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾[الأعراف: ١٤٣] ولم يوجد الاستقرار ولا الرؤية، فعُلم أن دلالته على النفي أتم، فإن مدلوله إلى مدلول (ما) أقرب فاستعمل أحدهما مكان الآخر، هذا هو الظاهر، وما يقال: (إن وما)، حرفان نافيان في الأصل، فلا حاجة إلى الترادف.

المسألة الثانية: (هو) ضمير معلوم أو ضمير مذكور؟ نقول: فيه وجهان: أشهرهما: أنه ضمير معلوم وهو القرآن، كأنه يقول: ما القرآن إلا وحي، وهذا على قول من قال: النجم ليس المراد منه القرآن. وأما على قول من يقول: هو القرآن. فهو عائد إلى مذكور. والوجه الثاني: أنه عائد إلى مذكور ضمنًا وهو قول النبي ﷺ وكلامه، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾[النجم: ٣] في ضمنه النطق وهو كلام وقول، فكأنه تعالى يقول: وما كلامه وهو نطقه إلا وحي وفيه. وجه آخر أبعد وأدق: وهو أن يقال: قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾[النجم: ٢] قد ذكر أن المراد منه في وجه أنه ما جُن وما مسّه الجن فليس بكاهن، وقوله: ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي ليس بينه وبين الغواية تعلّق، فليس بشاعر، فإن الشعراء يتبعهم الغاوون، وحينئذٍ يكون قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾[النجم: ٣] ردًّا عليهم حيث قالوا: قوله قول كاهن. وقالوا: قوله قول شاعر. فقال: ما قوله إلا وحي وليس بقول كاهن ولا شاعر. كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الحاقة: ٤١، ٤٢].

المسألة الثالثة: الوحي اسم أو مصدر؟ نقول: يحتمل الوجهين، فإن الوحي اسم معناه الكتاب ومصدر وله معانٍ منها الإرسال والإلهام، والكتابة والكلام والإشارة والإفهام. فإن قلنا: هو ضمير القرآن، فالوحي اسم معناه الكتاب، كأنه يقول: ما القرآن إلا كتاب ويوحى بمعنى يرسل، ويحتمل على هذا أيضًا أن يقال: هو مصدر، أي ما القرآن إلا إرسال وإلهام، بمعنى المفعول، أي مرسل، وإن قلنا: المراد من قوله: ﴿إِنۡ هُوَ﴾ قوله وكلامه، فالوحي حينئذٍ هو الإلهام ملهم من الله، أو مرسل. **وفيه مباحث:**

البحث الأول: الظاهر خلاف ما هو المشهور عند بعض المفسرين، وهو أن النبي ﷺ ما كان ينطق إلا عن وحي، ولا حجة لمن توهم هذا في الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ إن كان ضمير القرآن فظاهر وإن كان ضميرًا عائدًا إلى قوله، فالمراد من قوله هو القول الذي كانوا يقولون فيه إنه قول شاعر، وردَّ الله عليهم فقال: ولا بقول شاعر، وذلك القول هو القرآن، وإن قلنا بما قالوا به فينبغي أن يفسر الوحي بالإلهام.

البحث الثاني: هذا يدل على أنه ﷺ لم يجتهد، وهو خلاف الظاهر، فإنه في الحروب اجتهد

وحَرَّم ما قال الله، لم يحرم، وأذن. لمن قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، نقول على ما ثبت لا تدل الآية عليه.

البحث الثالث: (يُوحَى) يحتمل أن يكون من وحي يوحى ويحتمل أن يكون من أوحى يوحي، تقول: عدم يعدم، وأعدم يعدم، وكذلك علم يعلم وأعلم يُعلم، فنقول: يوحى من أوحى لا من وحى، وإن كان وحى وأوحى كلاهما جاء بمعنى، ولكن الله في القرآن عند ذكر المصدر لم يذكر الإيحاء الذي هو مصدر أوحى، وعند ذكر الفعل لم يذكر وحي، الذي مصدره وحى، بل قال عند ذكر المصدر الوحي، وقال عند ذكر الفعل (أوحى) وكذلك القول في أحب وحب فإن حب وأحب بمعنى واحد، والله تعالى عند ذكر المصدر لم يذكر في القرآن الإحباب، وذكر الحب قال: ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البقرة: ١٦٥] وعند الفعل لم يقل حبه الله بل قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] إلى غير ذلك، وفيه سر من علم الصرف وهو أن المصدر والفعل الماضي الثلاثي فيهما خلاف، قال بعض علماء الصرف، المصدر مشتق من الفعل الماضي، والماضي هو الأصل، والدليل عليه وجهان: لفظي ومعنوي:

أما اللفظي فإنهم يقولون مصدر فعل يفعل إذا كان متعديًا فَعْلاً بسكون العين، وإذا كان لازمًا فُعول في الأكثر، ولا يقولون الفعل الماضي من فعول فعلى، وهذا دليل ما ذكرنا.

وأما المعنوي فلأن ما يوجد من الأمور لا يوجد إلا وهو خاص وفي ضمنه العام، مثاله الإنسان الذي يوجد ويتحقق يكون زيدًا أو عمرًا أو غيرهما، ويكون في ضمنه أنه هندي أو تركي وفي ضمن ذلك أنه حيوان وناطق، ولا يوجد أولاً إنسان ثم يصير تركيًّا ثم يصير زيدًا أو عمرًا.

إذا علمت هذا فالفعل الذي يتحقق لا ينفك من أن يكون ماضيًا أو مستقبلاً، وفي ضمنه أنه فعل مع قطع النظر عن مضيه واستقباله، مثاله الضرب إذا وُجد فإما أن يكون قد مضى أو بعد لم يمض، والأول ماضٍ والثاني حاضر أو مستقبل، ولا يوجد الضرب من حيث إنه ضرب خاليًا عن المضي والحضور والاستقبال، غير أن العاقل يدرك من فعل وهو يفعل الآن وسيفعل غدًا أمرًا مشتركًا فيسميه فعلاً، كذلك يدرك في ضرب وهو يضرب الآن وسيضرب غدًا أمرًا مشتركًا فيسميه ضربًا فضَرَب يوجد أولاً ويستخرج منه الضرب، والألفاظ وُضعت لأمور تتحقق فيها فيعبر بها عنها، والأمور المشتركة لا تتحقق إلا في ضمن أشياء أُخر، فالوضع أولاً لما يوجد منه لا يدرك منه قبل الضرب، وهذا ما يمكن أن يقال لمن يقول الماضي أصل والمصدر مأخوذ منه.

وأما الذي يقول (المصدر أصل والماضي مأخوذ منه) فله دلائل، منها أن الاسم أصل، والفعل متفرع، والمصدر اسم، ولأن المصدر معرب والماضي مبني، والإعراب قبل البناء، ولأن قال وقال، وراع وراع، إذا أردنا الفرق بينهما نرد أبنيتهما إلى المصدر فنقول: قال الألف منقلبة من واو بدليل القول، وقال ألف منقلبة من ياء بدليل القيل، وكذلك الروع والريع. وأما المعقول

فلأن الألفاظ وُضعت للأمور التي في الأذهان، والعام قبل الخاص في الذهن، فإن الموجود إذا أدرك يقول المدرك هذا الموجود جوهر أو عرض، فإذا أدرك أنه جوهر يقول: إنه جسم أو غير جسم عند من يجعل الجسم جوهرًا وهو الأصح الأظهر، ثم إذا أدرك كونه جسمًا يقول: هو تام. وكذلك الأمر إلى أن ينتهي إلى أخص الأشياء إن أمكن الانتهاء إليه بالتقسيم، فالوضع الأول الفعل وهو المصدر من غير زيادة، ثم إذا انضم إليه زمان تقول: (ضرب أو سيضرب) فالمصدر قبل الماضي، وهذا هو الأصح، إذا علمت هذا فنقول: على مذهب من يقول المصدر في الثلاثي من الماضي فالحب وأحب كلاهما في درجة واحدة لأن كليهما من حب يحب، والمصدر من الثلاثي قبل مصدر المنشعبة بمرتبة، وعلى مذهب من يقول الماضي في الثلاثي مأخوذ من المصدر، فالمصدر الثلاثي قبل المصدر في المنشعبة بمرتبتين، فاستعمل مصدر الثلاثي لأنه قبل مصدر المنشعبة، وأما الفعل في أحب وأوحى فلأن الألف فيهما تفيد فائدة لا يفيدها الثلاثي المجرد؛ لأن أحب أدخل في التعدية وأبعد عن توهم اللزوم فاستعمله.

المسألة الرابعة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ أبلغ من قول القائل: (هو وحي)، وفيه فائدة غير المبالغة وهي أنهم كانوا يقولون هو قول كاهن، هو قول شاعر. فأراد نفي قولهم، وذلك يحصل بصيغة النفي فقال: (ما هو كما يقولون) وزاد فقال: (بل هو وحي)، وفيه زيادة فائدة أخرى وهو قوله: ﴿يُوحَىٰ﴾ ذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وفيه تحقيق الحقيقة، فإن الفرس الشديد العَدْو ربما يقال: هو طائر، فإذا قال يطير بجناحيه، يزيل جواز المجاز، كذلك يقول بعض من لا يحترز في الكلام ويبالغ في المبالغة: (كلام فلان وحي)، كما يقول: شعره سحر، وكما يقول: (قوله معجزة)، فإذا قال: (يوحى) يزول ذلك المجاز أو يبعد.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾

وفيه وجهان أشهرهما عند المفسرين أن الضمير في ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدًا إلى الوحي، أي الوحي علَّمه شديد القوى، والوحي وإن كان هو الكتاب فظاهر، وإن كان الإلهام فهو كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] والأَوْلى أن يقال: الضمير عائد إلى محمد ﷺ تقديره: علَّم محمدًا شديد القوى جبريل، وحينئذٍ يكون عائدًا إلى صاحبكم، تقديره: علَّم صاحبكم شديد القوى هو جبريل، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة فيعلم ويعمل.

وقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فيه فوائد: الأولى: أن مدح المعلم مدح المتعلم، فلو قال: (علَّمه جبريل) ولم يصفه ما كان يحصل للنبي ﷺ فضيلة ظاهرة الثانية: هي أن فيه ردًّا عليهم حيث قالوا: أساطير الأولين سمعها وقت سفره إلى الشام، فقال: لم يعلِّمه أحد من الناس بل معلمه شديد القوى، والإنسان خُلق ضعيفًا وما أوتي من العلم إلا قليلاً. الثالثة: فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ جمع ما يوجب الوثوق لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل؛ لأنا إن ظننا بواحد فساد ذهن ثم نقل إلينا عن بعض الأكابر مسألة مشكلة،

لا نثق بقوله ونقول: هو ما فهم ما قال. وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول أدركها لكن نسيها. وكذلك قوة الأمانة حتى لا نقول: حرَّفها وغيَّرها. فقال: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] إلى أن قال: ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] الرابعة: فيه تسلية النبي ﷺ وهي من حيث إن الله تعالى لم يكن مختصًا بمكان فنسبته إلى جبريل كنسبته إلى محمد ﷺ فإذا علم بواسطته يكون نقصًا عن درجته فقال: ليس كذلك لأنه شديد القوى يَثبت لمكالمتنا، وأنت بعد ما استويت فتكون كموسى حيث خر، فكأنه تعالى قد علَّمه بواسطة ثم علَّمه من غير واسطة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] وقال ﷺ: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»(١).

قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ وجوه: أحدها: ذو قوة. ثانيها: ذو كمال في العقل والدين جميعًا. ثالثها: ذو منظر وهيبة عظيمة. رابعها: ذو خلق حسن. فإن قيل: على قولنا (المراد ذو قوة) قد تقدم بيان كونه ذا قوى في قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] فكيف نقول: قواه شديدة وله قوة؟ نقول: ذلك لا يحسن إن جاء وصفًا بعد وصف، وأما إن جاء بدلاً لا يجوز، كأنه قال: علَّمه ذو قوة وترك شديد القوى فليس وصفًا له، وتقديره: ذو قوة عظيمة أو كاملة، وهو حينئذٍ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] فكأنه قال: علَّمه ذو قوة فاستوى. والوجه الآخر في الجواب هو أن إفراد قوة بالذكر ربما يكون لبيان أن قواه المشهورة شديدة، وله قوة أخرى خصّه الله بها، يقال: فلان كثير المال، وله مال لا يعرفه أحد، أي أمواله الظاهرة كثيرة وله مال باطن، على أنا نقول: المراد ذو شدة، وتقديره: علَّمه مَن قُواه شديدة وفي ذاته أيضًا شدة، فإن الإنسان ربما تكون قواه شديدة وفي جسمه صغر وحقارة ورخاوة، وفيه لطيفة وهي أنه تعالى أراد بقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ قوته في العلم.

ثم قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي شدة في جسمه فقدَّم العلمية على الجسمية، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وفي قوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ وجهان، المشهور أن المراد جبريل، أي فاستوى جبريل في خلقه.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والمشهور أن هو ضمير جبريل، وتقديره: استوى كما

---

(١) ضعيف: أورده الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ٨٧)، وقال: سنده ضعيف، ولا يُعرف له إسناد ضعيف ثابت. وأورده السيوطي في (الدرر المنتثرة) (١/ ١). وقال: رواه أبو سعد بن السمعاني في أدب الإملاء من حديث ابن مسعود، والعسكري في الأمثال، وابن الجوزي في الأحاديث الواهية من حديث علي، وقال: لا يصح. وصححه أبو الفضل بن ناصر.

قلت: وأخرج ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الرحمن الزهري، عن أبيه، عن جده: أن أبا بكر قال: يا رسول الله لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك فمن أدبك؟ قال: «أدبني ربي، ونشأت في بني سعد» انتهى.

خلقه الله تعالى بالأفق الشرقي، فسَدَّ المشرق لعظمته، والظاهر أن المراد محمد ﷺ معناه استوى بمكان وهو بالمكان العالي رتبة ومنزلة في رفعة القدر لا حقيقة في الحصول في المكان، فإن قيل: كيف يجوز هذا والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] إشارة إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين؟ نقول: وفي ذلك الموضع أيضًا نقول كما قلنا هاهنا: إنه ﷺ رأى جبريل وهو بالأفق المبين، يقول القائل: رأيت الهلال. فيقال له: أين رأيته؟ فيقول: فوق السطح. أي أن الرائي فوق السطح لا المرئي و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ هو الفارق من أبان، أي فرق، أي هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ومنزلة الملك فإنه ﷺ انتهى وبلغ الغاية وصار نبيًّا كما صار بعض الأنبياء نبيًّا يأتيه الوحي في نومه وعلى هيئته، وهو واصل إلى الأفق الأعلى، والأفق الفارق بين المنزلتين، فإن قيل: ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه، فإن قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] إلى غير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته؟ نقول: سنبين موافقته لما ذكرنا إن شاء الله في مواضعه عند ذكر تفسيره، فإن قيل: الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته حيث ورد في الأخبار أن جبريل ﷺ أرى النبي ﷺ نفسه على صورته فسَدَّ المشرق. فنقول: نحن ما قلنا: إنه لم يكن، وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية حتى يلزم مخالفة الحديث، وإنما نقول: إن جبريل أرى النبي ﷺ نفسه مرتين وبسط جناحيه وقد ستر الجانب الشرقي وسده، لكن الآية لم ترد لبيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ . **وفيه وجوه مشهورة:**

أحدها: أن جبريل دنا من النبي ﷺ أي بعد ما مد جناحه وهو بالأفق، عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها وقَرُب من النبي ﷺ وعلى هذا ففي (تدلى) ثلاثة وجوه: أحدها: فيه تقديم وتأخير تقديره: ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ. الثاني: الدنو والتدلي بمعنى واحد كأنه قال: دنا فقرب. الثالث: دنا أي قصد القرب من محمد ﷺ وتحرك عن المكان الذي كان فيه فتدلى فنزل إلى النبي ﷺ.

الثاني: على ما ذكرنا من الوجه الأخير في قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٧] أن محمدًا ﷺ دنا من الخلق والأمة ولان لهم وصار كواحد منهم ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦] وعلى هذا ففي الكلام كمالان، كأنه تعالى قال إلا وحي يوحي جبريل على محمد، فاستوى محمد وكمل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى إليهم وبلغ الرسالة.

الثالث وهو ضعيف سخيف: وهو أن المراد منه هو ربه تعالى، وهو مذهب القائلين بالجهة

والمكان، اللّهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة، وعلى هذا يكون فيه ما في قوله ﷺ حكاية عن ربه تعالى: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ مَشَى إِلَيَّ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» إشارة إلى المعنى المجازي، وههنا لما بيّن أن النبي ﷺ استوى وعلا في المنزلة العقلية لا في المكان الحسي قال: وقرب الله منه تحقيقًا لما في قوله: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا».

ثم قال تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي بين جبرائيل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين أو أقل، ورد هذا على استعمال العرب وعادتهم، فإن الأميرين منهم أو الكبيرين إذا اصطلحا وتعاهدا خرجا بقوسيهما ووتر كل واحد منهما طرف قوسه بطرف قوس صاحبه، ومَن دونهما من الرعية يكون كفه بكفه فينهيان باعيهما، ولذلك تسمى مسايعة، وعلى هذا ففيه لطيفة وهي أن قوله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ على جعل كونهما كبيرين، وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ لفضل أحدهما على الآخر، فإن الأمير إذا بايعه الرعية لا يكون مع المبايع قوس فيصافحه الأمير، فكأنه تعالى أخبر أنهما كأميرين كبيرين فكان بينهما مقدار قوسين، أو كان جبرائيل عليه السلام سفيرًا بين الله تعالى ومحمد ﷺ فكان كالتبع لمحمد ﷺ فصار كالمبايع الذي يمد الباع لا القوس، هذا على قول من يفضل النبي ﷺ على جبرائيل عليه السلام، وهو مذهب أهل السنة إلا قليلاً منهم إذ كان جبرائيل رسولاً من الله واجب التعظيم والاتباع، فصار النبي ﷺ عنده كالتبع له على قول من يفضل جبريل على النبي ﷺ، وفيه وجه آخر على ما ذكرنا، وهو أن يكون القوس عبارة عن بُعد، مِن قاس يقوس، وعلى هذا فنقول: ذلك البعد هو البعد النوعي الذي كان للنبي ﷺ، فإنه على كل حال كان بشرًا، وجبريل على كل حال كان ملكًا، فالنبي ﷺ وإن زال عن الصفات التي تخالف صفات الملك من الشهوة والغضب والجهل والهوى، لكن بشريته كانت باقية، وكذلك جبريل وإن ترك الكمال واللطف الذي يمنع الرؤية والاحتجاب، لكن لم يخرج عن كونه ملكًا، فلم يبق بينهما إلا اختلاف حقيقتهما، وأما سائر الصفات الممكنة الزوال فزالت عنهما، فارتفع النبي ﷺ حتى بلغ الأفق الأعلى من البشرية، وتدلى جبريل عليه السلام حتى بلغ الأفق الأدنى من الملكية، فتقاربا ولم يبق بينهما إلا حقيقتهما.

وعلى هذا ففي فاعل (أوحى) الأول وجهان: أحدهما: أن الله تعالى أوحى، وعلى هذا ففي (عبده) وجهان: أحدهما: أنه جبريل عليه السلام، ومعناه أوحى الله إلى جبريل، وعلى هذا ففي فاعل (أوحى) الأخير وجهان: أحدهما الله تعالى أيضًا، والمعنى حينئذٍ أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام الذي أوحاه إليه تفخيمًا وتعظيمًا للموحي. ثانيهما: فاعل أوحى ثانيًا جبريل، والمعنى أوحى الله إلى جبريل ما أوحى جبريل إلى كل رسول، وفيه بيان أن جبرائيل أمين لم يخن في شيء مما أوحي إليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] الوجه الثاني: في (عبده) على قولنا (الموحي هو الله) أنه محمد ﷺ معناه أوحى الله إلى محمد ما أوحى إليه للتفخيم والتعظيم، وهذا على ما ذكرنا من

أن التفسير ورد على ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن محمدًا ﷺ في الأول حصل في الأفق الأعلى من مراتب الإنسان وهو النبوة، ثم دنا من جبريل وهو في مرتبة النبوة، فصار رسولاً فاستوى وتكامل، ودنا من الأمة باللطف، وتدلى إليهم بالقول الرفيق، وجعل يتردد مرارًا بين أمته وربه، فأوحى الله إليه من غير واسطة جبريل ما أوحى. والوجه الثاني في فاعل (أوحى) أولاً هو أنه جبريل أوحى أي عبده إلى عبد الله، والله معلوم وإن لم يكن مذكورًا، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] ما يوجب القطع بعدم جواز إطلاق هذا اللفظ على النبي ﷺ، وعلى هذا ففاعل (أوحى) ثانيًا يحتمل وجهين: أحدهما: أنه جبريل، أي أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحاه جبريل للتفخيم وثانيهما: أن يكون هو الله تعالى، أي أوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى الله إليه.

وفي (ما) وجوه: أولها: الذي أوحى الصلاة. **ثانيها:** أن أحدًا من الأنبياء لا يدخل الجنة قبلك، وأمة من الأمم لا تدخل الجنة قبل أمتك. **ثالثها:** أن (ما) للعموم والمراد كل ما جاء به جبريل.

وهذا على قولنا بأن المراد جبريل صحيح، والوجهان المتقدمان على قولنا المراد محمد عليه الصلاة والسلام أظهر.

وفيه وجه غريب من حيث العربية مشهور معناه عند الأصوليين، ولنبين ذلك في معرض الجواب عن سؤال، وهو أن يقال: بم عرف محمد ﷺ أن جبريل ملك من عند الله وليس أحدًا من الجن، والذي يقال: (إن خديجة كشفت رأسها) امتحانًا في غاية الضعف إن ادعى ذلك القائل أن المعرفة حصلت بأمثال ذلك، وهذا إن أراد القصة والحكاية، وإن خديجة فعلت هذا لأن فعل خديجة غير منكر وإنما المنكر دعوى حصول المعرفة بفعلها وأمثالها، وذلك لأن الشيطان ربما تستر عند كشف رأسها أصلاً فكان يشتبه بالملائكة فيحصل اللبس والإبهام؟ والجواب الصحيح من وجهين: أحدهما: أن الله أظهر على يد جبريل معجزة عرفه النبي ﷺ بها، كما أظهر على يد محمد معجزات عرفناه بها. وثانيهما: أن الله تعالى خلق في محمد ﷺ علمًا ضروريًا بأن جبريل من عند الله ملك لا جني ولا شيطان، كما أن الله تعالى خلق في جبريل علمًا ضروريًّا أن المتكلم معه هو الله تعالى وأن المرسِل له ربه لا غيره.

إذا علم الجوابان فنقول قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أوحى إلى محمد ﷺ ما أوحاه إلى جبريل، أي كلمه الله أنه وحي أو خَلَق فيه علمًا ضروريًّا.

ثانيهما: أوحى إلى جبريل ما أوحى إلى محمد دليله الذي به يعرف أنه وحي، فعلى هذا يمكن أن يقال: (ما) مصدرية، تقديره: فأوحى إلى محمد ﷺ الإيحاء، أي العلم بالإيحاء؛ ليفرق بين الملك والجن.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: الفؤاد فؤاد من؟ نقول: المشهور أنه فؤاد محمد ﷺ معناه أنه ما كذب فؤاده، واللام لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وفي قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٧] وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ [النجم: ٢] ويحتمل أن يقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي جنس الفؤاد لأن المكذب هو الوهم والخيال، يقول: كيف يرى الله أو كيف يرى جبريل مع أنه ألطف من الهواء والهواء لا يرى، وكذلك يقول الوهم والخيال: إن رأى ربه رأى في جهة ومكان وعلى هيئة، والكل ينافي كون المرئي إلهًا، ولو رأى جبريل عليه السلام مع أنه صار على صورة دحية أو غيره فقد انقلبت حقيقته، ولو جاز ذلك لارتفع الأمان عن المرئيات. فنقول: رؤية الله تعالى ورؤية جبريل عليه السلام على ما رآه محمد عليه الصلاة والسلام جائزة عند من له قلب، فالفؤاد لا ينكر ذلك، وإن كانت النفس المتوهمة والمتخيلة تنكره.

المسألة الثانية: ما معنى ﴿مَا كَذَبَ﴾؟ نقول: فيه وجوه: الوجه الأول: ما قاله الزمخشري وهو أن قلبه لم يكذب وما قال: إن ما رآه بصرك ليس بصحيح، ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذبًا فيما قاله. وهو قريب مما قاله المبرد حيث قال: معناه صدق الفؤاد، فيما رأى، (رأى) شيئًا فصدق فيه. الثاني: قرئ (ما كذَّب الفؤاد) بالتشديد ومعناه ما قال: إن المرئي خيال لا حقيقة له. الثالث: هو أن هذا مقرر لما ذكرنا من أن محمدًا ﷺ لما رأى جبريل عليه السلام خلق الله له علمًا ضروريًّا علم أنه ليس بخيال، وليس هو على ما ذكرنا قصد الحق، وتقديره ما جوّز أن يكون كاذبًا وفي الوقوع، وإرادة نفي الجواز كثير، قال الله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ١٦] وقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ [النمل: ٩٣] والكل لنفي الجواز، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦] و﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، و﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] فإنه لنفي الوقوع.

المسألة الثالثة: الرائي في قوله: ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ هو الفؤاد أو البصر أو غيرهما؟ نقول: فيه وجوه: الأول: الفؤاد، كأنه تعالى قال: ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد، أي لم يقل: إنه جني أو شيطان بل تيقن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح. الثاني: البصر أي ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، ولم يقل: إن ما رآه البصر خيال. الثالث: ما كذب الفؤاد ما رأى محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا على قولنا الفؤاد للجنس ظاهر، أي القلوب تشهد بصحة ما رآه محمد ﷺ (من الرؤيا) وإن كانت الأوهام لا تعترف بها.

المسألة الرابعة: ما المرئي في قوله: ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾؟ نقول: على الاختلاف السابق والذي يحتمل

الكلام وجوه ثلاثة: الأول: الرب تعالى. والثاني: جبريل عليه السلام. والثالث: الآيات العجيبة الإلهية. فإن قيل: كيف تمكن رؤية الله تعالى بحيث لا يقدح فيه ولا يلزم منه كونه جسمًا في جهة؟ نقول: اعلم أن العاقل إذا تأمل وتفكر في رجل موجود في مكان، وقال: هذا مرئي الله تعالى يراه الله، و(إذا) تفكر في أمر لا يوجد أصلاً وقال: هذا مرئي الله تعالى يراه الله تعالى. يجد بينهما فرقًا وعقله يصحح الكلام الأول ويكذب الكلام الثاني، فذلك ليس بمعنى كونه معلومًا لأنه لو قال الموجود معلوم الله والمعدوم معلوم الله لما وجد في كلامه خللاً واستبعادًا، فالله راءٍ بمعنى كونه عالمًا، ثم إن الله يكون رائيًا ولا يصير مقابلاً للمرئي، ولا يحصل في جهة ولا يكون مقابلاً له، وإنما يصعب على الوهم ذلك من حيث إنه لم ير شيئًا إلا في جهة فيقول: إن ذلك واجب، ومما يصحح هذا أنك ترى في الماء قمرًا وفي الحقيقة ما رأيت القمر حالة نظرك إلى الماء إلا في مكانه فوق السماء، فرأيت القمر في الماء؛ لأن الشعاع الخارج من البصر اتصل به فردّ الماء ذلك الشعاع إلى السماء، لكن وهمك لما رأى أكثر ما رآه في المقابلة لم يعهد رؤية شيء يكون خلفه إلا بالتوجه إليه، قال: إني أرى القمر، ولا رؤية إلا إذا كان المرئي في مقابلة الحدقة ولا مقابل للحدقة إلا الماء، فحكم إذن بناء على هذا أنه يرى القمر في الماء، فالوهم يغلب العقل في العالم لكون الأمور العاجلة أكثرها وهمية حسية، وفي الآخرة تزول الأوهام وتنجلي الأفهام فترى الأشياء لوجودها لا لتحيزها.

واعلم أن من ينكر جواز رؤية الله تعالى يلزمه أن ينكر جواز رؤية جبريل عليه السلام، وفيه إنكار الرسالة، وهو كفر، وفيه ما يكاد أن يكون كفرًا، وذلك لأن من شك في رؤية الله تعالى يقول: لو كان الله تعالى جائز الرؤية لكان واجب الرؤية لأن حواسنا سليمة، والله تعالى ليس من وراء حجاب ولا هو في غاية البعد عنا لعدم كونه في جهة ولا مكان، فلو جاز أن يرى ولا نراه، للزم القدح في المحسوسات المشاهدات، إذ يجوز حينئذٍ أن يكون عندنا جبل ولا نراه، فيقال لذلك القائل: قد صح أن جبريل عليه السلام كان ينزل على محمد ﷺ وعنده غيره وهو يراه، ولو وجب ما يجوز لرآه كل أحد، فإن قيل: إن هناك حجابًا. نقول: وجب أن يرى هناك حجابًا فإن الحجاب لا يحجب إذا كان مرئيًا على مذهبهم، ثم إن النصوص وردت أن محمدًا ﷺ رأى ربه بفؤاده [1] فجعل بصره في فؤاده أو رآه ببصره فجعل فؤاده في بصره، وكيف لا، وعلى مذهب أهل السنة الرؤية بالإرادة لا بقدرة العبد، فإذا حصَّل الله تعالى العلم بالشيء من طريق البصر كان رؤية، وإن حصَّله من طريق القلب كان معرفة، والله قادر على أن يحصِّل العلم بخلق مدرك للمعلوم في البصر كما قدر على أن يحصله بخلق مدرك في القلب، والمسألة مختلف فيها بين الصحابة في الوقوع، واختلاف الوقوع مما ينبئ عن الاتفاق على الجواز، والمسألة مذكورة في الأصول فلا نطولها.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ١٥٨/ ١٧٦)، من طريق أبي العالية عن ابن عباس. . . به.

قوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أي كيف تجادلونه وتوردون شكوككم عليه، مع أنه رأى ما رأى عين اليقين؟ ولا شك بعد الرؤية فهو جازم متيقن، وأنتم تقولون أصابه الجن. ويمكن أن يقال: هو مؤكد للمعنى الذي تقدم، وذلك لأن من تيقن شيئًا قد يكون بحيث لا يزول عن نفسه تشكيك.

وأكده بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ وذلك لأنه ﷺ لما رآه وهو على بسيط الأرض كان يحتمل أن يقال: إنه من الجن احتمالاً في غاية البعد، لما بينا أنه ﷺ حصل له العلم الضروري بأنه ملك مرسل، واحتمال البعيد لا يقدح في الجزم واليقين، ألا ترى أنا إذا نمنا بالليل وانتبهنا بالنهار نجزم بأن البحار وقت نومنا ما نشفت ولا غارت، والجبال ما عدمت ولا سارت، مع احتمال ذلك فإن الله قادر على ذلك وقت نومنا، ويعيدها إلى ما كانت عليه في يومنا، فلما رآه عند سدرة المنتهى وهو فوق السماء السادسة، لم يحتمل أن يكون هناك جن ولا إنس، فنفى ذلك الاحتمال أيضًا فقال تعالى: أفتمارونه على ما يرى رأي العين، وكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقدرون فيه؟

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو يحتمل أن تكون عاطفة، ويحتمل أن تكون للحال على ما بيناه، أي كيف تجادلونه فيما رآه، على وجه لا يشك فيه؟ ومع ذلك لا يحتمل إيراد الشكوك عليه، فإن كثيرًا ما يشك المعتقد لشيء فيه ولكن تردد عليه الشكوك ولا يمكنه الجواب عنها، ولا تثريب مع ذلك في أن الأمر كما ذكرنا من المثال؛ لأنا لا نشك في أن البحار ما صارت ذهبًا والجبال ما صارت عهنًا، وإذا أورد علينا مُورِد شكًّا، وقال: وقت نومك يحتمل أن الله تعالى قلبها ثم أعادها. لا يمكننا الجواب عنه مع أنا لا نشك في استمرارها على ما هي عليه، لا يقال: اللام تنافي كون الواو للحال، فإن المستعمل يقال أفتمارونه، وقد رأى من غير لام، لأنا نقول: الواو التي للحال تدخل على جملة، والجملة تتركب من مبتدأ وخبر، أو من فعل وفاعل، وكلاهما يجوز فيه اللام.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ نَزْلَةً ﴾ فَعْلة من النزول فهي كجَلْسة من الجلوس، فلا بد من نزول، فذلك النزول لمن كان؟ نقول: فيه وجوه، وهي مرتبة على أن الضمير في رآه عائد إلى من؟ وفيه قولان: الأول: عائد إلى الله تعالى، أي رأى الله نزلة أخرى، وهذا على قول من قال: ﴿ مَا رَأَىٰٓ ﴾ في قوله: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ١١] هو الله تعالى. وقد قيل بأن النبي ﷺ رأى ربه بقلبه مرتين [(١)]، وعلى هذا فالنزلة تحتمل وجهين: أحدهما: أنها لله، وعلى هذا فوجهان: أحدهما: قول من يجوز على الله تعالى الحركة والانتقال وهو باطل. وثانيهما: النزول بالقرب

(١) انظر سابقه.

المعنوي لا الحسي، فإن الله تعالى قد يقرب بالرحمة والفضل من عبده ولا يراه العبد، ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾[البقرة: ٢٦٠] أي أزِل بعض حجب العظمة والجلال، وادن من العبد بالرحمة والإفضال لأراك.

الوجه الثاني: أن محمدًا ﷺ رأى الله نزلة أخرى، وحينئذٍ يحتمل ذلك وجهين: أحدهما: أن النبي ﷺ نزل على متن الهوى ومركب النفس ولهذا يقال لمن ركب متن هواه: إنه علا في الأرض واستكبر، قال تعالى: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[القصص: ٤] ثانيهما: أن المراد من النزلة ضدها وهي العرجة، كأنه قال: رآه عرجة أخرى، وإنما اختار النزلة لأن العرجة التي في الآخرة لا نزلة لها فقال: (نزلة) ليعلم أنها من الذي كان في الدنيا.

والقول الثاني: أنه عائد إلى جبريل عليه السلام، أي رأى جبريل نزلة أخرى، والنزلة حينئذٍ يحتمل أن تكون لمحمد ﷺ كما ذكرناه؛ لأن النبي ﷺ على ما ورد في بعض أخبار ليلة المعراج جاوز جبريل عليه السلام، وقال له جبريل عليه السلام لو دنوت أنملة لاحترقت[١]، ثم عاد إليه فذلك نزلة. فإن قيل: فكيف قال: ﴿أُخْرَىٰ﴾؟ نقول: لأن النبي ﷺ في أمر الصلاة تردد مرارًا، فربما كان يجاوز كل مرة، وينزل إلى جبريل، ويحتمل أن تكون لجبريل عليه السلام، وكلاهما منقول، وعلى هذا الوجه فنزلة أخرى ظاهر لأن جبريل كان له نزلات، وكان له نزلتان عليه وهو على صورته.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ المشهور أن السدرة شجرة في السماء السابعة وعليها مثل النبق، وقيل: في السماء السادسة، وورد في الخبر أنه ﷺ قال: «**نَبِقُهَا كَقِلَالِ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ**»[٢] وقيل: سدرة المنتهى هي الحيرة القصوى من السدرة، والسدرة كالركبة من الراكب عندما يحار العقل حيرة لا حيرة فوقها، ما حار النبي ﷺ وما غاب ورأى ما رأى.

وقوله: ﴿عِندَ﴾ ظرف مكان، أو ظرف زمان في هذا الموضع؟ نقول: المشهور أنه ظرف مكان، تقديره رأى جبريل أو غيره بقرب سدرة المنتهى. وقيل: ظرف زمان، كما يقال: صليت عند طلوع الفجر، وتقديره رآه عند الحيرة القصوى، أي في الزمان الذي تحار فيه عقول العقلاء، والرؤية من أتم العلوم وذلك الوقت من أشد أوقات الجهل والحيرة، فهو عليه الصلاة والسلام ما حار وقتًا من شأنه أن يحار العاقل فيه، والله أعلم.

المسألة الثالثة: إن قلنا: معناه رأى الله كيف يفهم ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾؟ قلنا: فيه أقوال:

الأول: قول من يجعل الله في مكان وهو باطل، وقد بالغنا في بيان بطلانه في سورة السجدة.

الثاني: رآه محمد ﷺ وهو ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ لأن الظرف قد يكون ظرفًا للرائي كما ذكرنا من المثال، يقال: رأيت الهلال، فيقال: لقائله أين رأيته؟ فيقول: على السطح. وربما يقول: عند

---

(١) تتقدم تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق)، باب: (ذكر المؤاكلة) (٦/ ٣٤٨)، حديث رقم (٣٢٠٧) من طريق همام... به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات) (١/ ٢٦٤/ ١٤٩) من طريق سعيد... به، جميعًا (همام، سعيد، هشام الدستوائي) عن قتادة... به.

الشجرة الفلانية. وأما إن قلنا: إن المراد جبريل عليه السلام. فالوجهان ظاهران، وكون النبي ﷺ مع جبريل عند سدرة المنتهى أظهر.

المسألة الرابعة: إضافة السدرة إلى المنتهى من أي (أنواع) الإضافة؟ نقول: يحتمل وجوهًا: أحدها: إضافة الشيء إلى مكانه، يقال: أشجار بلدة كذا لا تطول من البرد. ويقال: أشجار الجنة لا تيبس ولا تخلو من الثمار، فالمنتهى حينئذٍ موضع لا يتعداه ملك، وقيل: لا يتعداه روح من الأرواح. وثانيها: إضافة المحل إلى الحالّ فيه، يقال: كتاب الفقه، ومحل السواد، وعلى هذا فالمنتهى عند السدرة، تقديره سدرة عند منتهى العلوم. ثالثها: إضافة المِلك إلى مالكه، يقال: دار زيد وأشجار زيد. وحينئذٍ فالمنتهى إليه محذوف، تقديره سدرة المنتهى إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] فالمنتهى إليه هو الله، وإضافة السدرة إليه حينئذٍ كإضافة البيت إليه للتشريف والتعظيم، ويقال في التسبيح: يا غاية مناه، ويا منتهى أملاه.

قوله تعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ ﴾

وفي الجنة خلاف، قال بعضهم: جنة المأوى هي الجنة التي وُعد بها المتقون، وحينئذٍ الإضافة كما في قوله تعالى: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ [فاطر: ٣٥] وقيل: هي جنة أخرى عندها يكون أرواح الشهداء، وقيل: هي جنة للملائكة وقرئ: (جَنَّهُ) بالهاء من جن بمعنى أجن يقال: جن الليل وأجن، وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الضمير في قوله: ﴿ عِندَهَا﴾ عائدًا إلى النزلة، أي عند النزلة جن محمدًا المأوى، والظاهر أنه عائد إلى السدرة، وهي الأصح، وقيل: إن عائشة أنكرت هذه القراءة، وقيل: إنها أجازتها.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: العامل في ﴿ إِذْ﴾ ما قبلها أو ما بعدها فيه وجهان، فإن قلنا: ما قبلها ففيه احتمالان: أظهرهما ﴿رَءَاهُ﴾ [النجم: ١٣] أي رآه وقت ما يغشى السدرة الذي يغشى، والاحتمال الآخر العامل فيه الفعل الذي في النزلة، تقديره رآه نزلة أخرى تلك النزلة وقت ما يغشى السدرة ما يغشى، أي نزوله لم يكن إلا بعد ما ظهرت العجائب عند السدرة وغشيها ما غشى، فحينئذٍ نزل محمد نزلة إشارة إلى أنه لم يرجع من غير فائدة، وإن قلنا: ما بعده، فالعامل فيه ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧] أي ما زاغ بصره وقت غشيان السدرة ما غشيها، وسنذكره عند تفسير الآية.

المسألة الثانية: قد ذكرت أن في بعض الوجوه ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٤] هي الحيرة القصوى، وقوله: ﴿ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾ على ذلك الوجه ينادي بالبطلان، فهل يمكن تصحيحه؟ نقول: يمكن أن يقال: المراد من الغشيان غشيان حالة على حالة، أي ورد على حالة الحيرة

حالة الرؤية واليقين، ورأى محمدﷺ عندما حار العقل ما رآه وقت ما طرأ على تلك الحالة ما طرأ من فضل الله تعالى ورحمته، والأول هو الصحيح، فإن النقل الذي ذكرنا من أن السدرة نبقها كقلال هجر يدل على أنها شجرة.

المسألة الثالثة: ما الذي غشى السدرة؟ نقول: فيه وجوه: الأول: فَراش أو جراد من ذهب. وهو ضعيف؛ لأن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي، فإن صح فيه خبر فلا يبعد من جواز التأويل، وإن لم يصح فلا وجه له. الثاني: الذي يغشى السدرة ملائكة يغشونها كأنهم طيور، وهو قريب؛ لأن المكان مكان لا يتعداه الملك، فهم يرتقون إليه متشرفين به متبركين زائرين، كما يزور الناس الكعبة فيجتمعون عليها. الثالث: أنوار الله تعالى، وهو ظاهر؛ لأن النبيﷺ لما وصل إليها تجلى ربه لها، كما تجلى للجبل، وظهرت الأنوار، لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت، فجعل الجبل دكًّا، ولم تتحرك الشجرة، وخر موسى صعقًا، ولم يتزلزل محمد. الرابع: هو مبهم للتعظيم، يقول القائل: (رأيت ما رأيت عند الملك)، يشير إلى الإظهار من وجه، وإلى الإخفاء من وجه.

المسألة الرابعة: ﴿يَغْشَىٰ﴾ يستر، ومنه الغواشي أو من معنى الإتيان، يقال: فلا يغشاني كل وقت، أي يأتيني. والوجهان محتملان، وعلى قول من يقول: الله يأتي ويذهب، فالإتيان أقرب.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اللام في ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: المعروف وهو بصر محمد ﷺ، أي ما زاغ بصر محمد، وعلى هذا فعدم الزيغ على وجوه، إن قلنا (الغاشي للسدرة هو الجراد والفراش)، فمعناه لم يتلفت إليه ولم يشتغل به، ولم يقطع نظره عن المقصود، وعلى هذا فغشيان الجراد والفراش يكون ابتلاء وامتحانًا لمحمد ﷺ. وإن قلنا (أنوار الله)، ففيه وجهان: أحدهما: لم يلتفت يمنة ويسرة، واشتغل بمطالعتها. وثانيهما: ما زاغ البصر بصعقة بخلاف موسى عليه السلام، فإنه قطع النظر وغشي عليه، وفي الأول بيان أدب محمد ﷺ، وفي الثاني بيان قوته.

الوجه الثاني في اللام: أنه لتعريف الجنس، أي ما زاغ بصر أصلاً في ذلك الموضع لعظمة الهيبة، فإن قيل: لو كان كذلك لقال (ما زاغ بصر)، لأنه أدل على العموم؛ لأن النكرة في معرض النفي تعم، نقول: هو كقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولم يقل: لا يدركه بصر.

المسألة الثانية: إن كان المراد محمدًا، فلو قال (ما زاغ قلبه) كان يحصل به فائدة قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾؟ نقول: لا، وذلك لأن من يحضر عند ملك عظيم يرى من نفسه أنه يهابه ويرتجف

إظهارًا لعظمته مع أن قلبه قوي، فإذا قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ يحصل منه فائدة أن الأمر كان عظيمًا، ولم يزغ بصره من غير اختيار من صاحب البصر.

المسألة الثالثة: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ عطف جملة مستقلة على جملة أخرى، أو عطف جملة مقدرة على جملة، مثال المستقلة: خرج زيد ودخل عمرو، ومثال المقدرة: خرج زيد ودخل، فنقول: الوجهان جائزان، أما الأول: فكأنه تعالى قال عند ظهور النور: ما زاغ بصر محمد ﷺ، وما طغى محمد بسبب الالتفات، ولو التفت لكان طاغيًا. وأما الثاني: فظاهر على الأوجه، أما على قولنا: غشي السدرة جراد فلم يلتفت إليه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي ما التفت إلى غير الله، فلم يلتفت إلى الجراد، ولا إلى غير الجراد سوى الله. وأما على قولنا غشيها نور، فقوله: ﴿مَا زَاغَ﴾ أي ما مال عن الأنوار ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي ما طلب شيئًا وراءها. وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ما زاغ وما طغى، ولم يقل: (ما مال وما جاوز)، لأن الميل في ذلك الموضع والمجاوزة مذمومان، فاستعمل الزيغ والطغيان فيه، وفيه وجه آخر وهو أن يكون ذلك بيانًا لوصول محمد ﷺ إلى سدرة اليقين الذي لا يقين فوقه، ووجه ذلك أن بصر محمد ﷺ ﴿مَا زَاغَ﴾ أي ما مال عن الطريق، فلم ير الشيء على خلاف ما هو عليه، بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلاً، ثم ينظر إلى شيء أبيض، فإنه يراه أصفر أو أخضر يزيغ بصره عن جادة الأبصار ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ ما تخيل المعدوم موجودًا، فرأى المعدوم مجاوزًا الحد.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فيه دليل على أن النبي ﷺ رأى ليلة المعراج آيات الله، ولم ير الله، وفيه خلاف، ووجهه هو أن الله تعالى ختم قصة المعراج ههنا برؤية الآيات، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ إلى أن قال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن، فكانت الآية الرؤية، وكان أكبر شيء هو الرؤية، ألا ترى أن من له مال يقال له: سافِر لتربح، ولا يقال: سافِر لتتفرج؛ لما أن الربح أعظم من التفرج.

المسألة الثانية: قال بعض المفسرين: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وهي أنه رأى جبريل عليه السلام في صورته. فهل هو على ما قاله؟ نقول: الظاهر أن هذه الآيات غير تلك، وذلك لأن جبريل عليه السلام وإن كان عظيمًا، لكن ورد في الأخبار أن لله ملائكة أعظم منه، والكبرى تأنيث الأكبر، فكأنه تعالى يقول: رأى من آيات ربه آيات هن أكبر الآيات، فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥] مع أن أكبر من سقر عجائب الله، فكذلك الآيات الكبرى تكون جبريل وما فيه، وإن كان لله آيات أكبر منه. نقول: سقر إحدى الكُبَر، أي إحدى الدواهي

الكُبَر، ولا شك أن في الدواهي سقر عظيمة كبيرة، وأما آيات الله فليس جبريل أكبرها ولأن سقر في نفسها أعظم وأعجب من جبريل عليه السلام، فلا يلزم من صفتها بالكبر صفتها بالكبرى.

المسألة الثالثة: (الكبرى) صفة ماذا؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: صفة محذوف، تقديره: لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى. ثانيهما: صفة آيات ربه، وعلى هذا يكون مفعول رأى محذوفًا تقديره: رأى من الآيات الكبرى آية أو شيئًا.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغي أن يبتدئ به الرسول وهو التوحيد ومَنْع الخلق عن الإشراك، فقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ إشارة إلى إبطال قولهم بنفس القول، كما أن ضعيفًا إذا ادعى المُلك ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه يقولون: (انظروا إلى هذا الذي يدعي المُلك)، منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره، فلذلك قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ أي كما هما فكيف تشركونهما بالله، والتاء في اللات تاء تأنيث كما في المناة لكنها تُكتب مطولة لئلا يوقف عليها فتصير هاء فيشتبه باسم الله تعالى، فإن الهاء في الله أصلية ليست تاء تأنيث وقف عليها فانقلبت هاء، وهي صنم كانت لثقيف بالطائف، قال الزمخشري: هي فَعْلة من لوى يلوي، وذلك لأنهم كانوا يلوون عليها. وعلى ما قال فأصله لوية أُسكنت الياء وحُذفت لالتقاء الساكنين فبقيت لوة قلبت الواو ألفًا لفتح ما قبلها فصارت لات، وقرئ (اللاتّ) بالتشديد من لت، قيل: إنه مأخوذ من رجل كان يلت بالسمن الطعام ويطعم الناس فعُبد واتخذ على صورته وثن وسموه باللات، وعلى هذا فاللات ذكر.

وأما العزى فتأنيث الأعز وهي شجرة كانت تُعبد، فبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطعها وخرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس منشورة الشعر، تضرب رأسها وتدعو بالويل والثبور، فقتلها خالد وهو يقول:

يَا عُزُّ كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَكِ ... إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكِ

ورجع إلى النبي ﷺ وأخبره بما رأى وفعل فقال: «**تلك العزى ولن تُعبد أبدًا**»، وأما مناة فهي فعلة صنم الصفا، وهي صخرة كانت لهذيل وخزاعة. **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: الآخر لا يصح أن يقال إلا إذا كان الأول مشاركًا للثاني، فلا يقال: رأيت امرأة ورجلاً آخر، ويقال: رأيت رجلاً ورجلاً آخر. لاشتراك الأول والثاني في كونهما من الرجال، وهاهنا قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ يقتضي على ما ذكرنا أن تكون العزى ثالثة أولى ومناة ثالثة أخرى، وليس كذلك. والجواب عنه من وجوه: الأول: الأخرى كما هي تستعمل للذم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٩] أي لمتأخرتهم وهم الأتباع، ويقال لهم الأذناب لتأخرهم في المراتب فهي صفة ذم، كأنه تعالى يقول: ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة، ونقول على هذا: للأصنام الثلاثة ترتيب، وذلك لأن الأول كان وثنًا على صورة آدمي، والعزى

صورتها صورة نبات، ومناة صورتها صورة صخرة هي جماد، فالآدمي أشرف من النبات، والنبات أشرف من الجماد، فالجماد متأخر، والمناة جماد فهي في الأخريات من المراتب.
الجواب الثاني: فيه محذوف تقديره: أفرأيتم اللات والعزى المعبودين بالباطل ومناة الثالثة المعبودة الأخرى. والجواب الثالث: هو أن الأصنام كان فيها كثرة واللاّت والعزى إذا أخذتا متقدمتين فكل صنمة توجد فهي ثالثة، فهناك ثوالث، فكأنه يقول: لهما ثوالث كثيرة وهذه ثالثة أخرى، وهذا كقول القائل يومًا ويومًا. والجواب الرابع: فيه تقديم وتأخير تقديره: ومناة الأخرى الثالثة، ويحتمل أن يقال: الأخرى تستعمل لموهوم أو مفهوم وإن لم يكن مشهورًا ولا مذكورًا يقول من يكثر تأذيه من الناس إذا آذاه إنسان: الآخر جاء يؤذينا. وربما يسكت على قوله (أنت الآخر)، فيفهم غرضه كذلك ههنا.

المسألة الثانية: وهي في الترتيب أولى ما فائدة الفاء في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ وقد استعمل في مواضع بغير الفاء؟ قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤] ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ [فاطر: ٤٠]، نقول: لما قدم من عظمة آيات الله في ملكوته أن رسول الله إلى الرسل الذي يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته - لا يمكنه أن يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته، قال: أفرأيتم هذه الأصنام مع زلتها وحقارتها شركاء الله مع ما تقدم، فقال بالفاء أي عقيب ما سمعتم من عظمة آيات الله تعالى الكبرى ونفاذ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى، فانظروا إلى اللات والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم إليه وعولتم عليه.

المسألة الثالثة: أين تتمة الكلام الذي يفيد فائدة ما؟ نقول: قد تقدم بيانه وهو أنه يقول: هل رأيتم هذه حق الرؤية، فإن رأيتموها علمتم أنها لا تصلح شركاء. نظيره ما ذكرنا فيمن ينكر كون ضعيف يدعي مُلكًا، يقول لصاحبه: (أما تعرف فلانًا) مقتصرًا عليه مشيرًا إلى بطلان ما يذهب إليه.

قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ وقد ذكرنا ما يجب ذكره في سورة (والطور) في قوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] ونعيد هاهنا بعض ذلك أو ما يقرب منه، فنقول: لما ذكر اللاّت والعزى ومناة ولم يذكر شيئًا آخر قال: إن هذه الأشياء التي رأيتموها وعرفتموها تجعلونها شركاء لله، وقد سمعتم جلال الله وعظمته، وإن الملائكة مع رفعتهم وعلوهم ينتهون إلى السدرة ويقفون هناك، لا يبقى شك في كونهم بعيدين عن طريقة المعقول أكثر مما بعدوا عن طريقة المنقول، فكأنهم قالوا: نحن لا نشك أن شيئًا منها ليس مثلاً لله تعالى ولا قريبًا من أن يماثله، وإنما صَوَّرنا هذه الأشياء على صور الملائكة المعظمين الذين اعترف بهم الأنبياء، وقالوا: إنهم يرتقون ويقفون عند سدرة المنتهى ويرد عليهم الأمر والنهي، وينهون إلى الله ما يصدر من عباده في أرضه وهم بنات الله، فاتخذنا صورًا على صور الإناث وسميناها أسماء الإناث، فاللاّت تأنيث اللوة وكان أصله أن يقال: (اللاهة) لكن في التأنيث يوقف عليها فتصير

اللاهة فأسقط إحدى الهاءين وبقيت الكلمة على حرفين أصليين وتاء التأنيث، فجعلناها كالأصلية كما فعلنا بذات مال وذا مال، والعزى تأنيث الأعز، فقال لهم: كيف جعلتم لله بنات وقد اعترفتم في أنفسكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون، والله كامل العظمة، فالمنسوب إليه كيف جعلتموه ناقصًا وأنتم في غاية الحقارة والذلة حيث جعلتم أنفسكم أذل من خمار وعبد، ثم صخرة وشجرة، ثم نسبتم إلى أنفسكم الكامل؟! فهذه القسمة جائزة على طريقتكم أيضًا حيث أذللتم أنفسكم ونسبتم إليها الأعظم من الثقلين، وأبغضتم البنات ونسبتموهن إلى الأعظم وهو الله تعالى، وكان على عادتكم أن تجعلوا الأعظم للعظيم والأنقص للحقير، فإذن أنتم خالفتم الفكر والعقل والعادة التي لكم.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: (تلك) إشارة إلى ماذا؟ نقول: إلى محذوف، تقديره: تلك القسمة قسمة ضيزى، أي غير عادلة، ويحتمل أن يقال: معناه تلك النسبة قسمة، وذلك لأنهم ما قسموا وما قالوا لنا البنون وله البنات، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائرة، وهذا الخلاف لا يرهق.

المسألة الثانية: ﴿إِذًا﴾ جواب ماذا؟ نقول: يحتمل وجوهًا: الأول: نسبتكم البنات إلى الله تعالى إذا كان لكم البنون قسمة ضيزى. الثاني: نسبتكم البنات إلى الله تعالى مع اعتقادكم أنهن ناقصات واختياركم البنين مع اعتقادكم أنهم كاملون إذا كنتم في غاية الحقارة، والله تعالى في نهاية العظمة قسمة ضيزى، فإن قيل: ما أصل ﴿إِذًا﴾؟ قلنا: هو (إذا) التي للظرف قُطعت الإضافة عنها فحصل فيها تنوين، وبيانه هو أنك تقول (آتيك إذا طلعت الشمس) فكأنك أضفت (إذا) لطلوع الشمس وقلت (آتيك وقت طلوع الشمس)، فإذا قال قائل (آتيك) فتقول له (إذن أكرمك) أي إذا أتيتني أكرمك، فلما حذفت الإتيان لسبق ذكره في قول القائل أتيت بدله بتنوين وقلت (إذن) كما تقول: وكلاًّ آتيناه.

المسألة الثالثة: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ قرئ بالهمزة وبغير همزة، وعلى الأولى هي فِعْلى بكسر الفاء كذكرى على أنه مصدر وُصف به كرجل عَدْل، أي قسمة ضائزة. وعلى القراءة الثانية هي فُعْلى وكان أصلها ضِوْزى لكن عين الكلمة كانت يائية فكسرت الفاء لتسلم العين عن القلب، كذلك فُعل بِبِيض فإن جمع أفعل فُعْل تقول أسود وسود وأحمر وحمر، وتقول أبيض وبيض، وكان الوزن بُيض وكان يلزم منه قلب العين فكُسرت الباء وتُركت الباء على حالها، وعلى هذا ضيزى للمبالغة من ضائزة، تقول فاضل وأفضل وفاضلة وفضلى وكبير وأكبر وكبيرى وكبرى، كذلك ضائز وضوز وضائزة وضوزى على هذا نقول أضوز من ضائز وضيزى من ضائزة، فإن قيل: قد قلت من قبل: إن قوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] ليس بمعنى إنكار الأمرين بل بمعنى إنكار الأول وإظهار النكر بالأمر الثاني، كما تقول: أتجعلون لله أندادًا وتعلمون أنه خلق كل ما

سواه؟ فإنه لا ينكر الثاني، وهاهنا قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ دلّ على أنه أنكر الأمرين جميعًا، نقول: قد ذكرنا هناك أن الأمرين محتملان: أما إنكار الأمرين فظاهر في المشهور، أما إنكار الأول فثابت بوجوه، وأما الثاني فلما ذكرنا أنه تعالى قال: كيف تجعلون لله البنات وقد صار لكم البنون بقدرته؟ كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] خالق البنين لكم لا يكون له بنات، وأما قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ فنقول: قد بينا أن تلك عائدة إلى النسبة، أي نسبتكم البنات إلى الله تعالى مع أن لكم البنين - قسمة ضائزة، فالمنكر تلك النسبة، وإن كان المنكر القسمة نقول: يجوز أن يكون تقديره أيجوز جعل البنات لله تعالى؟ كما أن واحدًا إذا كان بينه وبين شريكه شيء مشترك على السوية فيأخذ نصفه لنفسه ويعطي من النصف الباقي نصفه لظالمه ونصفه لصاحبه، فقال: هذه قسمة ضائزة لا لكونه أخذ النصف فذلك حقه، بل لكونه لم يوصل إليه النصف الباقي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ وفيه مباحث تدق عن إدراك اللغوي إن يكن عنده من العلوم حظ عظيم، ولنذكر ما قيل فيه أولاً فنقول: قيل معناه: إن هي إلا أسماء، أي كونها إناثًا وكونها معبودات أسماء لا مسمى لها، فإنها ليست بإناث حقيقة ولا معبودات، وقيل أسماء، أي قلتم بعضها عزى ولا عزة لها، وقيل: قلتم إنها آلهة وليست بآلهة، والذي نقوله: هو أن هذا جواب عن كلامهم، وذلك على ما بينا أنهم قالوا: نحن لا نشك في أن الله تعالى لم يلد كما تلد النساء، ولم يولد كما تولد الرجال بالمجامعة والإحبال، غير أنا رأينا لفظ الولد مستعملاً عند العرب في المسبب تقول: بنت الجبل وبنت الشفة لِما يظهر منهما ويوجد، لكن الملائكة أولاد الله، بمعنى أنهم وُجدوا بسببه من غير واسطة فقلنا: إنهم أولاده، ثم إن الملائكة فيها تاء التأنيث فقلنا: هم أولاد مؤنثة، والولد المؤنث بنت، فقلنا: لهم بنات الله، أي لا واسطة بينهم وبين الله تعالى في الإيجاد. كما تقول الفلاسفة، فقال تعالى: هذه الأسماء استنبطتموها أنتم بهوى أنفسكم، وأطلقتم على الله ما يوهم النقص وذلك غير جائز، وقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وقوله (بيده الخير) أسماء موهمة غير أنه تعالى أنزلها، وله أن يسمي نفسه بما اختار، وليس لأحد أن يسمي بما يوهم النقص من غير ورود الشرع به.

ولنبين التفسير في مسائل:

المسألة الأولى: ﴿هِىَ﴾ ضمير عائد إلى ماذا؟ نقول: الظاهر أنها عائدة إلى أمر معلوم وهو الأسماء، كأنه قال: ما هذه الأسماء التي وضعتموها أنتم. وهو المشهور، ويحتمل أن يقال:

هي عائدة إلى الأصنام بأنفسها، أي ما هذه الأصنام إلا أسماء. وعلى هذا فهو على سبيل المبالغة والتجوز، يقال لتحقير إنسان: ما زيد إلا اسم وما الملك إلا اسم، إذا لم يكن مشتملاً على صفة تعتبر في الكلام بين الناس، ويؤيد هذا القول قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ [يوسف: ٤٠] أي ما هذه الأصنام إلا أسماء.

المسألة الثانية: ما الفائدة في قوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ مع أن جميع الأسماء وضعوها أو بعضها هم وضعوها ولم ينكر عليهم؟ نقول: المسألة مختلف فيها ولا يتم الذم إلا بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ وبيانه هو أن الأسماء إن أنزلها الله تعالى فلا كلام فيها، وإن وضعها للتفاهم فينبغي أن لا يكون في ضمن تلك الفائدة مفسدة أعظم منها، لكن إيهام النقص في صفات الله تعالى أعظم منها، فالله تعالى ما جوّز وضع الأسماء للحقائق إلا حيث تسلم عن المحرم، فلم يوجد في هذه الأسماء دليل نقلي ولا وجه عقلي؛ لأن ارتكاب المفسدة العظيمة لأجل المنفعة القليلة لا يجوزه العاقل، فإذًا ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ووَضْع الاسم لا يكون إلا بدليل نقلي أو عقلي، وهو أنه يقع خاليًا عن وجوه المضار الراجحة.

المسألة الثالثة: كيف قال: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ مع أن هذه الأسامي لأصنامهم كانت قبلهم؟ نقول: فيه لطيفة وهي أنهم لو قالوا: ما سميناها، وإنما هي موضوعة قبلنا. قيل لهم: كل من يطلق هذه الألفاظ فهو كالمبتدئ الواضع، وذلك لأن الواضع الأول لهذه الأسماء لما لم يكن واضعًا بدليل عقلي لم يجب اتباعه، فمن يطلق اللفظ لأن فلانًا أطلقه لا يصح منه، كما لا يصح أن يقول: أضلني الأعمى. ولو قاله لقيل له: بل أنت أضللت نفسك حيث اتبعت من عرفت أنه لا يصلح للاقتداء به.

المسألة الرابعة: الأسماء لا تسمى، وإنما يسمى بها، فكيف قال: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾؟ نقول عنه جوابان: أحدهما لغوي: وهو أن التسمية وضع الاسم، فكأنه قال: أسماء وضعتموها. فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها، ويقال: سميته زيدًا وسميته بزيد، فسميتموها بمعنى سميتم بها. وثانيهما معنوي: وهو أنه لو قال (أسماء سميتم بها) لكان هناك غير الاسم شيء يتعلق به الباء في قوله: ﴿بِهَا﴾ لأن قول القائل: (سميت به) يستدعي مفعولاً آخر، تقول: سميت بزيد ابني أو عبدي أو غير ذلك، فيكون قد جعل للأصنام اعتبارًا وراء أسمائها، وإذا قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي وضعتموها في أنفسها لا مسميات لها، لم يكن ذلك. فإن قيل: هذا باطل بقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] حيث لم يقل: (وإني سميتها بمريم) ولم يكن ما ذكرت مقصودًا وإلا لكانت مريم غير ملتفت إليها كما قلت في الأصنام؟ نقول: بينهما بون عظيم وذلك لأن هناك قال: ﴿سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فذكر المفعولين فاعتبر حقيقة مريم بقوله: ﴿سَمَّيْتُهَا﴾ واسمها بقوله: ﴿مَرْيَمَ﴾ وأما هاهنا فقال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي ما هناك إلا أسماء موضوعة، فلم تعتبر الحقيقة هاهنا واعتبرت في مريم.

المسألة الخامسة: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ على أي وجه استعملت الباء في قوله: ﴿بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؟ نقول: كما يستعمل القائل: (ارتحل فلان بأهله ومتاعه)، أي ارتحل ومعه الأهل والمتاع، كذا هاهنا.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (إن تتبعون) بالتاء على الخطاب، وهو ظاهر مناسب لقوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ على المغايبة، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون الخطاب معهم لكنه يكون التفاتًا، كأنه قطع الكلام معهم، وقال لنبيه: إنهم لا يتبعون إلا الظن، فلا تلتفت إلى قولهم. ثانيهما: أن يكون المراد غيرهم، وفيه احتمالان: أحدهما: أن يكون المراد آباؤهم وتقديره هو أنه لما قال: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ﴾ كأنهم قالوا: هذه ليست أسماء وضعناها نحن، وإنما هي كسائر الأسماء تلقيناها ممن قبلنا من آبائنا. فقال وسماها آباؤكم وما يتبعون إلا الظن، فإن قيل: كان ينبغي أن يكون بصيغة الماضي، نقول: وبصيغة المستقبل أيضًا، كأنه يفرض الزمان بعد زمان الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ﴾ [الكهف: ١٨]. ثانيهما: أن يكون المراد عامة الكفار، كأنه قال: إن يتبع الكافرون إلا الظن.

المسألة الثانية: ما معنى الظن وكيف ذمهم به وقد وجب علينا اتباعه في الفقه وقال ﷺ عن الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»؟ نقول: أما الظن فهو خلاف العلم، وقد استعمل مجازًا مكان العلم والعلم مكانه، وأصل العلم الظهور ومنه العَلَم والعالم، وقد بينا في تفسير العالمين أن حروف (ع ل م) في تقاليبها فيها معنى الظهور، ومنها لمع الآل إذا ظهر وميض السراب ولمع الغزال إذا عدا وكذا النعام وفيه الظهور، وكذلك علمت، والظن إذا كان في مقابلة العلم ففيه الخفاء، ومنه بئر ظنون لا يُدرى أفيها ماء أم لا، ومنه الظنين: المتهم لا يدرى ما يظن، نقول: يجوز بناء الأمر على الظن الغالب عند العجز عن درك اليقين، والاعتقاد ليس كذلك لأن اليقين لم يتعذر علينا وإلى هذا إشارة بقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣] أي اتبعوا الظن، وقد أمكنهم الأخذ باليقين، وفي العمل يمتنع ذلك أيضًا.

المسألة الثالثة: (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ خبرية أو مصدرية؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: مصدرية، كأنه قال: إن يتبعون إلا الظن وهوى الأنفس، فإن قيل: ما الفائدة في العدول عن صريح المصدر إلى الفعل مع زيادة ما وفيه تطويل؟ نقول: فيه فائدة، وإنها في أصل الوضع ثم نذكرها هنا فنقول: إذا قال القائل: (أعجبني صنعك) يعلم من الصيغة أن الإعجاب من مصدر قد تحقق، وكذلك إذا قال (أعجبني ما تصنع) يعلم أن الإعجاب من مصدر هو فيه، فلو قال: (أعجبني صنعك) وله صنع أمس وصنع اليوم لا يُعلم أن المعجب أي صنع هو، إذا علمت هذا فنقول: هاهنا قوله: ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ يُعلم منه أن المراد أنهم يتبعون ما

تهوى أنفسهم في الحال والاستقبال، إشارة إلى أنهم ليسوا بثابتين على ضلال واحد وما هوت أنفسهم في الماضي شيئًا من أنواع العبادة فالتزموا به وداموا عليه، بل كل يوم هم يستخرجون عبادة، وإذا انكسرت أصنامهم اليوم أتوا بغيرها غدًا، ويغيرون وضع عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم. ثانيهما: أنها خبرية، تقديره: والذي تشتهيه أنفسهم. والفرق بين المصدرية والخبرية أن المتبع على الأول الهوى، وعلى الثاني مقتضى الهوى، كما إذا قلت: أعجبني مصنوعك.

المسألة الرابعة: كيف قال: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ بلفظ الجمع مع أنهم لا يتبعون ما تهواه كل نفس، فإن من النفوس ما لا تهوى ما تهواه غيرها؟ نقول: هو من باب مقابلة الجمع بالجمع، معناه اتبع كل واحد منهم ما تهواه نفسه، يقال: خرج الناس بأهليهم، أي كل واحد بأهله، لا كل واحد بأهل الجمع.

المسألة الخامسة: بيِّن لنا معنى الكلام جملة. نقول: قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أمران مذكوران يحتمل أن يكون ذكرهما لأمرين تقديريين يتبعون الظن في الاعتقاد ويتبعون ما تهوى الأنفس في العمل والعبادة، وكلاهما فاسد؛ لأن الاعتقاد ينبغي أن يكون مبناه على اليقين، وكيف يجوز اتباع الظن في الأمر العظيم، وكلما كان الأمر أشرف وأخطر كان الاحتياط فيه أوجب وأحذر، وأما العمل فالعبادة مخالفة الهوى فكيف تبنى على متابعته، ويحتمل أن يكون في أمر واحد على طريقة النزول درجة درجة فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي وما دون الظن لأن القرونة تهوى ما لا يظن به خير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ إشارة إلى أنهم على حال لا يعتد به؛ لأن اليقين مقدور عليه، وتحقق بمجيء الرسل، والهدى فيه وجوه ثلاثة: الأولى: القرآن. الثاني: الرسل. الثالث: المعجزات.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ المشهور أن (أم) منقطعة، معناه: ألِلإنسان ما اختاره واشتهاه؟ وفي ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ وجوه: الأول: الشفاعة تمنوها وليس لهم شفاعة. الثاني: قولهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] الثالث: قول الوليد بن المغيرة: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] الرابع: تمنى جماعة أن يكونوا أنبياء ولم تحصل لهم تلك الدرجة الرفيعة، فإن قلت: هل يمكن أن تكون (أم) هاهنا متصلة؟ نقول: نعم والجملة الأولى حينئذٍ تحتمل وجهين: أحدهما: أنها مذكورة في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] كأنه قال: ألكم الذكر وله الأنثى على الحقيقة أو تجعلون لأنفسكم ما تشتهون وتتمنون؟ وعلى هذا فقوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢] وغيرها جمل اعترضت بين كلامين متصلين. ثانيهما: أنها محذوفة، وتقرير ذلك هو أنا بينا أن قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ [النجم: ١٩] لبيان فساد قولهم، والإشارة إلى

ظهور ذلك من غير دليل، كما إذا قال قائل: (فلان يصلح للمُلك) فيقول آخر لثالث: (أما رأيت هذا الذي يقوله فلان؟) ولا يذكر أنه لا يصلح للمُلك، ويكون مراده ذلك فيذكره وحده منبهًا على عدم صلاحه، فهاهنا قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] أي يستحقان العبادة أم للإنسان أن يعبد ما يشتهيه طبعه وإن لم يكن يستحق العبادة، وعلى هذا فقوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ﴾ أي هل له أن يعبد بالتمني والاشتهاء؟ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي عبدتم بهوى أنفسكم ما لا يستحق العبادة، فهل لكم ذلك؟

ثم قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق الفاء بالكلام، وفيه وجوه: الأول: أن تقديره الإنسان إذا اختار معبودًا في دنياه على ما تمناه واشتهاه، فلله الآخرة والأولى يعاقبه على فعله في الدنيا، وإن لم يعاقبه في الدنيا فيعاقبه في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ [النجم: ٢٦] يكون مؤكدًا لهذا المعنى، أي عقابهم يقع ولا يشفع فيهم أحد ولا يغنيهم شفاعة شافع. الثاني: أنه تعالى لما بيّن أن اتخاذ اللات والعزى باتباع الظن وهوى الأنفس كأنه قرره وقال: إن لم تعلموا هذا فلله الآخرة والأولى، وهذه الأصنام ليس لها من الأمر شيء فكيف يجوز الإشراك؟! وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ على هذا الوجه جواب كلام، كأنهم قالوا: لا نشرك بالله شيئًا، وإنما هذه الأصنام شفعاؤنا فإنها صورة ملائكة مقربين. فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ الثالث: هذه تسلية، كأنه تعالى قال ذلك لنبيه حيث بيّن رسالته ووحدانية الله ولم يؤمنوا فقال: لا تأس فللّه الآخرة والأولى، أي لا يعجزون الله. الرابع: هو ترتيب حق عليَّ دليله، بيانه هو أنه تعالى لما بيّن رسالة النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] إلى آخره وبيّن بعض ما جاء به محمد ﷺ وهو التوحيد، قال: إذا علمتم صدق محمد ببيان رسالة الله تعالى: فللّه الأخرة والأولى لأنه ﷺ أخبركم عن الحشر فهو صادق. الخامس: هو أن الكفار كانوا يقولون للمؤمنين: أهؤلاء أهدى منا؟ وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] فقال تعالى: إن الله اختار لكم الدنيا وأعطاكم الأموال، ولم يعط المؤمنين بعض ذلك الأمر بل قلتم: لو شاء الله لأغناهم وتحققتم هذه القضية ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ قولوا في الآخرة ما قلتم في الدنيا: يهدي الله من يشاء كما يغني الله من يشاء.

المسألة الثانية: ﴿ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ صفة ماذا؟ نقول: صفة الحياة أو صفة الدار، وهي اسم فاعل من فعل غير مستعمل، تقول: أخرته فتأخر، وكان من حقه أن تقول: فأخَّر، كما تقول: غبَّرته فغبَّر، فمنعت منه سماعًا، ولهذا البحث فائدة ستأتي إن شاء الله.

المسألة الثالثة: ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾ فعلى للتأنيث، فالأول إذن أفعل صفة. **وفيه مباحث:**

البحث الأول: لا بد من فاعل أُخذ منه الأفعل والفُعلى، فإن كل فُعلى وأفعل للتأنيث والتذكير له أصل فليؤخذ منه كالفضلى والأفضل من الفاضلة والفاضل، فما ذلك؟ نقول: هاهنا أُخذ من

أصل غير مستعمل كما قلنا: إن الآخر فاعل من فعل غير مستعمل، وسبب ذلك هو أن كل فعل مستعمل فله آخر، وذلك لأن له ماضيًا فإذا استعملت ماضيه لزم فراغ الفعل، وإلا لكان الفاعل بعد في الفعل فلا يكون ماضيًا فإنك لا تقول لمن هو بعد الأكل: (أكَل) إلا متجوزًا عندما يبقى له قليل، فيقول: (أكَل) إشارة إلى أن ما بقي غير معتدٍّ به، وتقول لمن قرب من الفراغ: فرغت؟ فيقول: فرغت بمعنى أن ما بقي قليل لا يُعتد به فكأني فرغت، وأما الماضي في الحقيقة لا يصح إلا عند تمام الشيء والفراغ عنه، فإذًا للفعل المستعمل آخر فلو كان لقولنا آخر على وزن فاعل فعل هو آخر يأخر كأمر يأمر لكان معناه صدر مصدره كجلس معناه صدر الجلوس منه بالتمام والكمال، فكان ينبغي أن القائل إذا قال: (فلان آخر) كان معناه وُجد منه تمام الآخرية وفرغ منها، فلا يكون بعد ما يكون آخر، لكن تقدم أن كل فعل فله آخر بعده، لا يقال: يشكل بقولنا تأخر فإن معناه صار آخرًا لأنا نقول: وزن الفعل ينادي على صحة ما ذكرنا، فإنه من باب التكلف والتكبر إذا استعمل في غير المتكبر، أي يرى أنه آخر، وليس في الحقيقة كذلك.

إذا علمت هذا فنقول: الآخر فاعل ليس له فعل، ومبالغته بأفعل وهو كقولنا: أأُخر، فنقلت الهمزة إلى مكان الألف، والألف إلى مكان الهمزة، فصارت الألف همزة والهمزة ألفًا، ويدل عليه التأويل في المعنى، فإن آخر الشيء جزء منه متصل به، والآخَر مباين عنه منفصل والمنفصل بعد المتصل، والآخر أشد تأخرًا عن الشيء من آخره، والأول أفعل ليس له فاعل، وليس له فعل، والأول أبعد عن الفعل من الآخر، وذلك لأن الفعل الماضي عُلم له آخر من وصفه بالماضي، ولولا ذلك الوصف لما علم له آخر، وأما الفعل لتفسير كونه فعلاً علم له أول لأن الفعل لا بد له من فاعل يقوم به، أو يوجد منه، فإذًا الفاعل أولاً ثم الفعل، فإذا كان الفاعل أول الفعل كيف يكون الأول له فعل يوجد منه فلا فعل له ولا فاعل، فلا يقال: آل الشيء بمعنى سبق، كما يقال: قال من القول، أو نال من النيل، لا يقال: إن قولنا سَبَق أُخذ منه السابق ومن السابق الأسبق، مع أن الفاعل يسبق الفعل، وكذلك يقال: تقدم الشيء مع أن الفاعل متقدم على الفعل إلى غير ذلك، نقول: أما تقدم قد مضى الجواب عنه في تأخر، وأما (سبق) يقول القائل: سابقته فسبقته، فتجيب عنه بأن ذلك مفتقر إلى أمر يصدر من فاعل فالسابق إن استعمل في الأول فهو بطريق المشابهة لا بطريق الحقيقة، والفاعل أول الفعل بمعنى قبل الفعل، وليس سابق الفعل؛ لأن الفاعل والفعل لا يتسابقان، فالفاعل لا يسبقه، والذي يوضح ما ذكرنا أن الآخر أبعد من الأول عن الفعل بخلاف الآخر، وما يقال: إن أول بمعنى جعل الآخر أولاً لاستخراج معنى من الكلام، فبعيد وإلا لم يكن آخر دونه في إفادة ذلك، بل التأويل من آل شيء إذا رجع، أي رجعه إلى المعنى المراد، وأبعد من اللفظين قبل وبعد، فإن الآخر فاعل من غير فعل، والأول أفعل من غير فاعل ولا فعل، وقبل وبعد لا فاعل ولا أفعل فلا يفهم من فعل أصلاً لأن الأول أول لما فيه من معنى قبل، وليس قبل قبلاً لما فيه من معنى الأول، والآخر آخر لما فيه من معنى

بعد، وليس بعد بعدًا لما فيه من معنى الآخر، يدلك عليه أنك تعلل أحدهما بالآخر ولا تعكسه فتقول: هذا آخر من جاء لأنه جاء بعد الكل ولا تقول: هو جاء بعد الكل لأنه آخر من جاء، ويؤيده أن الآخر لا يتحقق إلا ببعدية مخصوصة وهي التي لا بعدية بعدها، وبعد ليس لا يتحقق إلا بالآخر، فإن المتوسط بعد الأول ليس بآخر. وهذا البحث من أبحاث الزمان ومنه يعلم معنى قوله ﷺ: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ»[1] أي الدهر هو الذي يفهم منه القبلية والبعدية، والله تعالى هو الذي يفهم منه ذلك، والبعدية والقبلية حقيقة لإثبات الله، ولا مفهوم للزمان إلا ما به القبلية والبعدية، فلا تسبوا الدهر فإن ما تفهمونه منه لا يتحقق إلا في الله وبالله، ولولاه لما كان قبل ولا بعد.

البحث الثاني: ورد في كلام العرب الأولة تأنيث الأول، وهو ينافيه صحة استعمال الأُولى لأن الأُولى تدل على أن الأول أفعل للتفضيل، وأفعل للتفضيل لا يلحقه تاء التأنيث فلا يقال زيد أعلم وزينب أعلمة لسبب يطول ذكره، وسنذكره في موضع آخر إن شاء الله تعالى، نقول: الجواب عنه هو أن أول لما كان أفعل وليس له فاعل شابه الأربع والأرنب، فجاز إلحاق التاء به، ولما كان صفة شابه الأكبر والأصغر فقيل أُولى.

المسألة الرابعة: أُولى تدل على أن أول لا ينصرف فكيف يقال أفعله أولاً ويقال جاء زيدًا أولاً وعمرو ثانيًا، فإن قيل: جاز فيه الأمران بناء على أولة وأولى، فمن قال بأن تأنيث أول أولة فهو كالأربع والأربعة فجاز التنوين، ومن قال: أُولى لا يجوز، نقول: إذا كان كذلك كان الأشهر ترك التنوين لأن الأشهر أن تأنيثه أولى وعليه استعمال القرآن، فإذن الجواب أن عند التأنيث الأَوْلى أن يقال أُولى نظرًا إلى المعنى، وعند العرب أولة لأنه هو الأصل ودل عليه دليل، وإن كان أضعف من الغير، وربما يقال بأن منع الصرف من أفعل لا يكون إلا إذا لم يكن تأنيثه إلا فُعلى، وأما إذا كان تأنيثه بالتاء أو جاز ذلك فيه لا يكون غير منصرف.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

وقد علم وجه تعلقها بما قبلها في الوجوه المتقدمة في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ [النجم: ٢٥] إن قلنا: إن معناه: إن اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الأمر شيء ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥] فلا يجوز إشراكهم فيقولون: نحن لا نشرك بالله شيئًا، وإنما نقول: هؤلاء شفعاؤنا. فقال: كيف تشفع هذه ومن في السموات لا يملك الشفاعة؟!

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٧٦٣/ ٢٢٤٦) من طريق هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٩٥)، حديث رقم (٩١٢٦) من طريق خلاس ومحمد عن أبي هريرة... به، وأيضًا في (٢/ ٤٩١)، حديث رقم (١٠٣٧٢) من طريق هشام عن محمد عن أبي هريرة... به.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿وَكَم﴾ كلمة تستعمل في المقادير، إما لاستبانتها فتكون استفهامية، كقولك: كم ذراعًا طوله وكم رجلاً جاءك؟ أي كم عدد الجائين؟ تستبين المقدار وهي مثل (كيف) لاستبانة الأحوال و(أي) الاستبانة الأفراد، و(ما) لاستبانة الحقائق، وإما لبيانها على الإجمال فتكون خبرية كقولك: كم رجل أكرمني، أي كثير منهم أكرموني. غير أن عليه أسئلة: الأول: لمَ لم يجز إدخال (مِن) على الاستفهامية وجاز على الخبرية؟ الثاني: لمَ نصب مميز الاستفهامية وجر الذي للخبرية؟ الثالث: هي تستعمل في الخبرية في مقابلة (رُب) فلمَ جُعل اسمًا مع أن رب حرف.

أما الجواب عن الأول فهو أن (مِن) يستعمل في الموضع المتعين بالإضافة، تقول: خاتم من فضة، كما تقول: خاتم فضة، ولما لم تضف في الاستفهامية لم يجز استعمال ما يضاهيه، وسنبين هذا الجواب. والجواب عن السؤال الثاني هو أن نقول: إن الأصل في المميز الإضافة. وعن الثالث هو أن كم يدخل عليه حرف الجر فتقول: إلى كم تصبر؟ وفي كم يوم جئت؟ وبكم رجل مررت؟ ومن حيث المعنى إن (كم) إذا قرن بها (مِن) وجُعل مميزه جمعًا كما في قول القائل: كم من رجال خدمتهم. ويكون معناه كثير من الرجال خدمتهم. ورُب وإن كانت للتقليل لكن لا تقوم مقام القليل، فلا يمكن أن يقال في رُب: إنها عبارة عن قليل كما قلنا في كم إنه عبارة عن كثير.

المسألة الثانية: قال (شفاعتهم) على عود الضمير إلى المعنى، ولو قال (شفاعته) لكان العود إلى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيته، وكم من رجل رأيتهم، فإن قلت: هل بينهما فرق معنوي؟ قلت: نعم، وهو أنه تعالى لما قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ [النجم: ٢٦] يعني شفاعة الكل، ولو قال: (شفاعته) لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لا تغني شفاعته، فربما كان يخطر ببال أحد أن شفاعتهم تغني إذا جُمعت، وعلى هذا ففي الكلام أمور كلها تشير إلى عظم الأمر، أحدها: كم فإنه للتكثير. ثانيها: لفظ المَلَك فإنه أشرف أجناس المخلوقات. ثالثها: في السموات فإنها إشارة إلى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة. رابعها: اجتماعهم على الأمر في قوله: ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ وكل ذلك لبيان فساد قولهم: إن الأصنام يشفعون، أي كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها؟! فإن الجماد أخس الأجناس والملائكة أشرفها وهم في أعلى السموات ولا تُقبل شفاعة الملائكة، فكيف تُقبل شفاعة الجمادات؟!

المسألة الثالثة: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ بمعنى كثير من الملائكة مع أن كل من في السموات منهم لا يملك الشفاعة؟ نقول: المقصود الرد عليهم في قولهم: هذه الأصنام تشفع. وذلك لا يحصل ببيان أن ملكًا من الملائكة لا تقبل شفاعته فاكتفى بذكر الكثير، ولم يقل: (ما منهم أحد يملك الشفاعة) لأنه أقرب إلى المنازعة فيه من قوله (كثير) مع أن المقصود

حاصل به، ثم ههنا بحث وهو أن في بعض الصور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير، وفي البعض يستعمل الكثير والمراد الكل، وكلاهما على طريقة واحدة، وهو استقلال الباقي وعدم الاعتداد، ففي قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأحقاف: ٢٥] كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٧٥] وقوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ: ٤١] يجعل المخرج غير ملتفت إليه، فيجعل كأنه ما أخرجه كالأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج، وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام، فإن كان الكلام مذكورًا لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل، مثاله يقال للمَلِك: كل الناس يدعون لك، إذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير، وإن كان الكلام مذكورًا لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه؛ لأن المقصود غيره فلا يستعمل الكل، مثاله إذا قال المَلِك لمن قال له اغتنم دعائي، كثير من الناس يدعون لي، إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له، فكذلك هاهنا.

المسألة الرابعة: قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ولم يقل: (لا يشفعون) مع أن دعواهم أن هؤلاء شفعاؤنا لا أن شفاعتهم تنفع أو تغني، وقال تعالى في مواضع أخرى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة: ٢٥٥] فنفى الشفاعة بدون الإذن وقال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[السجدة: ٤] نفى الشفيع، وهاهنا نفى الإغناء؟ نقول: هم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم، كما قال تعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر: ٣] ثم نقول: نفي دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة، أما نفي دعواهم لأنهم قالوا: الأصنام تشفع لنا شفاعة مقربة مغنية. فقال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ بدليل أن شفاعة الملائكة لا تغني، وأما الفائدة فلأنه لما استثنى بقوله: ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ أي فيشفع ولكن لا يكون فيه بيان أنها تُقبل وتغني أو لا تُقبل، فإذا قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ فيكون معناه تغني فيحصل البشارة؛ لأنه تعالى قال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر: ٧] وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾[الشورى: ٥] والاستغفار شفاعة. وأما قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة: ٢٥٥] فليس المراد نفي الشفاعة وقبولها كما في هذه الآية، حيث رد عليهم قولهم، وإنما المراد عظمة الله تعالى، وأنه لا ينطق في حضرته أحد ولا يتكلم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾[النبأ: ٣٨].

المسألة الخامسة: اللام في قوله: ﴿لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ تحتمل وجهين: أحدهما: أن تتعلق بالإذن وهو على طريقين: أحدهما: أن يقال: إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة ويرضى. الثاني: أن يكون الإذن في المشفوع له لأن الإذن حاصل للكل في الشفاعة للمؤمنين لأنهم جميعهم يستغفرون لهم، فلا معنى للتخصيص، ويمكن أن ينازع فيه. وثانيهما: أن تتعلق بالإغناء، يعني إلا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة، فتغني شفاعتهم لمن يشاء. ويمكن أن يقال بأن هذا بعيد؛ لأن ذلك يقتضي أن تشفع الملائكة،

والإغناء لا يحصل إلا لمن يشاء، فيجاب عنه بأن التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فإن المَلَك إذا شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء.

المسألة السادسة: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾؟ نقول: فيه فائدة الإرشاد، وذلك لأنه لما قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ كان المكلف مترددًا لا يعلم مشيئته فقال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ليعلم أنه العابد الشاكر لا المعاند الكافر، فإنه تعالى قال: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] فكأنه قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ ثم قال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ بيانًا لمن يشاء، وجواب آخر على قولنا: لا تغني شفاعتهم شيئًا ممن يشاء، هو أن فاعل يرضى المدلول عليه (لمن يشاء) كأنه قال ويرضى هو، أي تغنيه الشفاعة شيئًا صالحًا فيحصل به رضاه، كما قال: ويرضى هو أي تغنيه الشفاعة، وحينئذٍ يكون (يرضى) للبيان لأنه لما قال: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ إشارة إلى نفي كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء أن شفاعتهم تغني شيئًا ولو كان قليلاً، ويرضى المشفوع له ليعلم أنها تغني أكثر من اللازم بالاستثناء، ويمكن أن يقال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ لتبيين أن قوله: ﴿يَشَآءُ﴾ ليس المراد المشيئة التي هي الرضا، فإن الله تعالى إذا شاء الضلالة بعبد لم يرض به، وإذا شاء الهداية رضي فقال: ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ ليعلم أن المشيئة ليست هي المشيئة العامة، إنما هي الخاصة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾

وقد بينا ذلك في سورة الطور واستدللنا بهذه الآية، ونذكر ما يقرب منه هاهنا فنقول: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ هم الذين لا يؤمنون بالرسل ولا يتبعون الشرع، وإنما يتبعون ما يدّعون أنه عقل فيقولون: أسماء الله تعالى ليست توقيفية، ويقولون: الولد هو الموجود من الغير. ويستدلون عليه بقول أهل اللغة: كذا يتولد منه كذا، يقال: الزجاج يتولد من الآجُر بمعنى يوجد منه، وكذا القول في بنت الكرم وبنت الجبل، ثم قالوا: الملائكة وُجدوا من الله تعالى فهم أولاده بمعنى الإيجاد، ثم إنهم رأوا في الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال: سجدت الملائكة فقالوا: بنات الله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي كما سمي الإناث بنات. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: كيف يصح أن يقال: إنهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وكان من عادتهم أن يربطوا مركوبًا على قبر من يموت ويعتقدون أنه يُحشر عليه؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أنهم لما كانوا لا يجزمون به كانوا يقولون: لا حشر، فإن كان فلنا شفعاء. يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ثانيهما: أنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه (الحق) وهو ما ورد به الرسل.

المسألة الثانية: قال بعض الناس: أُنثى فُعلى من أفعل، يقال في فعلها: آنث ويقال في فاعلها: أنيث يقال: حديد ذكَر وحديد أنيث، والحق أن الأنثى يستعمل في الأكثر على خلاف ذلك بدليل جمعها على إناث.

المسألة الثالثة: كيف قال تسمية الأنثى ولم يقل تسمية الإناث؟ نقول: عنه جوابان: أحدهما: ظاهر والآخر دقيق، أما الظاهر فهو أن المراد بيان الجنس، وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لما جاء على وفقه آخر الآيات. والدقيق هو أنه لو قال: (يسمونهم تسمية الإناث) كان يحتمل وجهين: أحدهما: البنات. وثانيهما: الأعلام المعتادة للإناث كعائشة وحفصة، فإن تسمية الإناث كذلك تكون، فإذا قال (تسمية الأنثى) تعيَّن أن تكون للجنس وهي البنت والبنات، ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنهم لما قيل لهم: إن الصنم جماد لا يشفع، وبيّن لهم أن أعظم أجناس الخلق لا شفاعة لهم إلا بالإذن، قالوا: نحن لا نعبد الأصنام لأنها جمادات وإنما نعبد الملائكة بعبادتها فإنها على صورها وننصبها بين أيدينا ليذكرنا الشاهد والغائب، فنُعظم المَلَك الذي ثبت أنه مقرب عظيم الشأن رفيع المكان. فقال تعالى ردًّا عليهم: كيف تعظمونهم وأنتم تسمونهم تسمية الأنثى؟! ثم ذكر فيه مستندهم في ذلك وهو لفظ الملائكة، ولم يقل إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائك تسمية الأنثى بل قال: ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ فإنهم اغتروا بالتاء، واغترارهم باطل لأن التاء تجيء لمعانٍ غير التأنيث الحقيقي، والبنت لا تطلق إلا على المؤنث الحقيقي بالإطلاق، والتاء فيها لتأكيد معنى الجمع كما في صياقلة وهي تشبه تلك التاء، وذلك لأن الملائكة في المشهور جمع ملك، والملك اختصار من الملأك بحذف الهمزة، والملأك قلب المألك من الألوكة وهي الرسالة، فالملائكة على هذا القول مَفاعِلة، والأصل مفاعل ورُد إلى ملائكة في الجمع فهي تشبه فعائل وفعائلة، والظاهر أن الملائكة فعائل جمع مليكي منسوب إلى المليك بدليل قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] في وعد المؤمن، وقال في وصف الملائكة: ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقال أيضًا في الوعد: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: ٤٠] وقال في وصف الملائكة: ﴿وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] فهم إذن عباد مكرمون اختصهم الله بمزيد قربه ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] كأمر الملوك والمستخدمين عند السلاطين الواقفين بأبوابهم منتظرين لورود أمر عليهم، فهم منتسبون إلى المليك المقتدر في الحال فهم مليكيون وملائكة، فالتاء للنسبة في الجمع كما في الصيارفة والبياطرة.

فإن قيل: هذا باطل من وجوه: الأول: أن أحدًا لم يستعمل لواحد منهم مليكي كما استعمل صيرفي. والثاني: أن الإنسان عندما يصير عند الله تعالى يجب أن يكون من الملائكة، وليس كذلك لأن المفهوم من الملائكة جنس غير الآدمي. الثالث: هو أن فعائلة في جمع فَعِيلي لم يُسمع وإنما يقال: فعيلة كما يقال جاء بالتميمة والحقيبة. الرابع: لو كان كذلك لما جمع ملك؟

نقول الجواب عن الأول: أما عدم استعمال واحده فمسلَّم وهو لسبب، وهو أن الملك كلما كان

أعظم كان حكمه وخدمه وحشمه أكثر، فإذا وُصف بالعظمة وُصف بالجمع فيقال: صاحب العسكر الكثير ولا يوصف بواحد وصف تعظيم، وأما ذلك الواحد فإن نسب إلى المليك عين للخبر بأن يقال: هذا مليكي وذلك عندما تعرف عينه فتجعله مبتدأ وتخبر بالمليكي عنه، والملائكة لم يُعرفوا بأعيانهم إلا قليلاً منهم كجبريل وميكائيل، وحينئذٍ لا فائدة في قولنا جبريل مليكي؛ لأن من عرف الخبر ولا يصاغ الحمل إلا لبيان ثبوت الخبر للمبتدأ فلا يقال للإنسان حيوان أو جسم لأنه إيضاح واضح، اللّهم إلا أن يستعمل ذلك في ضرب مثال أو في صورة نادرة لغرض، وأما أن ينسب إلى المليك وهو مبتدأ فلا؛ لأن العظمة في أن يقول واحد من الملائكة فنبه على كثرة المقربين إليه كما تقول: واحد من أصحاب الملك. ولا تقول: صاحب الملك، فإذا أردت التعظيم البالغ فعند الواحد استعمل اسم الملك غير منسوب بل هو موضوع لشدته وقوته كما قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]و﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ٢٠]فقال: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] و(م ل ك) تدل على الشدة في تقاليبها على ما عرف، وعند الجمع استعمل الملائكة للتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

الجواب عن الثاني: نقول: قد يكون الاسم في الأول لوصف يختص ببعض من يتصف به، وغيره لو صار متصفًا بذلك الوصف لا يسمى بذلك الاسم كالدابة فاعلة من دب، ولا يقال للمرأة ذات الدب دابة اسمًا وربما يقال لها صفة عند حالة ما تدب بدب مخصوص غير الدب العام الذي في الكل، كما لو دبت بليل لأخذ شيء أو غيره، أو يقال: إنما سميت الملائكة ملائكة لطول انتسابهم من قبل خلق الآدمي بسنين لا يعلم عددها إلا الله، فمن لم يصل إلى الله ويقوم ببابه لا يحصل له العهد والانتساب فلا يسمى بذلك الاسم.

الجواب عن الثالث: نقول: الجموع القياسية لا مانع لها كفِعال في جمع فَعَل كجبال وثمار وأفعال كأثقال وأشجار وفعلان وغيرها، وأما السماع وإن لم يرد إلا قليلاً فاكتفى بما فيه من التعظيم من نسبة الجمع إلا باب الله، ويكون من باب المرأة والنساء.

الجواب عن الرابع: فالمنع ولعل هذا منه أو نقول: حمل فَعيلي على فعيل في الجمع كما حمل فيعل في الجمع على فعيل فقيل في جمع جيد جياد ولا يقال في فعيل أفاعل، ويؤيد ما ذكرنا أن إبليس عندما كان واقفًا بالباب كان داخلاً في جملة الملائكة، فنقول: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الكهف: ٥٠]عندما صرف وأبعد خرج عنهم وصار من الجن.

وأما ما قاله بعض أهل اللغة من أن الملائكة جمع ملأك، وأصل ملأك مألك من الألوكة وهي الرسالة. ففيه تعسفات أكثر مما ذكرنا بكثير، منها أن الملك لا يكون فَعَل بل هو مَفعَل وهو خلاف الظاهر، ولِمَ لم يستعمل مآلك على أصله كمآرب ومآثم ومآكل وغيرها مما لا يعد إلا بتعسف؟ ومنها أن ملكًا لم جعل ملأك ولم يفعل ذلك بأخواته التي ذكرناها؟ ومنها أن التاء لم

أُلحقت بجمعه ولم لم يقل ملائك كما في جمع كل مفعل؟ والذي يرد قولهم قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] فهي غير الرسل، فلا يصح أن يقال: جعلت الملائكة رسلاً، كما لا يصح جعلت الرسل مرسلين وجعل المقترب قريبًا؛ لأن الجعل لا بد فيه من تغيير، ومما يدل على خلاف ما ذكروا أن الكل منسوبون إليه موقوفون بين يديه منتظرون أمره لورود الأوامر عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ﴾ وفيما يعود إليه الضمير في (به) وجوه: أحدها: ما نقله الزمخشري وهو أنه عائد إلى ما كانوا يقولون من غير علم. ثانيها: أنه عائد إلى ما تقدم في الآية المتقدمة من علم، أي ما لهم بالله من علم فيشركون، وقرئ: (مَا لَهُم بِهَا). وفيه وجوه أيضًا: أحدها: ما لهم بالآخرة. وثانيها: ما لهم بالتسمية. ثالثها: ما لهم بالملائكة، فإن قلنا: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠] فهو جواب لما قلنا إنهم وإن كانوا يقولون الأصنام شفعاؤنا عند الله. وكانوا يربطون الإبل على قبور الموتى ليركبوها، لكن ما كانوا يقولون به عن علم، وإن قلنا بالتسمية قد تكون وهو أن العلم بالتسمية حاصل لهم، فإنهم يعلمون أنهم ليسوا في شك، إذ التسمية قد تكون وضعًا أوليًّا وهو لا يكون بالظن بل بالعلم بأنه وضع، وقد يكون استعمالاً معنويًّا ويتطرق إليه الكذب والصدق والعلم.

مثال الأول: من وضع أولاً اسم السماء لموضوعها وقال: هذا سماء.

مثال الثاني: إذا قلنا بعد ذلك للماء والحجر: هذا سماء. فإنه كذب، ومن يعتقده فهو جاهل، وكذلك قولهم في الملائكة: (إنها بنات الله)، لم تكن تسمية وضعية، وإنما أرادوا به أنهم موصوفون بأمر يجب استعمال لفظ البنات فيهم، وذلك كذب ومعتقده جاهل، فهذا هو المراد بما ذكرنا أن الظن يتبع في الأمور المصلحية، والأفعال العرفية أو الشرعية عند عدم الوصول إلى اليقين، وأما في الاعتقادات فلا يغني الظن شيئًا من الحق، فإن قيل: أليس الظن قد يصيب، فكيف يحكم عليه بأنه لا يغني أصلاً؟ نقول: المكلف يحتاج إلى يقين يميز الحق من الباطل؛ ليعتقد الحق ويميز الخير من الشر ليفعل الخير، لكن في الحق ينبغي أن يكون جازمًا لاعتقاد مطابقه، والظان لا يكون جازمًا، وفي الخير ربما يعتبر الظن في مواضع، ويحتمل أن يقال: المراد من الحق هو الله تعالى، ومعناه أن الظن لا يفيد شيئًا من الله تعالى، أي الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦] وفيه لطيفة، وهي أن الله تعالى في ثلاثة مواضع منع من الظن، وفي جميع تلك المواضع كان المنع عقيب التسمية، والدعاء باسم، موضعان منها في هذه السورة أحدهما: قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]. والثاني: قوله تعالى:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾، والثالث: في الحجرات، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢] عقيب الدعاء بالقلب، وكل ذلك دليل على أن حفظ اللسان أَوْلى من حفظ غيره من الأركان، وأن الكذب أقبح من السيئات الظاهرة من الأيدي والأرجل، وهذه المواضع الثلاثة أحدها مدح من لا يستحق المدح كاللات والعزى من العز. وثانيها ذم من لا يستحق الذم، وهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن يسمونهم تسمية الأنثى. وثالثها ذم من لم يعلم حاله، وأما مدح من حاله لا يعلم، فلم يقل فيه: لا يتبعون إلا الظن، بل الظن فيه معتبر، والأخذ بظاهر حال العاقل واجب.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي اترك مجادلتهم فقد بلَّغت وأتيت بما كان عليك، وأكثر المفسرين يقولون بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾ منسوخ بآية القتل. وهو باطل، فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال، فكيف ينسخ به؟ وذلك لأن النبي ﷺ كان مأمورًا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة، فلما عارضوه بأباطيلهم قيل له: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥] ثم لما لم ينفع، قال له ربه: فأعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان، فإنهم لا يتبعون إلا الظن، ولا يتبعون الحق، وقابِلهم بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقابلة، فكيف يكون منسوخًا، والإعراض من باب أشكاه والهمزة فيه للسلب، كأنه قال: أزل العرض، ولا تعرض عليهم بعد هذا أمرًا.

وقوله تعالى: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ لبيان تقديم فائدة العرض والمناظرة؛ لأن من لا يصغي إلى القول كيف يفهم معناه؟

وفي ﴿ذِكۡرِنَا﴾ وجوه: الأول: القرآن. الثاني: الدليل والبرهان. الثالث: ذكر الله تعالى، فإن من لا ينظر في الشيء كيف يعرف صفاته؟ وهم كانوا يقولون: نحن لا نتفكر في آلاء الله لعدم تعلقنا بالله، وإنما أمرنا مع من خلقنا، وهم الملائكة أو الدهر، على اختلاف أقاويلهم وتباين أباطيلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر، كما قالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] وقال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [التوبة: ٣٨] يعني لم يُثبتوا وراءها شيئًا آخر يعملون له، فقوله: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر؛ لأنه إذا ترك النظر في آلاء الله تعالى لا يعرفه، فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه. وإذا لم يقل بالحشر والحساب لا يخاف فلا يرجع عما هو عليه، فلا يبقى إذن فائدة في الدعاء.

واعلم أن النبي ﷺ كان طبيب القلوب، فأتى على ترتيب الأطباء، وترتيبهم أن الحال إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوي، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحديد والكي، وقيل:

آخر الدواء الكي، فالنبي ﷺ أولاً أمر القلوب بذكر الله فحسب، فإن بذكر الله تطمئن القلوب، كما أن بالغذاء تطمئن النفوس، فالذكر غذاء القلب، ولهذا قال أولاً: (قولوا لا إله إلا الله) أمر بالذكر لمن انتفع مثل أبي بكر وغيره ممن انتفع، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤] ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾ [يونس: ١٠١] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ [الغاشيه: ١٧] إلى غير ذلك، ثم أتى بالوعيد والتهديد، فلما لم ينفعهم قال: أعرِض عن المعالجة، واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيه وجوه الأول: أظهرها أنه عائد إلى الظن، أي غاية ما يبلغون به أنهم يأخذون بالظن وثانيها: إيثار الحياة الدنيا مبلغهم من العلم، أي ذلك الإيثار غاية ما بلغوه من العلم ثالثها: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٢٩] وذلك الإعراض غاية ما بلغوه من العلم، والعلم على هذا يكون المراد منه العلم بالمعلوم، وتكون الألف واللام للتعريف، والعلم بالمعلوم هو ما في القرآن، وتقرير هذا أن القرآن لما ورد بعضهم تلقاه بالقبول وانشرح صدره فبلغ الغاية القصوى، وبعضهم قبله من حيث إنه معجزة، واتبع الرسول فبلغ الدرجة الوسطى، وبعضهم توقف فيه كأبي طالب، وذلك أدنى المراتب، وبعضهم رده وعابه، فالأولون لم يجز الإعراض عنهم، والآخرون وجب الإعراض عنهم، وكان موضع بلوغه من العلم أنه قطع الكلام معه الإعراض عنه، وعليه سؤال وهو: أن الله تعالى بين أن غايتهم ذلك: ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها والمجنون الذي لا علم له، والصبي لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله؟

نقول ذكر قبل ذلك أنهم تولوا عن ذكر الله، فكأن عدم علمهم لعدم قبولهم العلم، وإنما قدر الله توليهم ليضاف الجهل إلى ذلك فيحقق العقاب، قال الزمخشري: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ﴾ كلام معترض بين كلامين، والمتصل قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وعلى ما ذكرنا المقصود لا يتم إلا به، يكون كأنه تعالى قال: أعرض عنهم فإن ذلك غايتهم، ولا يوجد وراء ما ظهر منهم شيء، وكأن قوله: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ إشارة إلى قطع عذرهم بسبب الجهل، فإن الجهل كان بالتولي وإيثار العاجل.

ثم ابتدأ وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وفي المناسبة وجوه الأول: أنه تعالى لما قال: للنبي ﷺ، أعرض وكان النبي ﷺ شديد الميل إلى إيمان قومه وكان ربما هجس في خاطره، أن في الذكرى بعد منفعة، وربما يؤمن من الكافرين قوم آخرون من غير قتال فقال له: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ علم أنه لن يؤمن بمجرد الدعاء كل أحد من المكلفين، وإنما ينفع فيهم أن يقع السيف والقتال فأعرض عن الجدال وأقبل على القتال، وعلى هذا فقوله: ﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي علم في الأزل، من ضل في تقديره ومن اهتدى، فلا يشتبه عليه الأمران، ولا يأس في الإعراض ويعد في العرف مصلحة ثانيها: هو على معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٧] ووجهه أنهم كانوا يقولون: نحن على الهدى وأنتم مبطلون وأقام النبي ﷺ الحجة

عليهم فلم ينفعهم، فقال تعالى: أعرض عنهم وأجرك وقع على الله، فإنه يعلم أنكم مهتدون، ويعلم أنهم ضالون، والمتناظران إذا تناظرا عند ملك قادر مقصودهم ظهور الأمر عند الملك فإن اعترف الخصم بالحق فذاك، وإلا فغرض المصيب يظهر عند الملك فقال تعالى: جادلت وأحسنت، والله أعلم بالمحق من المبطل ثالثها: أنه تعالى لما أمر نبيه بالإعراض وكان قد صدر منهم إيذاء عظيم وكان النبي ﷺ يتحمله رجاء أن يؤمنوا، فنسخ جميع ذلك فلما لم يؤمنوا فكأنه قال: سعيي وتحملي لإيذائهم وقع هباء، فقال الله تعالى: إن الله يعلم حال المضلين والمهتدين: لله ما في السموات والأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا من المهتدين، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿هُوَ﴾ يسمى عمادًا وفصلاً، ولو قال: إن ربك أعلم لتمَّ الكلام، غير أن عند خلو الكلام عن هذا العماد ربما يتوقف السامع على سماع ما بعده، ليعلم أن: ﴿أَعْلَمُ﴾ خبر: ﴿رَبَّكَ﴾ أو هو مع شيء آخر خبر، مثاله لو قال: إن زيدًا أعلم منه عمرو يكون خبر زيد الجملة التي بعده، فإن قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ انتفى ذلك التوهم.

المسألة الثانية: ﴿أَعْلَمُ﴾ يقتضي مفضلاً عليه يقال: زيد أعلم من عمرو، والله أعلم ممن؟ نقول: أفعل يجيء كثيرًا بمعنى عالم لا عالم مثله، وحينئذ إن كان هناك عالم فذلك مفضل عليه وإن لم يكن ففي الحقيقة هو العالم لا غير، وفي كثير من المواضع أفعل في صفات الله بذلك المعنى يقال: الله أكبر وفي الحقيقة لا كبير مثله ولا أكبر إلا هو، والذي يناسب هذا أنه ورد في الدعوات يا أكرم الأكرمين كأنه قال: لا أكرم مثلك، وفي الحقيقة لا أكرم إلا هو وهذا معنى قول من يقول: ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عالم بالمهتدي والضال، ويمكن أن يقال: أعلم منْ كل عالم بفرض عالم غيره.

المسألة الثالثة: علمته وعلمت به مستعملان، قال الله تعالى في الأنعام: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٧] ثم ينبغي أن يكون المراد من المعلوم العلم إذا كان تعلقه بالمعلوم أقوى، إما لقوة العلم وإما لظهور المعلوم وإما لتأكيد وجوب العلم به، وإما لكون الفعل له قوة، أما قوة العلم فكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] لما كان علم الله تعالى تامًا شاملاً علقه بالمفعول الذي هو حال من أحوال عبده الذي هو بمرأى منه من غير حرف، ولما كان علم العبد ضعيفًا حادثًا علقه بالمفعول الذي هو صفة من صفات الله تعالى الذي لا يحيط به علم البشر بالحرف أو لما كان كون الله رائيًا لم يكن محسوسًا به مشاهدًا علق الفعل به بنفسه وبالآخر بالحرف، وأما ظهور المعلوم فكما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٥٢] وهو معلوم ظاهر وأما تأكيد وجوب العلم به كما في قوله تعالى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] ويمكن أن يقال: هو من قبيل الظاهر، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢] وأما قوة الفعل فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ لما كان

المستعمل صفة الفعل علقه بالمفعول بغير حرف وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن﴾ كما كان المستعمل اسمًا دالاً على فعل ضعف عمله لتعلقه بالمفعول.

المسألة الرابعة: قدم العلم بمن ضل على العلم بالمهتدي في كثير من المواضع منها في سورة الأنعام ومنها في سورة: ﴿نٓ﴾ ومنها في هذه السورة، لأن في المواضع كلها المذكور نبيه ﷺ والمعاندون، فذكرهم أولاً تهديدًا لهم وتسلية لقلب نبيه عليه الصلاة والسلام.

المسألة الخامسة: قال في موضع واحد من المواضع: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٧] وفي غيره قال: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ فهل عندك فيه شيء؟ قلت: نعم، ونبين ذلك ببحث عقلي وآخر نقلي: أما العقلي: فهو أن العلم القديم يتعلق بالمعلوم على ما هو عليه، إن وجد أمس علم أنه وجد أمس في نهار أمس، وليس مثل علمنا حيث يجوز أن يتحقق الشيء أمس، ونحن لا نعلمه إلا في يومنا هذا بل: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] ولا يتأخر الواقع عن علمه طرفة عين وأما النقلي: فهو أن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل إذا كان بمعنى المستقبل ولا يعمل عمله إذا كان ماضيًا فلا تقول: أنا ضارب زيدًا أمس، والواجب إن كنت تنصب أن تقول: ضربت زيدًا وإن كنت تستعمل اسم الفاعل فالواجب الإضافة تقول: ضارب زيد أمس أنا ويجوز أن يقال: أنا غدًا ضارب زيدًا والسبب فيه أن الفعل إذا وجد فلا تجدد له في (غَيْرِ) الاستقبال، ولا تحقق له في الحال فهو عدم وضعف عن أن يعمل، وأما الحال وما يتوقع فله وجود فيمكن إعماله. إذا ثبت هذا فنقول: لما قال ﴿ضَلَّ﴾ كان الأمر ماضيًا وعلمه تعلق به وقت وجوده فعلم، وقوله ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عالم فيصير كأنه قال: عالم بمن ضل فلو ترك الباء لكان إعمالاً للفاعل بمعنى الماضي، ولما قال: ﴿يُضِلُّ﴾ كان يعلم الضلال عند الوقوع وإن كان قد علم في الأزل أنه سيضل لكن للعلم بعدَ ذلك تعلق آخر سيوجد، وهو تعلقه بكون الضلال قد وقع وحصل ولم يكن ذلك في الأزل، فإنه لا يقال: إنه تعالى علم أن فلانًا ضل في الأزل، وإنما الصحيح أن يقال: علم في الأزل، فإنه سيضل، فيكون كأنه يعلم أنه يضل فيكون اسم الفاعل بمعنى المستقبل وهو يعمل عمل الفاعل، فلا يقال: زيد أعلم مسألتنا من عمرو، وإنما الواجب أن يقال: زيد أعلم بمسألتنا من عمرو، ولهذا قالت النحاة في سورة الأنعام ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ [الأنعام: ١١٧] يعلم من يضل وقالوا: ﴿أَعْلَمُ﴾ للتفضيل لا يبنى إلا من فعل لازم غير متعد، فإن كان متعديًا يرد إلى لازم.

وقولنا: علم كأنه من باب عُلم بالضم وكذا في التعجب إذا قلنا: ما أعلمه بكذا كأنه من فعل لازم. وأما أنا فقد أجبت عن هذا بأن قوله: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ معناه عالم، وقد قدمنا ما يجب أن يعتقد في أوصاف اللهِ في أكثر الأمر أن معناه أنه عالم ولا عالم مثله فيكون أعلم على حقيقته وهو أحسن من أن يقال: هو بمعنى عالم لا غير، فإن قيل: فلم قال هاهنا: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وقال هناك: ﴿يَضِلُّ﴾؟ قلنا: لأن هاهنا حصل الضلال في الماضي وتأكد حيث حصل يأس

الرسول ﷺ وأمر بالإعراض، وأما هناك فقال تعالى من قبل: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ بمعنى إن ضللت يعلمك الله فكان الضلال غير حاصل فيه فلم يستعمل صيغة الماضي.

المسألة السادسة: قال في الضلال عن سبيله ولم يقل في الاهتداء إلى سبيله لأن الضلال عن السبيل هو الضلال وهو كاف في الضلال لأن الضلال لا يكون إلا في السبيل، وأما بعد الوصول فلا ضلال أو لأن من ضل عن سبيله لا يصل إلى المقصود سواء سلك سبيلاً أو (لَمْ) يسلك وأما من اهتدى إلى سبيل فلا وصول إن لم يسلكه، ويصحح هذا أن من ضل في غير سبيله فهو ضال ومَن اهتدى إليها لا يكون مهتديًا إلا إذا اهتدى إلى كل مسألة يضر الجهل بها بالإيمان فكان الاهتداء اليقيني هو الاهتداء المطلق فقال ﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وقال ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾

إشارة إلى كمال غناه وقدرته ليذكر بعد ذلك ويقول: إن ربك هو أعلم من الغني القادر لأن من علم ولم يقدر لا يتحقق منه الجزاء فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال الزمخشري: ما يدل على أنه يعتقد أن اللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ كاللام في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] وهو جري في ذلك على مذهبه فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معناه خلق ما فيهما لغرض الجزاء وهو لا يتحاشى مما ذكره لما عرف من مذهب الاعتزال، وقال الواحدي: اللام للعاقبة كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [القصص: ٨] أي أخذوه وعاقبته أنه يكون لهم عدوًا، والتحقيق فيه وهو أن حتى ولام الغرض متقاربان في المعنى، لأن الغرض نهاية الفعل، وحتى للغاية المطلقة فبينهما مقاربة فيستعمل أحدهما مكان الآخر، يقال: سرت حتى أدخلها ولكي أدخلها، فلام العاقبة هي التي تستعمل في موضع حتى للغاية، ويمكن أن يقال: هنا وجه أقرب من الوجهين وإن كان أخفى منهما وهو أن يقال: إن قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بقوله: ضل واهتدى لا بالعلم ولا بخلق ما في السموات، تقديره كأنه قال: هو أعلم بمن ضل واهتدى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أن من ضل واهتدى يجزي الجزاء، والله أعلم به، فيصير قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كلامًا معترضًا، ويحتمل أن يقال: هو متعلق بقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ [النجم: ٢٩] أي أعرض عنهم ليقع الجزاء، كما يقول المريد فعلاً لمن يمنعه منه زرني لأفعله، وذلك لأن ما دام النبي ﷺ لم ييأس ما كان العذاب ينزل والإعراض وقت اليأس، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ حينئذ يكون مذكورًا ليعلم أن العذاب الذي عند إعراضه يتحقق ليس مثل الذي قال تعالى فيه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً

لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] بل هو مختص بالذين ظلموا وغيرهم لهم الحسنى، وقوله تعالى في حق المسيء ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ وفي حق المحسن ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ فيه لطيفة لأن جزاء المسيء عذاب فنبه على ما يدفع الظلم فقال: لا يعذب إلا عن ذنب، وأما في الحسنى فلم يقل: بما عملوا لأن الثواب إن كان لا على حسنة يكون في غاية الفضل فلا يخل بالمعنى هذا إذا قلنا الحسنى هي المثوبة بالحسنى، وأما إذا قلنا الأعمال الحسنى ففيه لطيفة غير ذلك، وهي أن أعمالهم لم يذكر فيها التساوي، وقال في أعمال المحسنين ﴿ٱلْحُسْنَى﴾ إشارة إلى الكرم والصفح حيث ذكر أحسن الاسمين والحسنى صفة أقيمت مقام الموصوف كأنه تعالى قال بالأعمال الحسنى كقوله تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وحينئذ هو كقوله تعالى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧] أي يأخذ أحسن أعمالهم ويجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الأحسن أو هي صفة المثوبة، كأنه قال: ويجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى أو بالعاقبة الحسنى أي جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فحسب، وأما الزيادة التي هي الفضل بعد الفضل فغير داخلة فيه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ (الذين) يحتمل أن يكون بدلاً عن الذين أحسنوا وهو الظاهر، وكأنه تعالى قال ليجزي الذين أساءوا ويجزي الذين أحسنوا، ويتبين به أن المحسن ليس ينفع الله بإحسانه شيئًا وهو الذي لا يسيء ولا يرتكب القبيح الذي هو سيئة في نفسه عند ربه فالذين أحسنوا هم الذين اجتنبوا ولهم الحسنى، وبهذا يتبين المسيء والمحسن لأن من لا يجتنب كبائر الإثم يكون مسيئًا والذي يجتنبها يكون محسنًا، وعلى هذا ففيه لطيفة وهو أن المحسن لما كان هو من يجتنب الآثام فالذي يأتي بالنوافل يكون فوق المحسن، لكن الله تعالى وعد المحسن بالزيادة فالذي فوقه يكون له زيادات فوقها وهم الذين لهم جزاء الضعف، ويحتمل أن يكون ابتداء كلام تقديره الذين يجتنبون كبائر الإثم يغفر الله لهم والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وعلى هذا تكون هذه الآية مع ما قبلها مبينة لحال المسيء والمحسن وحال من لم يحسن ولم يسيء وهم الذين لم يرتكبوا سيئة وإن لم تصدر منهم الحسنات، وهم كالصبيان الذين لم يوجد فيهم شرائط التكليف ولهم الغفران وهو دون الحسنى، ويظهر هذا بقوله تعالى بعده: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ أي يعلم الحالة التي لا إحسان فيها ولا إساءة، كما علم من أساء وضل ومن أحسن واهتدى، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: إذا كان بدلاً عن الذين أحسنوا فلم خالف ما بعده بالمضي والاستقبال حيث

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ [النجم: ٣١] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ ولم يقل اجتنبوا؟ نقول: هو كما يقول القائل الذين سألوني أعطيتهم، الذين يترددون إليَّ سائلين أي الذين عادتهم التردد والسؤال سألوني وأعطيتهم فكذلك ههنا قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ أي الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة وقدموا عليها أخرى، فإن قيل: في كثير من المواضع قال في الكبائر ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] وقال في عباد الطاغوت: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١٧] فما الفرق؟ نقول: عبادة الطاغوت راجعة إلى الاعتقاد والاعتقاد إذا وجد دام ظاهرًا فمن اجتنبها اعتقد بطلانها فيستمر، وأما مثل الشرب والزنا أمر يختلف أحوال الناس فيه فيتركه زمانًا ويعود إليه ولهذا يستبرأ الفاسق إذا تاب ولا يستبرأ الكافر إذا أسلم، فقال في الآثام: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ دائمًا، ويثابرون على الترك أبدًا، وفي عبادة الأصنام: ﴿ٱجۡتَنَبُواْ﴾ بصيغة الماضي ليكون أدل على الحصول، ولأن كبائر الإثم لها عدد أنواع فينبغي أن يجتنب عن نوع ويجتنب عن آخر ويجتنب عن ثالث ففيه تكرر وتجدد فاستعمل فيه صيغة الاستقبال، وعبادة الصنم أمر واحد متحد، فترك فيه ذلك الاستعمال وأتى بصيغة الماضي الدالة على وقوع الاجتناب لها دفعة.

المسألة الثانية: الكبائر جمع كبيرة وهي صفة فما الموصوف؟ نقول: هي صفة الفعلة كأنه يقول: الفعلات الكبائر من الإثم، فإن قيل: فما بال اختصاص الكبيرة بالذنوب في الاستعمال، ولو قال قائل: الفعلة الكبيرة الحسنة لا يمنعه مانع؟ نقول: الحسنة لا تكون كبيرة لأنها إذا قوبلت بما يجب أن يوجد من العبد في مقابلة نعم الله تعالى تكون في غاية الصغر، ولولا أن الله يقبلها لكانت هباء لكن السيئة من العبد الذي أنعم الله عليه بأنواع النعم كبيرة، ولولا فضل الله لكان الاشتغال بالأكل والشرب والإعراض عن عبادته سيئة، ولكن الله غفر بعض السيئات وخفف بعضها.

المسألة الثالثة: إذا ذكر الكبائر فما الفواحش بعدها؟ نقول: الكبائر إشارة إلى ما فيها من مقدار السيئة، والفواحش إشارة إلى ما فيها من وصف القبح كأنه قال: عظيمة المقادير قبيحة الصور، والفاحش في اللغة مختص بالقبيح الخارج قبحه عن حد الخفاء وتركيب الحروف في التقاليب يدل عليه فإنك إذا قلبتها وقلت: حشف كان فيه معنى الرداءة الخارجة عن الحد، ويقال: فشحت الناقة إذا وقفت على هيئة مخصوصة للبول فالفحش يلازمه القبح، ولهذا لم يقل: الفواحش من الإثم وقال في الكبائر: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ لأن الكبائر إن لم يميزها بالإضافة إلى الإثم لما حصل المقصود بخلاف الفواحش.

المسألة الرابعة: كثرت الأقاويل في الكبائر والفواحش، فقيل: الكبائر ما أوعد الله عليه بالنار صريحًا وظاهرًا، والفواحش ما أوجب عليه حدًا في الدنيا، وقيل: الكبائر ما يكفر مستحله، وقيل: الكبائر مالا يغفر الله لفاعله إلا بعد التوبة وهو على مذهب المعتزلة، وكل هذه

التعريفات تعريف الشيء بما هو مثله في الخفاء أو فوقه، وقد ذكرنا أن الكبائر هي التي مقدارها عظيم، والفواحش هي التي قبحها واضح فالكبيرة صفة عائدة إلى المقدار، والفاحشة صفة عائدة إلى الكيفية، كما يقال مثلاً: في الأبرص علته بياض لطخة كبيرة ظاهرة اللون فالكبيرة لبيان الكمية والظهور لبيان الكيفية وعلى هذا فنقول على ما قلنا: إن الأصل في كل معصية أن تكون كبيرة، لأن نعم الله كثيرة ومخالفة المنعم سيئة عظيمة، غير أن الله تعالى حط عن عباده الخطأ والنسيان لأنهما لا يدلان على ترك التعظيم، إما لعمومه في العباد أو لكثرة وجوده منهم كالكذبة والغيبة مرة أو مرتين والنظرة والقبائح التي فيها شبهة، فإن المجتنب عنها قليل في جميع الأعصار، ولهذا قال أصحابنا: إن استماع الغناء الذي مع الأوتار يفسق به، وإن استمعه من أهل بلدة لا يعتقدون أمر ذلك لا يفسق فعادت الصغيرة إلى ما ذكرنا من أن العقلاء إن لم يعدوه تاركًا للتعظيم لا يكون مرتكبًا للكبيرة، وعلى هذا تختلف الأمور باختلاف الأوقات والأشخاص فالعالم المتقي إذا كان يتبع النساء أو يكثر من اللعب يكون مرتكبًا للكبيرة، والدلال والباعة والمتفرغ الذي لا شغل له لا يكون كذلك، وكذلك اللعب وقت الصلاة، واللعب في غير ذلك الوقت، وعلى هذا كل ذنب كبيرة إلا ما علم المكلف أو ظن خروجه بفضل الله وعفوه عن الكبائر.

المسألة الخامسة: في اللمم وفيه أقوال: أحدها: ما يقصده المؤمن ولا يحققه وهو على هذا القول من لم يَلُمُّ إذا جمع فكأنه جمع عزمه وأجمع عليه وثانيها: ما يأتي به المؤمن ويندم في الحال وهو من اللمم الذي هو مس من الجنون كأنه مسه وفارقه ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]ثالثها: اللمم الصغير من الذنب من ألم إذا نزل نزولاً من غير لبث طويل، ويقال: ألم بالطعام إذا قلل من أكله، وعلى هذا فقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون ذلك استثناء من الفواحش وحينئذ فيه وجهان: أحدهما: استثناء منقطع لأن اللمم ليس من الفواحش وثانيهما: غير منقطع لما بينا أن كل معصية إذا نظرت إلى جانب الله تعالى وما يجب أن يكون عليه فهي كبيرة وفاحشة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ [الأعراف: ٢٨]غير أن الله تعالى استثنى منها أمورًا يقال: الفواحش كل معصية إلا ما استثناه الله تعالى منها ووعدنا بالعفو عنه ثانيها: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى غير وتقديره والفواحش غير اللمم وهذا للوصف إن كان للتمييز كما يقال: الرجال غير أولي الإربة فاللمم عين الفاحشة، وإن كان لغيره كما يقال الرجال غير النساء جاؤوني لتأكيد وبيان فلا وثالثها: هو استثناء من الفعل الذي يدل عليه قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ لأن ذلك يدل على أنهم لا يقربونه فكأنه قال: لا يقربونه إلا مقاربة من غير مواقعة وهو اللمم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وذلك على قولنا: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ ابتداء الكلام في غاية الظهور، لأن المحسن مجزي وذنبه مغفور، ومجتنب الكبائر كذلك ذنبه الصغير مغفور،

والمقدم على الكبائر إذا تاب مغفور الذنب، فلم يبق ممن لم تصل إليهم مغفرة إلا الذين أساؤا وأصروا عليها، فالمغفرة واسعة وفيه معنى آخر لطيف، وهو أنه تعالى لما أخرج المسيء عن المغفرة بين أن ذلك ليس لضيق فيها، بل ذلك بمشيئة الله تعالى، ولو أراد الله مغفرة كل من أحسن وأساء لفعل، وما كان يضيق عنهم مغفرته، والمغفرة من الستر، وهو لا يكون إلا على قبيح، وكل من خلقه الله إذا نظرت في فعله، ونسبته إلى نعم الله تجده مقصرًا مسيئًا، فإن من جازى المنعم بنعم لا تحصى مع استغنائه الظاهر، وعظمته الواضحة بدرهم أو أقل منه يحتاج إلى ستر ما فعله.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ وفي المناسبة وجوه أحدها: هو تقرير لما مر من قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ [النجم: ٣٠] كأن العامل من الكفار يقول: نحن نعمل أمورًا في جوف الليل المظلم، وفي البيت الخالي فكيف يعلمه الله تعالى؟ فقال: ليس عملكم أخفى من أحوالكم وأنتم أجنة في بطون أمهاتكم، والله عالم بتلك الأحوال ثانيها: هو إشارة إلى أن الضال والمهتدي حصلا على ما هما عليه بتقدير الله، فإن الحق علم أحوالهم وهم في بطون الأمهات، فكتب على البعض أنه ضال، والبعض أنه مهتد ثالثها: تأكيد وبيان للجزاء، وذلك لأنه لما قال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [النجم: ٣١] قال الكافرون: هذا الجزاء لا يتحقق إلا بالحشر، وجمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة ما كان لزيد من الأجزاء في بدنه من غير اختلاط غير ممكن، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾ فيجمعها بقدرته على وفق علمه كماأنشأكم **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: العامل في: ﴿إِذْ﴾ يحتمل أن يكون ما يدل عليه: ﴿أَعْلَمُ﴾ أي علمكم وقت الإنشاء، ويحتمل أن يكون اذكروا فيكون تقريرًا لكونه عالمًا ويكون تقديره: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وقد تم الكلام، ثم يقول: إن كنتم في شك من علمه بكم فاذكروا حال إنشائكم من التراب.

المسألة الثانية: ذكرنا مرارًا أن قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من الناس من قال آدم فإنه من تراب، وقررنا أن كل أحد أصله من التراب، فإنه يصير غذاء، ثم يصير نطفة.

المسألة الثالثة: لو قال قائل: لا بد من صرف ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آدم، لأن ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ عائد إلى غيره، فإنه لم يكن جنينًا، ولو قلت بأن قوله تعالى ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ عائد إلى جميع الناس، فينبغي أن يكون جميع الناس أجنة في بطون الأمهات، وهو قول الفلاسفة؟ نقول ليس كذلك، لأنا نقول: الخطاب مع الموجودين حالة الخطاب، وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ خطاب مع كل من بعد الإنزال على قول، ومع من حضر وقت الإنزال على قول، ولا شك أن كل هؤلاء من الأرض وهم كانوا أجنة.

المسألة الرابعة: الأجنة هم الذين في بطون الأمهات، وبعد الخروج لا يسمى إلا ولدًا أو سقطًا، فما فائدة قوله تعالى: ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؟ نقول: التنبيه على كمال العلم والقدرة، فإن

بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد.

المسألة الخامسة: لقائل أن يقول: إذا قلنا إن قوله ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ تقرير لكونه عالمًا بمن ضل، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ تعلقه به ظاهر، وأما إن قلنا إنه تأكيد وبيان للجزاء، فإنه يعلم الأجزاء فيعيدها إلى أبدان أشخاصها، فكيف يتعلق به ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾؟ نقول: معناه حينئذ فلا تبرئوا أنفسكم من العذاب، ولا تقولوا تفرقت الأجزاء فلا يقع العذاب، لأن العالم بكم عند الإنشاء عالم بكم عند الإعادة، وعلى هذا قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي يعلم أجزاءه فيعيدها إليه، ويثيبه بما أقدم عليه.

المسألة السادسة: الخطاب مع من؟ فيه ثلاثة احتمالات الأول: مع الكفار، وهذا على قولنا إنهم قالوا كيف يعلمه الله، فرد عليهم قولهم الثاني كل من كان زمان الخطاب وبعده من المؤمنين والكفار الثالث هو مع المؤمنين، وتقريره: هو أن الله تعالى لما قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] قال لنبيه ﷺ: قد علم كونك ومن معك على الحق، وكون المشركين على الباطل، فأعرض عنهم ولا تقولوا: نحن على الحق وأنتم على الضلال، لأنهم يقابلونكم بمثل ذلك، وفوض الأمر إلى الله تعالى، فهو أعلم بمن اتقى ومن طغى، وعلى هذا فقول من قال: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ منسوخ أظهر، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤] والله أعلم بجملة الأمور، ويحتمل أن يقال: على هذا الوجه الثالث إنه إرشاد للمؤمنين، فخاطبهم الله وقال: هو أعلم بكم أيها المؤمنون، علم ما لكم من أول خلقكم إلى آخر يومكم، فلا تزكوا أنفسكم رياء وخيلاء، ولا تقولوا لآخر أنا خير منك وأنا أزكى منك وأتقى، فإن الأمر عند الله، ووجه آخر وهو إشارة إلى وجوب الخوف من العاقبة، أي لا تقطعوا بخلاصكم أيها المؤمنون، فإن الله يعلم عاقبة من يكون على التقي، وهذا يؤيد قول من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله للصرف إلى العاقبة.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعض المفسرين: نزلت الآية في الوليد بن المغيرة جلس عند النبي ﷺ وسمع وعظه، وأثرت الحكمة فيه تأثيرًا قويًا، فقال له رجل: لم تترك دين آبائك، ثم قال له: لا تخف وأعطني كذا وأنا أتحمل عنك أوزارك، فأعطاه بعض ما التزمه، وتولى عن الوعظ وسماع الكلام من النبي ﷺ، وقال بعضهم: نزلت في عثمان رضي الله عنه، كان يعطي ماله عطاء كثيرًا، فقال له أخوه من أمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح: يوشك أن يفنى مالك فأمسك، فقال له عثمان: إن لي ذنوبًا أرجو أن يغفر الله لي بسبب العطاء، فقال له أخوه: أنا أتحمل عنك

ذنوبك إن تعطي ناقتك مع كذا، فأعطاه ما طلب وأمسك يده عن العطاء، فنزلت الآية، وهذا قول باطل لا يجوز ذكره، لأنه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر، وظاهر حال عثمان رضي الله عنه يأبى ذلك، بل الحق أن يقال: إن الله تعالى لما قال لنبيه ﷺ من قبل ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] وكان التولي من جملة أنواعه تولي المستغني، فإن العالم بالشيء لا يحضر مجالس ذكر ذلك الشيء، ويسعى في تحصيل غيره، فقال ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ عن استغناء، أعلم بالغيب؟.

المسألة الثانية: الفاء تقتضي كلامًا يترتب هذا عليه، فماذا هو؟ نقول: هو ما تقدم من بيان علم الله وقدرته، ووعده المسيء والمحسن بالجزاء وتقديره هو أن الله تعالى لما بين أن الجزاء لا بد من وقوعه على الإساءة والإحسان، وأن المحسن هو الذي يجتنب كبائر الإثم، فلم يكن الإنسان مستغنيًا عن سماع كلام النبي ﷺ واتباعه، فبعد هذا من تولى لا يكون توليه إلا بعد غاية الحاجة ونهاية الافتقار.

المسألة الثالثة: ﴿ ٱلَّذِى﴾ على ما قال بعض المفسرين عائد إلى معلوم، وهو ذلك الرجل وهو الوليد، والظاهر أنه عائد إلى مذكور، فإن الله تعالى قال من قبل ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] وهو المعلوم لأن الأمر بالإعراض غير مختص بواحد من المعاندين فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي الذي سبق ذكره، فإن قيل: كان ينبغي أن يقول الذين تولوا، لأن (من) في قوله: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ للعموم؟ نقول: العود إلى اللفظ كثير شائع قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [القصص: ٨٤] ولم يقل فلهم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ ما المراد منه؟ نقول: على ما تقدم هو المقدار الذي أعطاه الوليد، وقوله: ﴿ وَأَكْدَىٰٓ﴾ هو ما أمسك عنه ولم يعط الكل، وعلى هذا لو قال قائل إن الإكداء لا يكون مذمومًا لأن الإعطاء كان بغير حق، فالامتناع لا يذم عليه، وأيضًا فلا يبقى لقوله ﴿ قَلِيلًا﴾ فائدة، لأن الإعطاء حينئذ نفسه يكون مذمومًا، نقول فيه بيان خروجهم عن العقل والعرف أما العقل فلأنه منع من الإعطاء لأجل حمل الوزر، فإنه لا يحصل به، وأما العرف فلأن عادة الكرام من العرب الوفاء بالعهد، وهو لم يف به حيث التزم الإعطاء وامتنع، والذي يليق بما ذكرنا هو أن نقول: تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، يعني إعطاء ما وجب إعطاؤه في مقابلة ما يجب لإصلاح أمور الآخرة، ويقع في قوله تعالى: ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ في مقابلة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] أي لم يعلم الغيب وما في الآخرة وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٦- ٣٨] في مقابلة قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ إلى قوله: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ [النجم: ٣٠، ٣١] لأن الكلامين جميعًا لبيان الجزاء، ويمكن أن يقال: إن الله تعالى لما بين حال المشركين المعاندين العابدين للات والعزى والقائلين بأن الملائكة بنات الله شرع في بيان أهل الكتاب، وقال بعدما رأيت حال

المشرك الذي تولى عن ذكرنا، أفرأيت حال من تولى وله كتاب وأعطى قليلاً من الزمان حقوق الله تعالى، ولما بلغ زمان محمد أكدى فهل علم الغيب فقال شيئًا لم يرد في كتبهم ولم ينزل عليهم في الصحف المتقدمة، ووجد فيها بأن كل واحد يؤاخذ بفعله ويجازى بعمله، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ يخبر أن المتولي المذكور من أهل الكتاب.

المسألة الخامسة: ﴿وَأَكْدَىٰ﴾ قيل هو من بلغ الكدية وهي الأرض الصلبة لا تحفر، وحافر البئر إذا وصل إليها فامتنع عليه الحفر أو تعسر يقال: أكدى الحافر، والأظهر أنه الرد والمنع يقال: أكديته أي رددته وقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ قد علم تفسيره جملة أن المراد جهل المتولي وحاجته وبيان قبح التولي مع الحاجة إلى الإقبال وعلم الغيب، أي العلم بالغيب، أي علم ما هو غائب عن الخلق وقوله: ﴿فَهُوَ يَرَىٰ﴾ تتمة بيان وقت جواز التولي وهو حصول الرؤية وهو الوقت الذي لا ينفع الإيمان فيه، وهناك لا يبقى وجوب متابعة أحد فيما رآه، لأن الهادي يهدي إلى الطريق فإذا رأى المهتدي مقصده بعينه لا ينفيه السماع، فقال تعالى: هل علم الغيب بحيث رآه فلا يكون علمه علمًا نظريًا بل علمًا بصريًا فعصى فتولى وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَرَىٰ﴾ يحتمل أن يكون مفعول ﴿يَرَىٰ﴾ هو احتمال الواحد وزر الآخر كأنه قال فهو يرى أن وزره محمول ألم يسمع أن وزره غير محمول فهو عالم بالحمل وغافل عن عدم الحمل ليكون معذورًا، ويحتمل أن لا يكون له مفعول تقديره فهو يرى رأي نظر غير محتاج إلى هاد ونذير.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ حال أخرى مضادة للأولى يعذر فيها المتولي وهو الجهل المطلق فإن من علم الشيء علمًا تامًا لا يؤمر بتعلمه، والذي جهله جهلاً مطلقًا وهو الغافل على الإطلاق كالنائم أيضًا لا يؤمر فقال: هذا المتولي هل علم الكل فجاز له التولي أولم يسمع شيئًا وما بلغه دعوة أصلاً فيعذر، ولا واحد من الأمرين بكائن فهو في التولي غير معذور، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿بِمَا فِي﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد ما فيها لا بصفة كونه فيها، فكأنه تعالى يقول: أم لم ينبأ بالتوحيد والحشر وغير ذلك، وهذه أمور مذكورة في صحف موسى، مثاله: يقول القائل لمن توضأ بغير الماء توضأ بما توضأ به النبي ﷺ وعلى هذا فالكلام مع الكل لأن المشرك وأهل الكتاب نبأهم النبي ﷺ بما في صحف موسى ثانيهما: أن المراد بما في الصحف مع كونه فيها، كما يقول القائل فيما ذكرنا من المثال توضأ بما في القربة لا بما في الجرة فيريد عين ذلك لا جنسه وعلى هذا فالكلام مع أهل الكتاب لأنهم الذين نبئوا به.

المسألة الثانية: صحف موسى وإبراهيم، هل جمعها لكونها صحفًا كثيرة أو لكونها مضافة إلى اثنين كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]؟ الظاهر أنها كثيرة، قال الله تعالى: و﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وكل لوح صحيفة.

المسألة الثالثة: ما المراد بالذي فيها؟ نقول قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩] وما بعده من الأمور المذكورة على قراءة من قرأ أن بالفتح وعلى قراءة من يكسر ويقول: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] ففيه وجوه أحدها: هو ما ذكره بقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨] وهو الظاهر، وإنما احتمل غيره، لأن صحف موسى وإبراهيم ليس فيها هذا فقط، وليس هذا معظم المقصود بخلاف قراءة الفتح، فإن فيها تكون جميع الأصول على ما بيَّنَ ثانيها: هو أن الآخرة خير من الأولى يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩] ثالثها: أصول الدين كلها مذكورة في الكتب بأسرها، ولم يخل الله كتابًا عنها، ولهذا قال لنبيه ﷺ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وليس المراد في الفروع، لأن فروع دينه مغايرة لفروع دينهم من غير شك.

المسألة الرابعة: قدم موسى هاهنا ولم يقل كما قال في ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فهل فيه فائدة؟ نقول: مثل هذا في كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة، بل التقديم والتأخير سواء في كلامهم فيصح أن يقتصر على هذا الجواب، ويمكن أن يقال: إن الذكر هناك لمجرد الإخبار والإنذار وههنا المقصود بيان انتفاء الأعذار، فذكر هناك على ترتيب الوجود صحف إبراهيم قبل صحف موسى في الإنزال، وأما هاهنا فقد قلنا إن الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم، وإن قلنا الخطاب عام فصحف موسى عليه السلام كانت كثيرة الوجود، فكأنه قيل لهم انظروا فيها تعلموا أن الرسالة حق، وأرسل من قبل موسى رسل والتوحيد صدق والحشر واقع فلما كانت صحف موسى عند اليهود كثيرة الوجود قدمها، وأما صحف إبراهيم فكانت بعيدة وكانت المواعظ التي فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى فأخر ذكرها.

المسألة الخامسة: كثيرًا ما ذكر الله موسى فأخر ذكره عليه السلام لأنه كان مبتلى في أكثر الأمر بمن حواليه وهم كانوا مشركين ومتهودين والمشركون كانوا يعظمون إبراهيم عليه السلام لكونه أباهم، وأما قوله تعالى: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ ففيه وجهان أحدهما: أنه الوفاء الذي يذكر في العهود وعلى هذا فالتشديد للمبالغة يقال وفَّى وَوَفَى كَقَطَّع وقَطَعَ وقَتَّل وقتل، وهو ظاهر لأنه وفى بالنذر وأضجع ابنه للذبح، وورد في حقه: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦] وثانيهما: أنه من التوفية التي من الوفاء وهو التمام والتوفية الإتمام يقال وفاه أي أعطاه تامًا، وعلى هذا فهو من قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقيل: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ أي أعطى حقوق الله في بدنه، وعلى هذا فهو على ضد من قال تعالى فيه: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤] مدح إبراهيم ولم يصف موسى عليه السلام، نقول: أما بيان

توفيته ففيه لطيفة وهي أنه لم يعهد عهدًا إلا وفى به، وقال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨] فاستغفر ووفى بالعهد ولم يغفر الله له، فعلم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] وأن وزره لا تزره نفس أخرى، وأما مدح إبراهيم عليه السلام فلأنه كان متفقًا عليه بين اليهود والمشركين والمسلمين ولم ينكر أحد كونه وفيًا، وموفيًا، وربما كان المشركون يتوقفون في وصف موسى عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨] وقد تقدم تفسيره في سورة الملائكة، والذي يحسن بهذا الموضع مسائل:

الأولى: أنا بينا أن الظاهر أن المراد من قوله: ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ هو ما بينه بقوله ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ فيكون هذا بدلاً عن ما وتقديره أم لم ينبأ بألا تزر وذكرنا هناك وجهين أحدهما: المراد أن الآخرة خير وأبقى وثانيهما: الأصول.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

المسألة الثانية: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أن خفيفة من الثقيلة كأنه قال: أنه لا تزر وتخفيف الثقيلة لازم وغير لازم جائز وغير جائز، فاللازم عندما يكون بعدها فعل أو حرف داخل على فعل، ولزم فيها التخفيف، لأنها مشبهة بالفعل في اللفظ والمعنى، والفعل لا يمكن إدخاله على فعل فأخرج عن شبه الفعل إلى صورة تكون حرفًا مختصًا بالفعل فتناسب الفعل فتدخل عليه.

المسألة الثالثة: إن قال قائل: الآية مذكورة لبيان أن وزر المسيء لا يحمل عنه وبهذا الكلام لا تحصل هذه الفائدة لأن الوازرة تكون مثقلة بوزرها فيعلم كل أحد أنها لا تحمل شيئًا ولو قال لا تحمل فارغة وزر أخرى كان أبلغ نقول ليس كما ظننت، وذلك لأن المراد من الوازرة هي التي يتوقع منها الوزر والحمل لا التي وزرت وحملت كما يقال: شقاني الحمل، وإن لم يكن عليه في الحال حمل، وإذا لم تزر تلك النفس التي يتوقع منها ذلك فكيف تتحمل وزر غيرها فتكون الفائدة كاملة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ تتمة بيان أحوال المكلف فإنه لما بين له أن سيئته لا يتحملها عنه أحد بين له أن حسنة الغير لا تجدي نفعًا ومن لم يعمل صالحًا لا ينال خيرًا فيكمل بها ويظهر أن المسيء لا يجد بسبب حسنة الغير ثوابًا ولا يتحمل عنه أحد عقابًا، وفيه أيضًا مسائل:

الأولى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ﴾ فيه وجهان أحدهما: أنه عام وهو الحق وقيل عليه بأن في الأخبار أن ما يأتي به القريب من الصدقة والصوم يصل إلى الميت والدعاء أيضًا نافع فللإنسان شيء لم يسع فيه، وأيضًا قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهي فوق ما سعى، الجواب عنه أن الإنسان إن لم يسع في أن يكون له صدقة القريب بالإيمان لا يكون له صدقته فليس له إلا ما سعى، وأما الزيادة فنقول: الله تعالى لما وعد المحسن بالأمثال والعشرة

وبالأضعاف المضاعفة فإذا أتى بحسنة راجيًا أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى في الأمثال، فإن قيل: أنتم إذن حملتم السعي على المبادرة إلى الشيء، يقال: سعى في كذا إذا أسرع إليه، والسعي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ معناه العمل يقال: سعى فلان أي عمل، ولو كان كما ذكرتم لقال: إلا ما سعى فيه نقول على الوجهين جميعًا: لا بد من زيادة فإن قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ليس المراد منه أن له عين ما سعى، بل المراد على ما ذكرت ليس له إلا ثواب ما سعى، أو إلا أجر ما سعى، أو يقال: بأن المراد أن ما سعى محفوظ له مصون عن الإحباط فإذن له فعله يوم القيامة الوجه الثاني: أن المراد من الإنسان الكافر دون المؤمن وهو ضعيف، وقيل بأن قوله: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ كان في شرع من تقدم، ثم إن الله تعالى نسخه في شرع محمد ﷺ وجعل للإنسان ما سعى وما لم يسع وهو باطل إذ لا حاجة إلى هذا التكلف بعدما بان الحق، وعلى ما ذكر فقوله: ﴿مَا سَعَىٰ﴾ مبقي على حقيقته معناه له عين ما سعى محفوظ عند الله تعالى ولا نقصان يدخله ثم يجزى به كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

المسألة الثانية: أن ﴿مَا﴾ خبرية أو مصدرية؟ نقول: كونها مصدرية أظهر بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي سوف يرى المسعي، والمصدر للمفعول يجيء كثيرًا يقال: هذا خلق الله أي مخلوقه.

المسألة الثالثة: المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة أو بيان كل عمل، نقول: المشهور أنهما لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به والظاهر أنه لبيان الخيرات يدل عليه اللام في قوله تعالى: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ فإن اللام لعود المنافع وعلى لعود المضار تقول: هذا له، وهذا عليه، ويشهد له ويشهد عليه في المنافع والمضار، وللقائل الأول أن يقول: بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل كجموع السلامة تذكر إذا اجتمعت الإناث مع الذكور، وأيضًا يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١] والأوفى لا يكون إلا في مقابلة الحسنة، وأما في السيئة فالمثل أو دونه العفو بالكلية.

المسألة الرابعة: ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ بصيغة الماضي دون المستقبل لزياد الحث على السعي في العمل الصالح وتقريره هو أنه تعالى لو قال: ليس للإنسان إلا ما يسعى، تقول النفس إني أصلي غدًا كذا ركعة وأتصدق بكذا درهمًا، ثم يجعل مثبتًا في صحيفتي الآن لأنه أمر يسعى وله فيه ما يسعى فيه، فقال: ليس له إلا ما قد سعى وحصل وفرغ منه، وأما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾

أي يعرض عليه ويكشف له من أريته الشيء، وفيه بشارة للمؤمنين على ما ذكرنا، وذلك

أن الله يريه أعماله الصالحة ليفرح بها، أو يكون يرى ملائكته وسائر خلقه ليفتخر العامل به على ما هو المشهور وهو مذكور لفرح المسلم ولحزن الكافر، فإن سعيه يرى للخلق، ويرى لنفسه ويحتمل أن يقال: هو من رأى يرى فيكون كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وفيها وفي الآية التي بعدها مسائل:

الأولى: العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه؟ نقول فيه وجهان: أحدهما: يراه على صورة جميلة إن كان العمل صالحًا. ثانيهما: هو على مذهبنا غير بعيد فإن كل موجود يرى، والله قادر على إعادة كل معدوم فبعد الفعل يرى [1] وفيه وجه ثالث: وهو أن ذلك مجاز عن الثواب يقال: سترى إحسانك عند الملك أي جزاءه عليه وهو بعيد لما قال بعده: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

المسألة الثانية: الهاء ضمير السعي أي ثم يجزى الإنسان سعيه بالجزاء، والجزاء يتعدى إلى مفعولين قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢] ويقال: جزاك الله خيرًا، ويتعدى إلى ثلاثة مفاعيل بحرف يقال: جزاه الله على عمله الخير الجنة، ويحذف الجار ويوصل الفعل فيقال: جزاه الله عمله الخير الجنة، هذا وجه، وفيه وجه آخر وهو أن الضمير للجزاء، وتقديره ثم يجزى جزاء ويكون قوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ تفسيرًا أو بدلاً مثل قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنبياء: ٣] فإن التقدير والذين ظلموا أسروا النجوى، الذين ظلموا، والجزاء الأوفى على ما ذكرنا يليق بالمؤمنين الصالحين لأنه جزاء الصالح، وإن قال تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣] وعلى ما قيل: يجاب أن الأوفى بالنظر إليه فإن جهنم ضررها أكثر بكثير مع نفع الآثام فهي في نفسها أوفى.

المسألة الثالثة: ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الجزاء أو لتراخي الكلام أي ثم نقول يجزاه فإن كان لتراخي الجزاء فكيف يؤخر الجزاء عن الصالح، وقد ثبت أن الظاهر أن المراد منه الصالح؟ نقول: الوجهان محتملان وجواب السؤال هو أن الوصف بالأوفى يدفع ما ذكرت لأن الله تعالى من أول زمان يموت الصالح يجزيه جزاء على خيره ويؤخر له الجزاء الأوفى، وهي الجنة أو نقول الأوفى إشارة إلى الزيادة فصار كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] وهي الجنة: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي الرؤية فكأنه تعالى قال وأن سعيه سوف يرى ثم يرزق الرؤية، وهذا الوجه يليق بتفسير اللفظ فإن الأوفى مطلق غير مبين فلم يقل: أوفى من كذا، فينبغي أن يكون أوفى من كل واف ولا يتصف به غير رؤية الله تعالى.

---

(١) ثبت علميًا أن أعمال الإنسان وغيره مثبتة كما هي علي لوحات الأثير كالصورة الفوتوغرافية تماما وكذلك الأصوات فإنها تسجل في الموجات الأثيرية غير أنها تبتعد عنا بتقدم الزمان وقد استطاع العلماء سماع تلك الأصوات بمكبرات صوتية والراديو والتليفزيون أمثلة مصغرة لذلك وهذا من أدلة القدرة الباهرة ومن الأدلة على البعث والحساب فمحال أن يكون حفظها عبثا.

المسألة الرابعة: في بيان لطائف في الآيات. الأولى: قال في حق المسيء: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وهو لا يدل إلا على عدم الحمل عن الوازرة وهذا لا يلزم منه بقاء الوزر عليها من ضرورة اللفظ، لجواز أن يسقط عنها ويمحو الله ذلك الوزر فلا يبقى عليها ولا يتحمل عنها غيرها ولو قال: لا تزر وازرة إلا وزر نفسها كان من ضرورة الاستثناء أنها تزر، وقال في حق المحسن: ليس للإنسان إلا ما سعى، ولم يقل: ليس له ما لم يسع لأن العبارة الثانية ليس فيها أن له ما سعى، وفي العبارة الأولى أن له ما سعى، نظرًا إلى الاستثناء، وقال: في حق المسيء بعبارة لا تقطع رجاءه، وفي حق المحسن بعبارة تقطع خوفه، كل ذلك إشارة إلى سبق الرحمة الغضب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

القراءة المشهورة فتح الهمزة على العطف على ما، يعني أن هذا أيضًا في الصحف وهو الحق، وقرئ بالكسر على الاستئناف.

وفيه مسائل:

الأولى: ما المراد من الآية؟ قلنا فيه وجهان: أحدهما: وهو المشهور بيان المعاد أي للناس بين يدي الله وقوف، وعلى هذا فهو يتصل بما تقدم لأنه تعالى لما قال: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ [النجم: ٤١] كأن قائلاً قال لا ترى الجزاء، ومتى يكون، فقال: إن المرجع إلى الله، وعند ذلك يجازي الشكور ويجزي الكفور. وثانيهما: المراد التوحيد، وقد فسر الحكماء أكثر الآيات التي فيها الانتهاء والرجوع بما سنذكره غير أن في بعضها تفسيرهم غير ظاهر، وفي هذا الموضع ظاهر، فنقول: هو بيان وجود الله تعالى ووحدانيته، وذلك لأنك إذا نظرت إلى الموجودات الممكنة لا تجد لها بدًا من موجد، ثم إن موجدها ربما يظن أنه ممكن آخر كالحرارة التي تكون على وجه يظن أنها من إشراق الشمس أو من النار فيقال الشمس والنار ممكنتان فمم وجودهما؟ فإن استندتا إلى ممكن آخر لم يجد العقل بدًا من الانتهاء إلى غير ممكن فهو واجب الوجود فإليه ينتهي الأمر فالرب هو المنتهى، وهذا في هذا الموضع ظاهر معقول موافق للمنقول، فإن المروي عن أبي بن كعب أنه قال عن النبي ﷺ أنه قال: «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى، لاَ فِكْرَةَ فِي الرَّبِّ»[1] أي انتهى الأمر إلى واجب الوجود، وهو الذي لا يكون وجوده بموجد ومنه كل وجود، وقال أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا ذُكِرَ الرَّبُّ فَانْتَهُوا»[2] وهو محتمل لما ذكرنا، وأما بعض الناس فيبالغ ويفسر كل آية فيها الرجعى والمنتهى وغيرهما بهذا التفسير حتى قيل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو الشيخ في (العظمة) (١/ ٢١٧/ ٦) من طريق موسي بن حزام عن عبد العزيز بن خالد عن سفيان... فذكره ورواه البغوي في (معالم التنزيل) (٧/ ٤١٧) من طريق أبي جعفر الرازي عن أبي بن كعب... به، وعزاه السيوطي في (الدر المنثور) (٧/ ٦٦٢) والمتقي في (كنز العمال) (٣/ ٣٦٩) الدارقطني في (الإفراد).

(٢) ذكره أهل التفسير بدون إسناد.

[فاطر: ١٠] بهذا المعنى وهذا دليل الوجود، وأما دليل الوحدانية فمن حيث إن العقل انتهى إلى واجب الوجود من حيث إنه واجب الوجود، لأنه لو لم يكن واجب الوجود لما كان منتهى بل يكون له موجد، فالمنتهى هو الواجب من حيث إنه واجب، وهذا المعنى واحد في الحقيقة والعقل، لأنه لا بد من الانتهاء إلى هذا الواجب أو إلى ذلك الواجب فلا يثبت الواجب معنى غير أنه واجب فيبعد إذًا وجوبه، فلو كان واجبان في الوجود لكان كل واحد قبل المنتهى لأن المجموع قبله الواجب فهو المنتهى وهذان دليلان ذكرتهما على وجه الاختصار.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ في المخاطب وجهان: أحدهما: أنه عام تقديره إلى ربك أيها السامع أو العاقل ثانيهما: الخطاب مع النبي ﷺ وفيه بيان صحة دينه فإن كل أحد كان يدعى ربًا وإلهًا، لكنه ﷺ لما قال: «رَبِّيَ الَّذِي هُوَ أَحَدٌ وَصَمَدٌ»(١) يحتاج إليه كل ممكن فإذًا ربك هو المنتهى، وهو رب الأرباب ومسبب الأسباب، وعلى هذا القول الكاف أحسن موقعًا، أما على قولنا: إن الخطاب عام فهو تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن، لأن قوله: أيها السامع كائنًا من كان إلى ربك المنتهى يفيد الأمرين إفادة بالغة حد الكمال، وأما على قولنا: الخطاب مع النبي ﷺ فهو تسلية لقلبه كأنه يقول: لا تحزن فإن المنتهى إلى الله فيكون كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦] إلى أن قال تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] وأمثاله كثيرة في القرآن.

المسألة الثالثة: اللام على الوجه الأول للعهد لأن النبي ﷺ كان يقول: أبدًا إن مرجعكم إلى الله فقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ الموعود المذكور في القرآن وكلام النبي ﷺ، وعلى الوجه الثاني للعموم أي إلى الرب كل منتهى وهو مبدأ، وعلى هذا الوجه نقول: منتهى الإدراكات المدركات، فإن الإنسان أولاً يدرك الأشياء الظاهرة ثم يمعن النظر فينتهي إلى الله فيقف عنده.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣﴾

وفيه مسائل:

الأولى: على قولنا: إليه المنتهى المراد منه إثبات الوحدانية، هذه الآيات مثبتات لمسائل يتوقف عليها الإسلام من جملتها قدرة الله تعالى، فإن من الفلاسفة من يعترف بأن الله المنتهى وأنه واحد لكن يقول: هو موجب لا قادر، فقال تعالى: هو أوجد ضدين الضحك والبكاء في محل واحد والموت والحياة والذكورة والأنوثة في مادة واحدة، وإن ذلك لا يكون إلا من قادر واعترف به كل عاقل، وعلى قولنا: إن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] بيان المعاد

(١) لم أجده.

فهو إشارة إلى بيان أمره فهو كما يكون في بعضها ضاحكًا فرحًا وفي بعضها باكيًا محزونًا كذلك يفعل به في الآخرة.

المسألة الثانية: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ لا مفعول لهما في هذا الموضع لأنهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول. يقول القائل: فلأن بيده الأخذ والعطاء يعطي ويمنع ولا يريد ممنوعًا ومعطى.

المسألة الثالثة: اختار هذين الوصفين للذكر والأنثى لأنهما أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدي في اختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجهًا وسببًا، وإذا لم يعلل بأمر ولا بد له من موجد فهو الله تعالى، بخلاف الصحة والسقم فإنهم يقولون: سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال، ويدلك على هذا أنهم إذا ذكروا في الضحك أمرًا له الضحك قالوا: قوة التعجب وهو في غاية البطلان لأن الإنسان ربما يبهت عند رؤية الأمور العجيبة ولا يضحك، وقيل: قوة الفرح، وليس كذلك لأن الإنسان يفرح كثيرًا ولا يضحك، والحزين الذي عند غاية الحزن يضحكه المضحك، وكذلك الأمر في البكاء، وإن قيل لأكثرهم علمًا بالأمور التي يدعيها الطبيعيون إن خروج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا؟ لا يقدر على تعليل صحيح، وعند الخواص كالتي في المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعي، كما أن عند أوضاع الكواكب ينقطع هو والمهندس الذي لا يفوض أمره إلى قدرة الله تعالى وإرادته.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

والبحث فيه كما في الضحك والبكاء، غير أن الله تعالى في الأول بين خاصة النوع الذي هو أخص من الجنس، فإنه أظهر وعن التعليل أبعد ثم عطف عليه ما هو أعم منه ودونه في البعد عن التعليل وهي الإماتة والإحياء وهما صفتان متضادتان أي الموت والحياة كالضحك والبكاء والموت على هذا ليس بمجرد العدم وإلا لكان الممتنع ميتًا، وكيفما كان فالإماتة والإحياء أمر وجودي وهما من خواص الحيوان، ويقول الطبيعي في الحياة لاعتدال المزاج، والمزاج من أركان متضادة هي النار والهواء والماء والتراب وهي متداعية إلى الانفكاك ومالا تركيب فيه من المتضادات لا موت له، لأن المتضادات كل أحد يطلب مفارقة مجاوره، فقال تعالى: الذي خلق ومزج العناصر وحفظها مدة قادر على أن يحفظها أكثر من ذلك فإذا مات فليس عن ضرورة فهو بفعل فاعل مختار وهو الله تعالى: فهو الذي أمات وأحيا. فإن قيل: متى أمات وأحيا حتى يعلم ذلك بل مشاهدة الإحياء والإماتة بناء على الحياة والموت؟ نقول: فيه وجوه أحدها: أنه على التقديم والتأخير كأنه قال: أحيا وأمات ثانيها: هو بمعنى المستقبل، فإن الأمر قريب يقال: فلان وصل والليل دخل إذا قرب مكانه وزمانه، فكذلك الإحياء والإماتة ثالثها: أمات أي خلق الموت والجمود في العناصر، ثم ركبها وأحيا أي خلق الحس والحركة فيها.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ وهو أيضًا من جملة المتضادات التي تتوارد على النطفة فبعضها يخلق ذكرًا، وبعضها أنثى ولا يصل إليه فهم الطبيعي الذي يقول: إنه من البرد والرطوبة في الأنثى، فرب امرأة أيبس مزاجًا من الرجل، وكيف وإذا نظرت في المميزات بين الصغير والكبير تجدها أمورًا عجيبة منها نبات اللحية، وأقوى ما قالوا في نبات اللحية أنهم قالوا: الشعور مكونة من بخار دخاني ينحدر إلى المسام، فإذا كانت المسام في غاية الرطوبة والتحلل كما في مزاج الصبي والمرأة، لا ينبت الشعر لخروج تلك الأدخنة من المسام الرطبة بسهولة قبل أن يتكون شعرًا، وإذا كانت في غاية اليبوسة والتكاثف ينبت الشعر لعسر خروجه من المخرج الضيق، ثم إن تلك المواد تنجذب إلى مواضع مخصوصة فتندفع، إما إلى الرأس فتندفع إليه لأنه مخلوق كقبة فوق الأبخرة والأدخنة فتتصاعد إليه تلك المواد، فلهذا يكون شعر الرأس أكثر وأطول، ولهذا في الرجل مواضع تنجذب إليها الأبخرة والأدخنة، منها الصدر لحرارة القلب والحرارة تجذب الرطوبة كالسراج للزيت، ومنها بقرب آلة التناسل لأن حرارة الشهوة تجذب أيضًا، ومنها اللحيان فإنها كثيرة الحركة بسبب الأكل، والكلام والحركة أيضًا جاذبة، فإذا قيل لهم: فما السبب الموجب لتلازم نبات شعر اللحية وآلة التناسل فإنها إذا قطعت لم تنبت اللحية؟ وما الفرق بين سن الصبا وسن الشباب وبين المرأة والرجل؟ ففي بعضها يبهت وفي بعضها يتكلم بأمور واهية، ولو فوضها إلى حكمة إلهية لكان أولى **وفيه مسألتان:**

الأولى: قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ﴾ ولم يقل: وأنه هو خلق كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] وذلك لأن الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم أنه بفعل الإنسان، وفي الإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم بعيدًا، لكن ربما يقول به جاهل، كما قال من حاج إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فأكد ذلك بذكر الفصل، وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أن يفعل أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] حيث كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله تعالى وكان في معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨] ولذلك قال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩] لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون رب محمد هو رب الشعرى فأكد في مواضع استبعادهم النسبة إلى الله تعالى الإسناد ولم يؤكده في غيره.

المسألة الثانية: الذكر والأنثى اسمان هما صفة أو اسمان ليسا بصفة؟ المشهور عند أهل اللغة الثاني والظاهر أنهما من الأسماء التي هي صفات، فالذكر كالحسن والعزب والأنثى كالحبلى والكبرى وإنما قلنا: إنها كالحبلى في رأي لأنها حيالها أنشئت لا كالكبرى، وإن قلنا: إنها كالكبرى في رأي، وإنما قلنا: إن الظاهر أنهما صفتان، لأن الصفة ما يطلق على شيء ثبت له أمر كالعالم يطلق على شيء له علم والمتحرك يقال لشيء له حركة بخلاف الشجر والحجر، فإن الشجر لا يقال لشيء بشرط أن يثبت له أمر بل هو اسم موضوع لشيء معين، والذكر اسم

يقال لشيء له أمر، ولهذا يوصف به، ولا يوصف بالشجر، يقال جاءني شخص ذكر، أو إنسان ذكر، ولا يقال جسم شجر، والذي ذهب إلى أنه اسم غير صفة إنما ذهب إليه، لأنه لم يرد له فعل، والصفة في الغالب له فعل كالعالم والجاهل والعزب والكبرى والحبلى، وذلك لا يدل على ما ذهب إليه، لأن الذكورة والأنوثة من الصفات التي لا يتبدل بعضها ببعض، فلا يصاغ لها أفعال لأن الفعل لما يتوقع له تجدد في صورة الغالب، ولهذا لم يوجد للإضافيات أفعال كالأبوة والبنوة والأخوة إذ لم تكن من الذي يتبدل، ووجد للإضافيات المتبدلة أفعال يقال: واخاه وتبناه لما لم يكن مثبتًا بتكلف فقبل التبدل.

قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي قطعة من الماء.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ من أمنى المني إذا نزل أو منى يمني إذا قدر وقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ تنبيه على كمال القدرة لأن النطفة جسم متناسب الأجزاء، ويخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة وطباعًا متباينة وخلق الذكر والأنثى منها أعجب ما يكون على ما بينا، ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعيه كما لم يقدر أحد على أن يدعي خلق السموات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وهي في قول أكثر المفسرين إشارة إلى الحشر، والذي ظهر لي بعد طول التفكر والسؤال من فضل الله تعالى الهداية فيه إلى الحق، أنه يحتمل أن يكون المراد نفخ الروح الإنسانية فيه، وذلك لأن النفس الشريفة لا الأمارة تخالط الأجسام الكثيفة المظلمة، وبها كرم الله بني آدم، وإليه الإشارة في قوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] غير خلق النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظامًا، وبهذا الخلق الآخر تميز الإنسان عن أنواع الحيوانات، وشارك الملك في الإدراكات فكما قال هنالك: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بعد خلق النطفة قال هاهنا: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فجعل نفخ الروح نشأة أخرى كما جعله هنالك إنشاء آخر، والذي أوجب القول بهذا هو أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] عند الأكثرين لبيان الإعادة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١] كذلك فيكون ذكر النشأة الأخرى إعادة، ولأنه تعالى قال بعد هذا: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] وهذا من أحوال الدنيا، وعلى ما ذكرنا يكون الترتيب في غاية الحسن فإنه تعالى يقول: خلق الذكر والأنثى ونفخ فيهما الروح الإنسانية الشريفة ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره، ثم أقناه بالكسب بعد كبره، فإن قيل: فقد وردت النشأة الأخرى للحشر في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] نقول الآخرة من الآخر لا من

الآخر لأن الآخر أفعل، وقد تقدم على أن هناك لما ذكر البدء حمل على الإعادة وههنا ذكر خلقه من نطفة، كما في قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ثم قال: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ﴿عَلَىٰ﴾ للوجوب، ولا يجب على الله الإعادة، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾ قال الزمخشري على ما هو مذهبه عليه عقلاً، فإن من الحكمة الجزاء، وذلك لا يتم إلا بالحشر، فيجب عليه عقلاً الإعادة، ونحن لا نقول بهذا القول، ونقول فيه وجهان الأول: عليه بحكم الوعد فإنه تعالى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: ١٢] فعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع الثاني: عليه للتعيين فإن من حضر بين جمع وحاولوا أمرًا وعجزوا عنه، يقال: وجب عليك إذن أن تفعله أي تعينت له.

المسألة الثانية: قرئ: (النَّشْأَة) على أنه مصدر كالضربة على وزن فعلة وهي للمرة، تقول: ضربته ضربتين، أي مرة بعد مرة، يعني النشأة مرة أخرى عليه، وقرئ (النَّشَاءَة) بالمد على أنه مصدر على وزن فعالة كالكفالة، وكيفما قرىء فهي من نشأ، وهو لازم وكان الواجب أن يقال: عليه الإنشاء لا النشأة، نقول فيه فائدة وهي أن الجزم يحصل من هذا بوجود الخلق مرة أخرى، ولو قال: عليه الإنشاء ربما يقول قائل: الإنشاء من باب الإجلاس، حيث يقال في السعة أجلسته فما جلس، وأقمته فما قام فيقال: أَنشَأَ وما نشأ أي قصده لينشأ ولم يوجد، فإذا قال: عليه النشأة أي يوجد النشء ويحققه بحيث يوجد جزمًا.

المسألة الثالثة: هل بين قول القائل: عليه النشأة مرة أخرى، وبين قوله: عليه النشأة الأخرى فرق؟ نقول: نعم إذا قال: عليه النشأة مرة أخرى لا يكون النشء قد علم أولاً، وإذا قال: ﴿عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ يكون قد علم حقيقة النشأة الأخرى، فنقول ذلك المعلوم عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وقد ذكرنا تفسيره فنقول: ﴿أَغْنَىٰ﴾ يعني دفع حاجته ولم يتركه محتاجًا لأن الفقير في مقابلة الغني، فمن لم يبق فقيرًا بوجه من الوجوه فهو غني مطلقًا، ومن لم يبق فقيرًا من وجه فهو غني من ذلك الوجه، قال ﷺ: «**أَغْنُوهُمْ عَنِ الْمَسْأَلَةِ فِي هَذَا الْيَوْمِ**» (١)

---

(١) **ضعيف**: رواه البيهقي في (سننه الكبرى) (٤/ ١٧٥) حديث رقم (٧٥٢٨) من طريق محمد بن إسحاق حدثنا يوسف بن يعقوب القاضي حدثنا أبو الربيع حدثنا أبو معشر عن نافع عن ابن عمر . . . به، وابن زنجويه في (الأموال) (٥/ ١٤٨) حديث رقم (١٩٦١). من طريق أبي نعيم أخبرنا أبو معشر عن نافع عن ابن عمر . . . به، الدارقطني في (سننه) (٢/ ١٥٢/ ٦٧) من طريق وكيع عن أبي معشر عن نافع عن ابن عمر . . . به، وأورده الزيلعي في (نصب الراية) (٢/ ٤٣٢) وقال: قلت غريب بهذا اللفظ وأخرجه الدارقطني في سننه عن أبي معشر عن نافع عن بن عمر قال فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر وقال أغنوهم في هذا اليوم انتهى ورواه بن عدي في الكامل وأعله بأبي معشر نجيح ولفظه وقال أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم وأسند تضعيف أبي معشر عن البخاري والنسائي=

وحمل ذلك على زكاة الفطر، ومعناه إذا أتاه ما احتاج إليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ معناه وزاد عليه الإقناء فوق الإغناء، والذي عندي أن الحروف متناسبة في المعنى، فنقول لما كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الإقناء لحالة فوق الإغناء، وعلى هذا فالإغناء هو ما آتاه الله من العين واللسان، وهداه إلى الارتضاع في صباه أو هو ما أعطاه الله تعالى من القوت واللباس المحتاج إليهما وفي الجملة كل ما دفع الله به الحاجة فهو إغناء؛ وكل ما زاد عليه فهو إقناء.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ إشارة إلى فساد قول قوم آخرين، وذلك لأن بعض الناس يذهب إلى أن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده فمن كسب استغنى، ومن كسل افتقر وبعضهم يذهب إلى أن ذلك بالبخت، وذلك بالنجوم، فقال: ﴿هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ وإن قائل الغنى بالنجوم غالط، فنقول هو رب النجوم وهو محركها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ وقوله: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ لإنكارهم ذلك أكد بالفصل، والشعرى نجم مضيء، وفي النجوم شعريان إحداهما شامية والأخرى يمانية، والظاهر أن المراد اليمانية لأنهم كانوا يعبدونها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ لما ذكر أنه: ﴿أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] وكان ذلك بفضل الله لا بعطاء الشعرى وجب الشكر لمن قد أهلك وكفى لهم دليلاً حال عاد وثمود وغيرهم: و﴿عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ قيل: بالأولى تميزت من قوم كانوا بمكة هم عاد الآخرة، وقيل: الأولى لبيان تقدمهم لا لتمييزهم، تقول: زيد العالم جاءني فتصفه لا لتميزه ولكن لتبين علمه، وفيه قراءات (عَادًا الأُولَى) بكسر نون التنوين لالتقاء الساكنين، و(عاد الأُولَى) بإسقاط نون التنوين أيضًا لالتقاء الساكنين كقراءة (عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ) [التوبة: ٣٠] (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ) [الإخلاص: ١-٢] و(عادًا لولى) بإدغام النون في اللام ونقل ضمة الهمزة إلى اللام و(عادًا لؤلى) بهمزة الواو وقرأ هذا القارئ (على سؤقه) ودليله ضعيف وهو يحتمل هذا في موضع (المؤقدة)

=وابن معين ومشاه هو وقال مع ضعفه يكتب حديثه انتهى وتقدم هذا الحديث ثم الحاكم في علوم الحديث بزيادة فيه ولم يعله الشيخ في الإمام إلا بأبي معشر قال قال البخاري منكر الحديث انتهى أعني حديث الدارقطني.

حديث آخر رواه بن سعد في الطبقات أخبرنا محمد بن عمر الواقدي ثنا عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قال وأخبرنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن بن عمر قال وأخبرنا عبد العزيز بن محمد عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جده قالوا فرض صوم رمضان بعد ما حولت القبلة إلى الكعبة بشهر في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من مهاجر رسول الله ﷺ وأمر عليه السلام في هذه السنة بزكاة الفطر وذلك قبل أن يفرض الزكاة في الأموال وأن يخرج عن الصغير والكبير والذكر والأنثى والحر والعبد صاع من تمر أو صاع من زبيب أو مدان من بر وأمر بإخراجها قبل الغد وإلى الصلاة وقال أغنوهم يعني المساكين عن الطواف هذا اليوم انتهى.

وأورده الألباني في (الارواء) (٣/ ٣٣٢) حديث رقم (٨٤٤) وضعفه.

و(المؤصدة) للضمة والواو فهي في هذا الموضع تجزي على الهمزة، وكذا في سؤقه لوجود الهمزة في الأصل، وفي موسى وقوله لا يحسن.

ثم قال تعالى: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ يعني وأهلك ثمود وقوله: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ عائد إلى عاد وثمود أي فما أبقى عليهم، ومن المفسرين من قال: فما أبقاهم أي فما أبقى منهم أحدًا ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨] وتمسك الحجاج على من قال: إن ثقيفًا من ثمود بقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي أهلكهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ والمسألة مشهورة في قبل وبعد تقطع عن الإضافة فتصير كالغاية فتبنى على الضمة. أما البناء فلتضمنه الإضافة، وأما على الضمة فلأنها لو بنيت على الفتحة لكان قد أثبت فيه ما يستحقه بالإعراب من حيث إنها ظروف زمان فتستحق النصب والفتح مثله، ولو بنيت على الكسر لكان الأمر على ما يقتضيه الإعراب وهو الجر بالجار فبنى على ما يخالف حالتي إعرابها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أما الظلم فلأنهم هم البادئون به المتقدمون فيه «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا» والبادئ أظلم، وأما أطغى فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم، والظالم واضع الشيء في غير موضعه، والطاغي المجاوز الحد فالطاغي أدخل في الظلم فهو كالمغاير والمخالف فإن المخالف مغاير مع وصف آخر زائد، وكذا المغاير والمضاد وكل ضد غير وليس كل غير ضدًا، وعليه سؤال وهو أن قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ المقصود منه تخويف الظالم بالهلاك، فإذا قال: هم كانوا في غاية الظلم والطغيان فأهلكوا يقول الظالم هم كانوا أظلم فأهلكوا لمبالغتهم في الظلم، ونحن ما بالغنا فلا نهلك، وأما لو قال أهلكوا لأنهم ظلمة لخاف كل ظالم فما الفائدة في قوله: ﴿أَظْلَمَ﴾؟ نقول: المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتماديهم وطول أعمارهم، ومع ذلك ما نجا أحد منهم فما حال من هو دونهم من العمر والقوة فهو كقوله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [الزخرف: ٨].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾

المؤتفكة المنقلبة، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ: (والمؤتفكات) والمشهور فيه أنها قرىء قوم لوط لكن كانت لهم مواضع ائتفكت فهي مؤتفكات، ويحتمل أن يقال المراد كل من انقلبت مساكنه ودثرت أماكنه ولهذا ختم المهلكين بالمؤتفكات كمن يقول: مات فلان وفلان وكل من كان من أمثالهم وأشكالهم.

المسألة الثانية: ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي أهواها بمعنى أسقطها، فقيل: أهواها من الهوى إلى الأرض

من حيث حملها جبريل عليه السلام على جناحه، ثم قلبها، وقيل: كانت عمارتهم مرتفعة فأهواها بالزلزلة وجعل عاليها سافلها.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ على ما قلت: كقول القائل والمنقلبة قلبها وقلب المنقلب تحصيل الحاصل، نقول: ليس معناه المنقلبة ما انقلبت بنفسها بل الله قلبها فانقلبت.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في اختصاص المؤتفكة باسم الموضع في الذكر، وقال في عاد وثمود، وقوم نوح اسم القوم؟ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن ثمود اسم الموضع فذكر عادًا باسم القوم، وثمود باسم الموضع، وقوم نوح باسم القوم والمؤتفكة باسم الموضع ليعلم أن القوم لا يمكنهم صون أماكنهم عن عذاب الله تعالى ولا الموضع يحصن القوم عنه فإن في العادة تارة يقوي الساكن فيذب عن مسكنه وأخرى يقوي المسكن فيرد عن ساكنه وعذاب الله لا يمنعه مانع، وهذا المعنى حصل للمؤمنين في آيتين أحدهما قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢] ففي الأول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه وفي الثاني لم يقو الحصن على حفظ الساكن والوجه الثاني: هو أن عادًا وثمود وقوم نوح، كان أمرهم متقدمًا، وأماكنهم كانت قد دثرت، ولكن أمرهم كان مشهورًا متواترًا، وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة، فذكر الأظهر من الأمرين في كل قوم.

ثم قال تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يحتمل أن يكون ما مفعولاً وهو الظاهر، ويحتمل أن يكون فاعلاً يقال: ضربه من ضربه، وعلى هذا نقول: يحتمل أن يكون الذي غَشَّى هو الله تعالى فيكون كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى سبب غضب الله عليهم أي غشاها عليهم السبب، بمعنى أن الله غضب عليهم بسببه، يقال لمن أغضب ملكًا بكلام فضربه الملك كلامك الذي ضربك.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ قيل هذا أيضًا مما في الصحف، وقيل هو ابتداء كلام والخطاب عام، كأنه يقول: بأي النعم أيها السامع تشك أو تجادل، وقيل: هو خطاب مع الكافر، ويحتمل أن يقال مع النبي ﷺ، ولا يقال: كيف يجوز أن يقول للنبي ﷺ: ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ لأنا نقول هو من باب: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] يعني لم يبق فيه إمكان الشك، حتى أن فارضًا لو فرض النبي ﷺ ممن يشك أو يجادل في بعض الأمور الخفية لما كان يمكنه المراء في نعم الله والعموم هو الصحيح كأنه يقول: بأي آلاء ربك تتمارى أيها الإنسان، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] فإن قيل:

المذكور من قبل نعم والآلاء نعم، فكيف آلاء ربك؟ نقول: لما عد من قبل النعم وهو الخلق من النطفة ونفخ الروح الشريفة فيه والإغناء والإقناء، وذكر أن الكافر بنعمه أهلك قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ فيصيبك مثل ما أصاب الذين تماروا من قبل، أو تقول: لما ذكر الإهلاك، قال للشاك: أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله إياك: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ وسنزيده بيانًا في قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] في مواضع.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾: **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: المشار إليه بهذا ماذا؟ نقول فيه وجوه أحدها: محمد ﷺ من جنس النذر الأولى ثانيها: القرآن ثالثها: ما ذكره من أخبار المهلكين، ومعناه حينئذ هذا بعض الأمور التي هي منذرة، وعلى قولنا: المراد محمد ﷺ فالنذير هو المنذر و﴿مِّنَ﴾ لبيان الجنس، وعلى قولنا: المراد هو القرآن يحتمل أن يكون النذير بمعنى المصدر، ويحتمل أن يكون بمعنى الفاعل، وكون الإشارة إلى القرآن بعيد لفظًا ومعنى، أما معنى: فلأن القرآن ليس من جنس الصحف الأولى لأنه معجز وتلك لم تكن معجزة، وذلك لأنه تعالى لما بين الوحدانية وقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥] قال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ إشارة إلى محمد ﷺ وإثباتًا للرسالة، وقال بعد ذلك: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] إشارة إلى القيامة ليكون في الآيات الثلاث المرتبة إثبات أصول ثلاث مرتبة، فإن الأصل الأول هو الله ووحدانيته ثم الرسول ورسالته ثم الحشر والقيامة، وأما لفظًا فلأن النذير إن كان كاملاً، فما ذكره من حكاية المهلكين أولى لأنه أقرب ويكون على هذا من بقي على حقيقة التبعيض أي هذا الذي ذكرنا بعض ما جرى ونبذ مما وقع، أو يكون لابتداء الغاية، بمعنى هذا إنذار من المنذرين المتقدمين، يقال: هذا الكتاب، وهذا الكلام من فلان وعلى الأقوال كلها ليس ذكر الأولى لبيان الموصوف بالوصف وتمييزه عن النذر الآخرة كما يقال: الفرقة الأولى احترازًا عن الفرقة الأخيرة، وإنما هو لبيان الوصف للموصوف، كما يقال: زيد العالم جاءني فيذكر العالم، إما لبيان أن زيدًا عالم غير أنك لا تذكره بلفظ الخبر فتأتي به على طريقة الوصف، وإما لمدح زيد به، وإما لأمر آخر، والأولى على العود إلى لفظ الجمع وهو النذر ولو كان لمعنى الجمع لقال: من النذر الأولين يقال من الأقوام المتقدمة والمتقدمين على اللفظ والمعنى.

قوله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] ويقال: كانت الكائنة. وهذا الاستعمال يقع على وجوه منها ما إذا كان الفاعل صار فاعلاً لمثل ذلك الفعل من قبل، ثم صدر منه مرة أخرى مثل الفعل، فيقال: فعل الفاعل أي الذي كان فاعلاً صار فاعلاً مرة أخرى، يقال: حاكه الحائك أي من شغله ذلك من قبل فعله، ومنها ما يصير الفاعل فاعلاً بذلك الفعل، ومنه يقال: (إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ) وإذا غصب العين غاصب ضمنه، فقوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾

يحتمل أن يكون من القبيل الأول أي قربت الساعة التي كل يوم يزداد قربها فهي كائنة قريبة وازدادت في القرب، ويحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي قرب وقوعها وأزفت فاعلها في الحقيقة القيامة أو الساعة، فكأنه قال: أزفت القيامة الآزفة أو الساعة أو مثلها.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ **فيه وجوه:**

أحدها: لا مظهر لها إلا الله فمن يعلمها لا يعلم إلا بإعلام الله تعالى إياه وإظهاره إياها له، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ثانيها: لا يأتي بها إلا الله، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]. **وفيه مسائل:**

الأولى: ﴿مِن﴾ زائدة تقديره ليس لها غير الله كاشفة، وهي تدخل على النفي فتؤكد معناه، تقول: ما جاءني أحد وما جاءني من أحد، وعلى هذا يحتمل أن يكون فيه تقديم وتأخير، تقديره ليس لها من كاشفة دون الله، فيكون نفيًا عامًا بالنسبة إلى الكواشف، ويحتمل أن يقال: ليست بزائدة بل معنى الكلام أنه ليس في الوجود نفس تكتشفها أي تخبر عنها كما هي ومتى وقتها من غير الله تعالى يعني من يكشفها فإنما يكشفها من الله لا من غير الله يقال: كشف الأمر من زيد، ودون يكون بمعنى غير كما في قوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] أي غير الله.

المسألة الثانية: كاشفة صفة لمؤنث أي نفس كاشفة، وقيل هي للمبالغة كما في العلامة وعلى هذا لا يقال بأنه نفى أن يكون لها كاشفة بصيغة المبالغة ولا يلزم من الكاشف الفائق نفي نفس الكاشف، لأنا نقول: لو كشفها أحد لكان كاشفًا بالوجه الكامل، فلا كاشف لها ولا يكشفها أحد وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] من حيث نفى كونه ظالمًا مبالغًا، ولا يلزم منه نفي كونه ظالمًا، وقلنا هناك: إنه لو ظلم عبيده الضعفاء بغير حق لكان في غاية الظلم وليس في غاية الظلم فلا يظلمهم أصلاً.

المسألة الثالثة: إذا قلت: إن معناه ليس لها نفس كاشفة، فقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استثناء على الأشهر من الأقوال، فيكون الله تعالى نفسًا لها كاشفة؟ نقول: الجواب عنه من وجوه الأول: لا فساد في ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] حكاية عن عيسى عليه السلام والمعنى الحقيقة. الثاني: ليس هو صريح الاستثناء فيجوز فيه أن لا يكون نفسًا الثالث: الاستثناء الكاشف المبالغ.

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝٦٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ قيل: من القرآن، ويحتمل أن يقال: هذا إشارة إلى

حديث: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] فإنهم كانوا يتعجبون من حشر الأجساد وجمع العظام بعد الفساد.

وقوله تعالى: ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ يحتمل أن يكون المعنى وتضحكون من هذا الحديث، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧] في حق موسى عليه السلام، وكانوا هم أيضًا يضحكون من حديث النبي والقرآن، ويحتمل أن يكون إنكارًا على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة، أي أتضحكون وقد سمعتم أن القيامة قربت، فكان حقًا أن لا تضحكوا حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي كان حقًا لكم أن تبكوا منه فتتركون ذلك وتأتون بضده.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي غافلون، وذكر باسم الفاعل، لأن الغفلة دائمة، وأما الضحك والعجب فهما أمران يتجددان ويعدمان.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ يحتمل أن يكون الأمر عامًا، ويحتمل أن يكون التفاتًا، فيكون كأنه قال: أيها المؤمنون اسجدوا شكرًا على الهداية واشتغلوا بالعبادة، ولم يقل: اعبدوا الله إما لكونه معلومًا، وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله، فقال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾ أي ائتوا بالمأمور، ولا تعبدوا غير الله، لأنها ليست بعبادة، وهذا يناسب السجدة عند قراءته مناسبة أشد وأتم مما إذا حملناه على العموم.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة «والنَّجْم»

مكِّيّة، وهي إحدى وستون آية

مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾[(١)] الآية [٣٢]. وقيل: اثنتان وستون آية[(٢)]. وقيل: إنَّ السورة كلَّها مدنيَّةٌ. والصحيح أنَّها مكيَّة؛ لما روى ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: هي أوَّل سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكَّة[(٣)]. وفي «البخاري»[(٤)] عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ سجد بالنَّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس. وعن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ سورةَ النجم فسجد لها، فما بقي أحدٌ من القوم إلا سجد، فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بَعْدُ قُتِل كافراً. متفق عليه[(٥)]. الرجل يقال له: أميَّة بن خَلَف[(٦)]. وفي «الصحيحين» عن زيد بن ثابت ﷺ أنَّه قرأ على النبيِّ ﷺ سورةَ «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوى» فلم يسجد. وقد مضى في آخر «الأعراف»[(٧)] القول في هذا، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩ .

(٢) الوسيط ٤/ ١٩٢ .

(٣) أخرجه عنه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٢١ ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٦٢ ، وعزاه لمقاتل.

(٤) في صحيحه (١٠٧١).

(٥) البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦)، وهو عند أحمد (٣٦٨٢).

(٦) كذا صرَّح به بعض رواة الحديث كما في البخاري (٤٨٦٣)، وقيل هو: الوليد بن المغيرة. وقيل هو: سعيد بن العاص بن أمية. فتح الباري ٨/ ٦١٥ .

(٧) ٩/ ٤٣٦ ، والحديث عند البخاري (١٠٧٢)، ومسلم (٥٧٧)، وأحمد (٢١٥٩١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معنى «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى»: والثُّرَيَّا إذَا سقطت مع الفجر(١). والعرب تسمي الثُّرَيَّا نجماً(٢) وإن كانت في العدد نجوماً، يقال: إنَّها سبعةُ أنجم، ستَّة منها ظاهرةٌ، وواحدٌ خَفِيٌّ يَمتحِن الناسُ به أبصارَهم(٣).

وفي «الشِّفا»(٤) للقاضي عياض: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يرى في الثُّريا أَحَدَ عشَر نجماً. وعن مجاهد أيضاً أنَّ المعنى: والقرآنِ إذا نزل؛ لأنه كان يَنزِل نجوماً. وقاله الفراء(٥).

وعنه أيضاً: يعني نجومَ السماء كلّها حين تَغرُب(٦). وهو قول الحسن(٧) قال: أَقسم اللهُ بالنجوم إذا غابت. وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جَمْع، كقول الراعي:

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥ ، وابن أبي حاتم ١٠/٣٣١٨ (١٨٦٩٣)، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٠ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٧ .

(٣) زاد المسير ٨/ ٦٢ .

(٤) ١/ ١٦٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٩٤ ، وأخرجه عن مجاهد الطبريُّ ٢٢/ ٦ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩ .

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرةٍ سَرِيعٍ بِأيدي الآكِلِينَ جُمُودُها[١]

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَحْسَنُ النَّجْمِ في السماءِ الثُّرَيَّا وَالثُّرَيَّا في الأرضِ زَيْنُ النِّساءِ[٢]

وقال الحسن أيضاً: المراد بالنجم النجوم إذا سقطَت يومَ القيامة. وقال السُّدِّيُّ: إنَّ النجم ههنا الزُّهرةُ؛ لأنَّ قوماً من العرب كانوا يعبدونها.

وقيل: المراد به النجوم التي تُرجَم بها الشياطين، وسببه أنَّ الله تعالى لما أرَاد بعثة محمَّد ﷺ رسولاً كَثُرَ انقضاض الكواكب قبل مولده، فذُعر أكثرُ العرب منها، وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريراً، كان يُخبِرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال: انظروا البروج الاثني عشَر، فإن انقضَّ منها شيءٌ فهو ذهاب الدنيا، فإن لم ينقضَّ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمرٌ عظيم، فاستشعروا ذلك، فلما بُعِث رسولُ الله ﷺ كان هو الأمرَ العظيمَ الذي استشعروه، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ أي: ذلك النجم الذي هوى هو لهذه النبوَّة التي حدثت[٣]. وقيل: النجم هنا هو النبت الذي ليس له ساق[٤].

و﴿هَوَى﴾ أي: سقط على الأرض[٥]. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ يعني محمَّداً ﷺ، ﴿إِذَا هَوَى﴾ إذا نزل من السماء ليلةَ المعراج[٦]. وعن عروة

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٣٥، والبيت للراعي النميري عبيد بن حصين، وهو في ديوانه ص٩٢. قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٦٩ بعد أن أورد البيت: يصف قدراً كثيرة الدسم، ومعنى: تعدُّ النجم. أي: من صفاء دسمها ترى النجوم فيه، والمستحيرة: القدر، فقال: يجمد على الأيدي الدسم من كثرته.

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في النكت والعيون ٥/ ٣٨٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤ وعزاه إلى الأخفش.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٧.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٤-٢٤٥.

ابنِ الزبير رضي الله عنهما أنَّ عُتَيْبَةَ[(١)] بنَ أبي لهبٍ وكان تحته بنتُ رسولِ الله ﷺ أراد الخروجَ إلى الشام فقال: لآتينَّ محمَّداً فلأُوذِينَّه، فأتاه فقال: يا محمَّد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلَّى. ثم تَفَلَ في وجه رسول الله ﷺ، وردَّ عليه ابنتَه وطَلَّقها، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهمَّ سَلِّط عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضراً فوجَم لها وقال: ما كان أغناكَ يا بنَ أخي عن هذه الدعوة، فرجع عتيبةُ إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهبٌ من الدَّيْر فقال لهم: إنَّ هذه أرضٌ مُسْبِعةٌ. فقال أبو لهب لأصحابه: أَغيثونا يا معشرَ قريش هذه الليلة! فإنِّي أخاف على ابني من دعوة محمَّد. فجمعوا جِمالهم وأنَاخوها حولهم، وأحدقوا بعتيبة، فجاء الأَسَدُ يَتَشمَّم وجوهَهم حتى ضرب عُتيبةَ فقتله، وقال حسان:

مَنْ يَرْجِعِ العامَ إلى أَهْلِهِ ... فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ[(٢)]

وأصل النَّجْم: الطلوع، يقال: نَجَم السنُّ، ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا، أي: خرج على السلطان.

والهُوِيُّ: النزول والسقوط، يقال: هَوَى يَهْوِي هُوِيّاً، مثل مَضَى يَمْضِي مُضِيّاً[(٣)]، قال زهير:

---

(١) في النسخ: عتبة. وكذا في المواضع الآتية، والتصويب من تصحيفات المحدثين للعسكري ٢/ ٧٠٨، والروض الأُنف للسهيلي ٣/ ٦٨، وبعض مصادر التخريج.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٧-٢٨، والحديث أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٣٨١) عن محمد بن كعب القرظي، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن رجال من أهل بيته، والدولابي في الذرية الطاهرة (٧٤) عن محمد ابن كعب القرظي وعثمان بن عروة بن الزبير بنحوه، مع ذكر قصيدة مطولة لحسان وفيها البيت الآنف الذكر، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٩ من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه قال: كان لهب بن أبي لهب يسبُّ النبي ﷺ .. فذكره بنحوه مختصراً، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أيضاً ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٢٠٧، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣٨٠)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٨/ ٣٠٢ من طريق عروة بن الزبير، عن هبار بن أسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة بن أبي لهب تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه... الخبر بنحوه دون ذكر البيت.

(٣) الصحاح (نجم) و (هوي) بنحوه.

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ وَهْيَ تَهْوي هُوِيَّ الدَّلْوِ أسْلَمَها الرِّشَاءُ[(١)]

وقال آخر:

بَيْنَما نَحْنُ بالبَلَاكِثِ فالْقَا عِ سِرَاعاً والعِيسُ تَهْوِي هُوِيّا

خَطَرتْ خَطْرَةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ ـرَاكِ وَهْناً فما استطعْتُ مُضيّاً[(٢)]

الأصمعي: هَوَى ـ بالفتح ـ يَهْوِي هَوِيّاً، أي: سقط إلى أسفل. قال: وكذلك انهوى في السير إذا مضى فيه، وهَوَى وانْهَوى فيه لغتان بمعنًى، وقد جمعهما الشاعر في قوله:

وكَمْ مَنْزِلٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى بأجرامِهِ مَنْ قُلَّةِ النِّيقِ منْهَوِي[(٣)]

ويقال في الحُبِّ: هَوِيَ ـ بالكسر ـ يَهْوَى هَوًى، أي: أحبَّ.

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُرْ﴾ هذا جواب القَسَم، أي: ما ضلَّ محمَّد ﷺ عن الحقِّ وما حادَ عنه[(٤)]. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الغيُّ: ضدُّ الرشد، أي: ما صار غاوياً[(٥)]. وقيل: أي: ما تكلَّم بالباطل[(٦)]. وقيل: أي: ما خاب مما طلب، والغَيُّ: الخيبة، قال الشاعر:

فمن يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائِمَا[(٧)]

---

(١) شرح ديوان زهير ص٦٧ ، وفيه: شجَّ: علا. بها: بالأُتُن، والأماعز: المكان الغليظ الكثير الحصى. فشبَّه هُويَّ الحبل إذا انقطع بهُويِّ الأُتُن.

(٢) القائل مجنون ليلى قيس بن الملوَّح، والبيتان في ديوانه ص٢٩١ ، والبلاكث والقاع: موضعان من المدينة. معجم البلدان ١/ ٤٧٨ و ٤/ ٢٩٨ ونسب البيتين فيه إلى كُثيِّر.

(٣) الصحاح (هوي) وما بعده منه، والبيت ليزيد بن الحكم، وهو في الكامل ٣/ ١٢٧٧ ، وعيون الأخبار ٣/ ٨٣ ، وقُلَّة كل شيء: أعلاه. والنِّيق: أرفع موضع في الجبل. لسان العرب (قلل) و (نوق).

(٤) الوسيط ٤/ ١٩٢-١٩٣ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٨ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٩٠ ،وما بعده منه، والبيت للمرقِّش، وسلف ١٣/ ٤٧٧ .

أي: مَن خاب في طلبه لامه الناس.

ثم يجوز أن يكون هذا إخباراً عما بعد الوحي. ويجوز أن يكون إخباراً عن أحواله على التعميم، أي: كان أبداً موحِّداً لله. وهو الصحيح على ما بيَّنَّاه في «الشورى»[١] عند قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الآية: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾:

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ قال قتادة: وما ينطق بالقرآن عن هواه، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ إليه[٢]. وقيل: «عَنِ الْهَوَى» أي: بالهوى، قاله أبو عبيدة[٣] كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥] أي: فاسأل عنه. النحَّاس[٤]: قول قتادة أولى، وتكون «عن» على بابِها، أي: ما يخرج نُطْقه عن رأيه، إنَّما هو بوحْي من الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ بعده: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى».

الثانية: قد يحتجُّ بهذه الآية من لا يجوِّز لرسول الله ﷺ الاجتهادَ في الحوادث[٥]. وفيها أيضاً دلالة على أنَّ السُّنَّةَ كالوحي المنزل في العمل. وقد تقدَّم في مقدِّمة الكتاب[٦] حديث المِقدام بن معدي كرب في ذلك، والحمد لله.

قال السجستانيُّ: إن شئتَ أبدلتَ «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» مِن «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ». قال ابن الأنباري[٧]: وهذا غَلَط؛ لأنَّ «إِنْ» الخفيفة لا تكون مبدلة من «ما»، الدليل على هذا أنَّك لا تقول: واللهِ ما قمتُ، إِنْ أنا لقاعد.

---

(١) ١٨/٥٠٩ - ٥١٠.

(٢) أخرجه عنه الطبري ٢٢/٨.

(٣) في مجاز القرآن له ٢/٢٣٦.

(٤) في معاني القرآن له ٤/٢٦٥ بنحوه.

(٥) أحكام القرآن للهراسي ٤/٣٩٣.

(٦) ١/٦٥.

(٧) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩١٠، وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني: جبريل عليه السلام، في قول سائر المفسرين[١] سوى الحسن، فإنَّه قال: هو الله عزَّ وجلَّ[٢]. ويكون قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ على قول الحسن تمام الكلام، ومعناه: ذو قوَّة، والقوَّة من صفات الله تعالى، وأصله من شدَّة فَتْل الحبل[٣]، كأنَّه استمرَّ به الفَتْل حتى بلغ إلى غاية يَصعُب معها الحَلُّ.

ثم قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ يعني: الله عزَّ وجلَّ، أي: استوى على العرش. روي معناه عن الحسن[٤]. وقال الربيع بن أنس والفرَّاء: ﴿فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: استوى جبريل ومحمَّد عليهما الصلاة والسلام[٥]. وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ« هو ». وأكثر العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أَظهروا كنايةَ المعطوف عليه، فيقولون: استوى هو وفلان، وقلَّما يقولون: استوى وفلان[٦]. وأنشد الفرَّاء:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـنَّـبْـعَ يَـصـلُـبُ عُـودُهُ   ولا يَسْتوِي والخِرْوَعُ المتقصِّفُ[٧]

أي: لا يستوي هو والخِرْوَع، ونظير هذا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ [النمل: ٦٧] والمعنى: أئذا كنَّا تراباً نحن وآباؤنا. ومعنى الآية: استوى جبريل هو ومحمَّد عليهما السلام ليلةَ الإسراء بالأُفُق الأعلى.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٦-١٩٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧ .

(٥) أخرجه عن الربيع الطبري ٢٢/ ١١ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٥ .

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ١١-١٢ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٥ ، والبيت لجرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٩٣٢ ، والنبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي. والخروع: كل نبات قصيف ريان من شجر أو عنب. لسان العرب (نبع) و(خرع). ووقع عند الفراء: يخلق، بدل: يصلب.

وأجاز[١] العطف على الضمير؛ لئلا يتكرَّر. وأنكر ذلك الزَّجَّاج[٢] إلا في ضرورة الشعر، وقيل: المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى، وهو أجود. وإذا كان المستوي جبريل فمعنى «ذُو مِرَّةٍ» في وَصْفه: ذو منطق حسَن، قاله ابن عباس. وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حَسن[٣].

وقيل: معناه: ذو صحَّة جسم، وسلامة من الآفات، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[٤]. وقال امرؤ القيس:

كنتُ فيهم أبداً ذا حيلة مُحْكَمَ المِرَّة مأمُونَ الْعُقَد[٥]

وقد قيل: «ذُو مِرَّةٍ»: ذو قوَّة. قال الكلبيُّ: وكان من شدَّة جبريل عليه السلام: أنَّه اقتلعَ مدائنَ قومِ لوطٍ من الأرض السفلى، فحملها على جناحه حتى رفعَها إلى السماء، حتى سمع أهلُ السماء نَبْحَ كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قَلَبَها. وكان من شدَّته أيضاً: أنَّه أبصر إبليسَ يكلِّم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدَّسة، فنفحه بجناحه نفحةً ألقاه بأقصى جبل في الهند. وكان من شدَّته: صيحته بثمود في عددهم وكثرته، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدَّته: هبوطه من السماء على الأنبياء وصعودهُ إليها في أسرع من الطَّرْف[٦].

وقال قُطْرُب: تقول العرب لكل جَزل الرأي حصيف العقل: ذُو مِرَّةٍ. قال الشاعر:

---

(١) أي: الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٥.

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٧٠ وما بعده منه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ١٠.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ١١، والحديث سلف ١٠/ ٢٥٣.

(٥) كذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩١، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٢١٩ إلا أن صدره هكذا:

ولبيبٌ أيِّد ذو حيلة

قال شارحه: الأيِّد: الشديد. ومأمون العُقَد: يؤمن انحلالها.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٨ دون عزو، وخبر تعذيب قوم لوط في عرائس المجالس ص١٠٧.

قَـد كُـنـتُ قَـبـلَ لِـقـائِـكُـمْ ذا مِـرَّةٍ عِـنـدي لِـكـلِّ مُـخـاصِـمٍ مِـيـزانُـهُ[(١)]

وكان من جزالة رأيه وحصَافة عقله: أنَّ الله ائتمنه على وَحْيه إلى جميع رسله.

قال الجوهريُّ[(٢)]: والمِرَّة: إحدى الطبائع الأربع، والمِرَّة: القوَّة، وشدَّة العقل أيضاً. ورجل مرير: أي: قويُّ ذو مِرةٍ. قال:

تَـرى الـرَّجُـل الـنَّـحـيـفَ فـتـزدريـه وحَـشْـوُ ثِـيـابِـه أسـدٌ مَـرِيـرُ[(٣)]

وقال لَقِيط:

حـتـى اسـتـمرَّت عـلـى شَـزْرٍ مَـرِيـرتُـه مُـرُّ الـعـزِيـمـةِ لا رَتّـاً ولا ضَـرَعَـا[(٤)]

وقال مجاهد وقتادة: «ذُو مِرَّةٍ»: ذو قوَّة، ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة:

إنِّـي امـرؤٌ ذو مِـرَّةٍ فـاسـتـبـقِـنـي فِـيما يَـنُـوبُ مِـن الـخُـطُـوبِ صَـلِـيبُ[(٥)]

فالقوَّة تكون من صفة الله عزَّ وجلَّ، ومن صفة المخلوق.

«فاستوى» يعني: جبريل على ما بيَّنَّا، أي: ارتفع وعلا إلى مكانه في السماء بعد أن علَّم محمَّداً ﷺ، قاله سعيد بن المسيِّب وابن جبير[(٦)].

وقيل: «فَاسْتَوَى» أي: قام في صورته التي خَلَقه الله تعالى عليها؛ لأنه كان يأتي

---

(١) سلف ١٢/ ١٩١ .

(٢) في الصحاح (مرر).

(٣) القائل العباس بن مرداس، وهو في الحماسة البصرية ٢/ ٧ ، ورواية عجزه هكذا:

وفــي أثــوابــه أســد مــزيــر

والمزير: الشديد القلب القوي. اللسان (مزر).

(٤) الكامل ٢/ ٦٨٢ ، والرتُّ: الرئيس من الرجال في الشرف والعطاء. والضَّرَع: الصغير السنّ الضعيف. اللسان (رتت) و(ضرع).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٩١ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٠ . والبيت في الأصمعيات ص٢٧ ، وورد فيه هكذا:

فـتـعـلَّـمـي أنـي امـرؤ ذو مـرَّة فـيـمـا ألـمَّ مـن الـخـطـوب صـلـيبُ

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ وعزاه إلى ابن جبير.

إلى النبيِّ ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله النبيُّ ﷺ أن يُرِيَه نفسَه التي جَبَله الله عليها، فأراه نفسه مرَّتين، مرَّة في الأرض، ومرَّة في السماء، فأما في الأرض ففي الأفُق الأعلى، وكان النبيُّ ﷺ بحراء، فطلع له جبريل من المشرق فسدَّ الأرض إلى المغرب، فخرَّ النبيُّ ﷺ مغشياً عليه، فنزل إليه في صورة الآدميين وضمَّه إلى صدره، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، فلما أفاق النبيُّ ﷺ قال: «يا جبريل ما ظننتُ أنَّ الله خلَق أحداً على مثل هذه الصورة». فقال: يا محمَّد إنَّما نَشرتُ جناحَيْن من أَجنحتي، وإنَّ لي ستَّ مئة جناح، سَعة كلِّ جناح ما بين المشرق والمغرب. فقال: «إنَّ هذا لعظيم» فقال: وما أنا في جَنْب ما خلقَه الله إلا يسيراً، ولقد خلَق الله إسرافيلَ له ستُّ مئة جناح، كلُّ جناح منها قَدْر جميع أجنحتي، وإنَّه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يكون بقَدْر الوصَع. يعني: العصفور الصغير، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وأما في السماء فعند سِدرة المنتهى، ولم يَرَهُ أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمَّداً ﷺ[(١)].

وقول ثالث أنَّ معنى «فَاسْتَوَى»: أي: استوى القرآن في صدره. وفيه على هذا وجهان: أحدهما في صدر جبريل حين نزل به عليه. الثاني: في صدر محمَّد ﷺ حين نزل عليه. وقول رابع أنَّ معنى «فَاسْتَوَى»: فاعتدل، يعني: محمَّداً ﷺ. وفيه على هذا وجهان: أحدهما: فاعتدل في قوَّته. الثاني: في رسالته. ذكرهما الماورديُّ[(٢)].

قلت: وعلى الأوَّل يكون تمام الكلام «ذُو مِرَّةٍ»، وعلى الثاني «شَدِيدُ الْقُوَى».

وقول خامس أنَّ معناه: فارتفع. وفيه على هذا وجهان: أحدهما: أنَّه جبريل عليه

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٥ دون قوله: فلما أفاق النبي ﷺ... إلى قوله: يعني العصفور الصغير. حيث أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٢١) عن ابن شهاب مرسلاً بنحوه.

ورؤية النبي ﷺ جبريلَ مرتين أخرجها البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) عن عائشة رضي الله عنها.

وقول جبريل: إن لي ست مئة جناح. أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ .

السلام ارتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفاً. الثاني: أنَّه النبيُّ ﷺ ارتفع بالمعراج[(١)]. وقول سادس: «فَاسْتَوَى»: يعني الله عزَّ وجلَّ، أي: استوى على العرش، على قول الحسن[(٢)]. وقد مضى القول فيه في «الأعراف»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ جملة في موضع الحال، والمعنى: فاستوى عالياً[(٤)]، أي: استوى جبريل عالياً على صورته، ولم يكن النبيُّ ﷺ قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إيَّاها على ما ذكرنا.

والأُفُق: ناحية السماء، وجمعه: آفاق[(٥)]. وقال قتادة: هو الموضع الذي تأتي منه الشمس[(٦)]. وكذا قال سفيان: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس، ونحوه عن مجاهد. ويقال: أُفْق وأُفُق، مثل عُسْر وعُسُر. وقد مضى في «حم السجدة»[(٧)]. وفرس أُفُق ـ بالضمِّ ـ أي: رائع، وكذلك الأنثى، قال الشاعر:

أرجِّلُ لِمَّتي وَأَجُرُّ ذَيْلي وتَحمِلُ شِكَّتي أُفُقٌ كُمَيْتُ[(٨)]

وقيل: «وَهُوَ» أي: النبيُّ ﷺ «بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى» يعني: ليلةَ الإسراء، وهذا ضعيف، لأنَّه يقال: استوى هو وفلان، ولا يقال: استوى وفلان، إلا في ضرورة الشعر.

والصحيح استوى جبريلُ عليه السلام، وجبريلُ بالأُفق الأعلى على صورته الأصليَّة؛ لأنَّه كان يتمثَّل للنبيِّ ﷺ إذا نزل بالوحي في صورة رجل، فأحبَّ النبيُّ ﷺ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٧ .

(٣) ٩/ ٢٣٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٦ .

(٥) الصحاح (أفق).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٢ عن قتادة ومجاهد، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٣ عن قتادة بنحوه.

(٧) عند الآية (٥٣).

(٨) الصحاح (أفق)، والبيت لعمرو بن قعاس بن عبد يغوث المرادي، وهو في منتهى الطلب لابن ميمون ٨/ ٢٤٥ ، وفيه: ذمَّتي، بدل: لمَّتي، واللِّمَّة: شعر الرأس إذا كان فوق الوفرة. والشِّكَّة: السلاح. لسان العرب (لمم) و (شكك).

أن يراه على صورته الحقيقيَّة، فاستوى في أفق المشرق، فملأ الأُفق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: دنا جبريلُ بعد استوائه بالأُفق الأعلى من الأرض «فَتَدَلَّى» فنزل على النبيِّ ﷺ بالوحي[١]. المعنى: أنَّه لما رأى النبيُّ ﷺ من عظمته ما رأى، وهالَه ذلك، ردَّه الله إلى صورة آدميٍّ حين قَرُبَ من النبيِّ ﷺ بالوحي، وذلك قوله تعالى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ» يعني أوحى الله إلى جبريلَ، وكان جبريل «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قاله ابن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم[٢]. وعن ابن عباس أيضاً في قوله تعالى: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» أنَّ معناه: أنَّ الله تبارك وتعالى «دَنَا» من محمَّد ﷺ «فَتَدَلَّى»[٣]. وروى نحوه أنس بن مالك عن النبيِّ ﷺ[٤]. والمعنى: دنا منه أَمْرُه وحُكْمه[٥]. وأصل التدلِّي: النزول إلى الشيء حتى يَقرُب منه، فوضِعَ موضعَ القُرب، قال لبيد:

فَتَدَلَّيْتُ عليه قافِلاً وعلى الأرض غَيَابَات الطَّفَل[٦]

وذهب الفرَّاء[٧] إلى أنَ الفاء في «فَتَدَلَّى» بمعنى الواو، والتقدير: ثم تدلَّى جبريل عليه السلام ودنا. ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً، أو كالواحد، قدَّمت أيَّهما شئت، فقلت: فدنا فقرب وقرب فدنا، وشتمني فأساء وأساء فشتمني؛ لأنَّ

(١) الوسيط ٤/ ١٩٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦ عن ابن عباس والحسن وقتادة، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٠ ، ومن طريقه أبو الشيخ في العظمة (٣٦٩)، والطبري ٢٢/ ١٤ عن الحسن وقتادة، والطبري ٢٢/ ١٤ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨) عن الربيع.

(٣) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤ ، والطبراني في الكبير (١١٣٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، وينظر كلام ابن حجر حول الحديث في فتح الباري ١٣/ ٤٨٣ وما بعدها.

(٥) الشفا ١/ ٣٩٤ .

(٦) شرح ديوان لبيد ص١٨٩ ، قال شارحه: الغيابة: ظل الشمس، أو كل شيء أظل الإنسان. والطَّفَل: حين تهمُّ الشمس بالوجوب وتدنو للغروب.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٩٥-٩٦ .

الشتم والإساءة شيء واحد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] المعنى ـ والله أعلم ـ: انشقَّ القمر واقتربت الساعة.

وقال الجرجانيُّ: في الكلام تقديم وتأخير، أي: تدَّلى فدنا؛ لأنَّ التدلِّي سبب الدنوِّ.

وقال ابنُ الأنباري: ثم تدلَّى جبريلُ، أي: نزل من السماء فدنا من محمَّد ﷺ[١].

وقال ابن عباس: تدلَّى الرفرفُ لمحمَّد ﷺ ليلةَ المعراج، فجلس عليه، ثم رُفع فدنا من ربِّه[٢]، وسيأتي.

ومن قال: المعنى: فاستوى جبريلُ ومحمَّد بالأُفق الأعلى، قد يقول: ثم دنا محمَّد من ربِّه دنوَّ كرامةٍ، فتدلَّى، أي: هَوَى للسجود. وهذا قول الضحاك. قال القشيريُّ: وقيل على هذا تدلَّى، أي: تَدلَّلَ، كقولك: تَظَنَّى، بمعنى تَظَنَّنَ. وهذا بعيد؛ لأنَّ الدَّلال غيرُ مرضيٍّ في صفة العبودية.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: كان محمَّد من ربِّه أو من جبريل «قَابَ قَوْسَيْنِ» أي: قَدْرَ قوسين عربيَّتين[٣]. قاله ابن عباس وعطاء[٤] والفرَّاء[٥]. الزمخشريُّ[٦]: فإن قلتَ: كيف تقدير قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ»؟ قلت: تقديره:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩٣.

(٢) الشفا ١/ ٣٩٤، والرفرف: البساط. النهاية ٢/ ٢٤٣.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٨.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٩٥.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٩، والبيت الآتي نسب للأسود بن يعفر، وهو في شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٣١. وللكلحبة هبيرة بن عبد مناف العُرَني، وهو في المفضليات ص٣٢، ورواية صدره:

فأدرك إبقاء العرادة ظَلْعها

قال محققه: المبقية من الخيل: التي تبقي بعض جريها تدخره. الظلع: العرج والغمز في المشي. يقول: إن شرب العرادة أضعف جريها، فغلب ظلعها إبقاءها، ففاتها حزيمة وهو قيد إصبع منها.

فكان مقدارُ مسافة قُربه مثلَ قاب قوسين، فحذفت هذه المضافات، كما قال أبو عليٍّ في قوله:

وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِن خَزِيمَةَ إِصْبَعَا

أي: ذا مقدار مسافة إصبع. «أَوْ أَدْنَى» أي: على تقديركم، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. وفي «الصحاح»[١]: وتقول: بينهما قابُ قَوْس، وقِيبُ قَوْس، وقادُ قَوْس، وقِيدُ قَوْس، أي: قَدْر قَوْسٍ.

وقرأ زيد بن علي: «قَادَ»، وقرئ: «قِيدَ» و «قَدْرَ». ذكره الزمخشريُّ[٢].

والقابُ: ما بين المَقْبِض والسِّيَة. ولكلِّ قوس قابان. وقال بعضهم في قوله تعالى: «قَابَ قَوْسَيْنِ»: أراد قابي قوس، فقلبه[٣]. وفي الحديث: «ولَقاب قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِدِّه خيرٌ من الدنيا وما فيها» والقِدُّ: السَّوط[٤]. و في «الصحيح» عن أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «ولَقابُ قوسِ أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»[٥]. وإنَّما ضُرب المثل بالقوس؛ لأنَّها لا تختلف في القاب. والله أعلم.

قال القاضي عِياض[٦]: اعلم أنَّ ما وقعَ من إضافة الدنوِّ والقُرب من الله، أو إلى الله، فليس بدنوِّ مكانٍ، ولا قُرب مَدًى، وإنَّما دنوُّ النبيِّ ﷺ من ربِّه وقُرْبه منه، إبانةُ عظيمِ منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفتهِ، ومشاهدة أسرار غيبه وقُدْرته. ومِنَ الله تعالى له: مبرَّةٌ وتأنيس وبَسْط وإكرام.

---

(١) مادة (قوب).

(٢) في الكشاف ٤/ ٢٨ .

(٣) الصحاح (قوب)، والسِّيَة: ما عطف من طرفي القوس. الصحاح (سيا).

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٨ ، والكشاف ٤/ ٢٨ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٠٢٧٠)، وهو عند البخاري (٢٧٩٣) بلفظ: لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب.

(٦) في الشفا ١/ ٣٩٦-٣٩٧ ، وفيه: وشريف، بدل: وتشريف.

ويتأوَّل فيه ما يتأوَّل في قوله عليه السلام: «يَنزِل ربُّنا إلى سماء الدنيا»[١] على أحد الوجوه: نزول إجمال وقبولُ إحسان.[٢] قال القاضي: وقوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» فمن جعَل الضميرَ عائداً إلى الله تعالى لا إلى جبريل، كان عبارة عن نهاية القُرب، ولطف المحلِّ، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمَّد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفِّي، وإنافة المنزلة والقُرب من الله، ويتأوَّل فيه ما يتأوَّل في قوله عليه السلام: «مَن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت منه ذراعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً» قربٌ بالإجابة والقَبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول[٣].

وقد قيل: «ثُمَّ دَنَا» جبريل من ربِّه «فَكَان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قاله مجاهد[٤]. ويدلُّ عليه ما رُويَ في الحديث: «إنَّ أقربَ الملائكة من الله جبريلُ عليه السلام»[٥].

وقيل: «أو» بمعنى الواو، أي: قاب قوسين وأدنى. وقيل: بمعنى «بل»، أي: بل أدنى[٦].

وقال سعيد بن المسيّب: القاب: صدر القوس العربية حيث يشدُّ عليه السير الذي يتنكَّبه صاحبه، ولكلِّ قوس قاب واحد. فأخبر أنَّ جبريل قَرُبَ من محمَّد ﷺ كقُرب قاب قوسين.

وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهَمْداني وأبو وائل شقيق بن سلمة: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ» أي: قدر ذراعين، والقوس: الذراع يُقاس بها كلُّ شيء[٧]، وهي

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، وهو عند أحمد (٧٥٩٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الصواب إثبات صفة الدنو والقرب والنزول لله تعالى بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(٣) الشفا ١/ ٣٩٦-٣٩٧، والحديث سلف ٧/ ٢٩٠.

(٤) في تفسيره ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ١٩ .

(٥) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٧٧)، وفي إسناده الأحوص بن حكيم، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ١/ ٩٩-١٠٠ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٩ ، وينظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤١٤-٤١٥ .

لغةُ بعض الحجازيين[١]. وقيل: هي لغةُ أزد شَنُوءة أيضاً. وقال الكسائيُّ: قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» أراد: قوساً واحداً، كقول الشاعر:

ومَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ قَطَعْتُهُ بالسَّمْتِ لا بالسَّمْتَيْنِ[٢]

أراد: مَهْمَهاً واحداً.

والقوس تذكَّر وتؤنَّث، فمن أنَّث قال في تصغيرها: قويسة، ومن ذكَّر قال: قُوَيس، وفي المثل: هو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْماً. والجمع قِسِيٌّ وقُسِيٌّ وأقواس وقِياس، وأنشد أبو عبيدة:

ووَتَّرَ الأساوِرَ القِياسَا[٣]

والقَوْس أيضاً: بقية التَّمْر في الجُلَّة، أي: الوعاء. والقَوْس: برج في السماء. فأما القُوسُ بالضمِّ: فصومعة الراهب، قال الشاعر وذكر امرأةً:

لا سْتَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحَينِ في القُوسِ[٤]

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ تفخيم للوحي الذي أُوحيَ إليه[٥]. وتقدَّم

(١) المحرر الوجيز ٥/١٩٨ وحكاه عن الثعلبي.

(٢) هكذا ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٨/ ٣٠٢ ولم ينسبه، وفيه: بالأمِّ، بدل: بالسمت. وذكره الزجاجي في الجمل ص٣١٣ ، والجاحظ في البيان والتبيين ١/ ١٥٦ ولم ينسباه، ونسبه ابن السِّيْد البطليوسي في الحلل ص٣٦٤ إلى خطام المجاشعي، وجاءت رواية الرجز في البيان والتبيين هكذا:

ومهمهين قذفين مرتين جبتهما بالنعت لا بالنعتين

ظهراهما مثل ظهور الترسين قطعته بالأمِّ لا بالسمتين

وقول الراجز:

ظهراهما مثل ظهور الترسين

ذكره سيبويه في الكتاب ٢/ ٤٨ ونسبه لخطام، و ٣/ ٦٢٢ ونسبه لهميان بن قحافة. والمهمه: القَفْر المخوف. والقَذَف: ما ارتفع من الأرض. والمرت: التي لا ماء بها ولا نبات فيها. والظهر: ما ارتفع من الأرض، يشبهه بظهر الترس في ارتفاعه. الحلل ص٣٦٥ . والسمت: الطريق. لسان العرب (سمت).

(٣) الصحاح (قوس) وما بعده منه، والمثل في جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٤٢٠ وهو من أرجوزة لخالد ابن معاوية، وقصته ثمة.

(٤) القائل جرير، وهو في ديوانه ١/ ١٢٥ ، وصدره: لا وصل إذا صرمت هند ولو وقفت.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٩ .

معنى الوحي[١]، وهو إلقاء الشيء بسرعة، ومنه: «الوحَى الوحَى». والمعنى: فأوحى الله تعالى إلى عبده محمَّد ﷺ ما أوحى. وقيل: المعنى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ» جبريلَ عليه السلام «مَا أَوْحَى». وقيل: المعنى: فأوحى جبريلُ إلى عبد الله محمَّد ﷺ ما أوحى إليه ربُّه[٢]. قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة[٣]. قال قتادة: أوحى الله إلى جبريل، وأوحى جبريل إلى محمَّد[٤].

ثم قيل: هذا الوحي هل هو مبهم، لا نَطَّلِع عليه نحن وتُعُبِّدْنا بالإيمان به على الجملة، أو هو معلوم مفسَّر؟ قولان، وبالثاني قال سعيد بن جبير، قال: أوحى الله إلى محمَّد: أَلَم أَجِدك يتيماً فآويتك! أَلَم أجِدْك ضالًّا فهديتك! أَلَم أجِدْك عائلاً فأغنيتك! ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٥] [الشرح: ١-٤]. وقيل: أوحى الله إليه أنَّ الجنَّة حرام على الأنبياء حتى تدخلَها يا محمَّد، وعلى الأُمم حتى تدخلها أُمَّتُك[٦].

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي: لم يكذب قلبُ محمَّد ﷺ ليلةَ المعراج، وذلك أنَّ الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربَّه تعالى، وجعل الله

---

(١) ٥/ ١٣١، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٢) زاد المسير ٨/ ٦٧.

(٣) أخرجه عن الربيع: الطبري ٢٢/ ٢١، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٨)، وعن ابن زيد وقتادة: الطبري ٢٢/ ٢١، وعن الحسن: أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣٦٣)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٣.

(٤) الوسيط ٤/ ١٩٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٦ بنحوه.

(٦) لطائف الإشارات ٣/ ٤٨٢.

تلك رؤية. وقيل: كانت رؤية حقيقة بالبصر[١]. والأوَّل مرويٌّ عن ابن عباس[٢]، وفي «صحيح مسلم»[٣] أنَّه رآه بقلبه. وهو قول أبي ذرٍّ وجماعة من الصحابة[٤]. والثاني قول أنس وجماعة[٥]. وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّه قال: أتعجبونَ أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمَّد ﷺ[٦]. وروي عن ابن عباس أيضاً أنَّه قال: أمَّا نحن بني هاشم فنقول: إنَّ محمَّداً رأى ربَّه مرَّتين[٧]. وقد مضى القول في هذا في «الأنعام»[٨] عند قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. وروى محمَّد بن كعب قال: قلنا: يا رسول الله صلى الله عليك، رأيتَ ربَّك؟ قال: «رأيته بفؤادي مرَّتين» ثم قرأ: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»[٩].

وقول ثالث: أنَّه رأى جلالَه وعظمته، قاله الحسن. وروى أبو العالية قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «رأيتُ نهراً، ورأيتُ وراء النهر حجاباً، ورأيت وراءَ الحجاب نوراً، لم أرَ غيرَ ذلك»[١٠]. وفي «صحيح مسلم»[١١] عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ أنَّى أراه» المعنى: غلبني من النور

(١) الوسيط ٤/ ١٩٥ .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨١)، والطبري ٢٢/ ٢٢ . قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) برقم (١٧٦)، وهو عند أحمد (١٩٥٦).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٨ ، وأخرجه عن أبي ذر: النسائي في الكبرى (١١٤٧٢).

(٥) الوسيط ٤/ ١٩٥ ونسبه إلى أنس وعكرمة والحسن.

(٦) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٧٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص١٩٧ ، وصحَّحه ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٠٨ .

(٧) أخرجه الترمذي (٣٢٧٨) بنحوه، وسلف ٨/ ٤٨٤ .

(٨) ٨/ ٤٨٣ .

(٩) النكت والعيون ٥/ ٣٩٤ وما بعده منه، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٩ عن محمد بن كعب القرظي، عن بعض أصحاب النبي ﷺ بنحوه.

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٣٩٤ ، وأخرجه عنهما ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣١٨-٣٣١٩ (١٨٦٩٧) و (١٨٦٩٨).

(١١) برقم (١٧٨).

وبهرني منه ما منعني من رؤيته. ودلَّ على هذا الرواية الأخرى: «رأيت نوراً»[(١)]. وقال ابن مسعود: رأى جبريلَ على صورته مرَّتين[(٢)].

وقرأ هشام عن ابن عامر وأهل الشام: «مَا كَذَّبَ» بالتشديد[(٣)]، أي: ما كذَّب قلبُ محمَّد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدَّقه. فـ «ما» مفعوله بغير حرف مقدَّر؛ لأنه يتعدّى مشدَّداً بغير حرف. ويجوز أن تكون «ما» بمعنى «الذي» والعائد محذوف، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً[(٤)]. الباقون مخففاً، أي: ما كذب فؤادُ محمَّد فيما رأى، فأسقط حرف الصفة. قال حسان ﷺ[(٥)]:

لـو كـنـتِ صـادقـة الـذي حـدَّثـتـنـي   لـنـجـوتِ مَـنْـجَـا الـحـارثِ بـنِ هِـشـامِ

أي: في الذي حدَّثتني. ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً. ويجوز أن يكون بمعنى «الذي»، أي: ما كذب فؤادُ محمَّد ﷺ الذي رأى.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «أَفَتَمْرُونَهُ» بفتح التاء من غير ألف[(٦)] على معنى: أفتجحدونه. واختاره أبو عبيد؛ لأنه قال: لم يُماروه، وإنَّما جحدوه. يقال: مراه حقَّه، أي: جحده[(٧)]، ومريته أنا، قال الشاعر:

لـئِـن هـجـرتَ أخـا صِـدقٍ ومَـكْـرُمَـةٍ   لـقـد مَـرَيْـتَ أخـاً مـا كـان يَـمْـرِيـكَـا[(٨)]

---

(١) مسلم (١٧٨): (٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٦٤)، والطبراني في الكبير (١٠٥٤٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦٦). وفي إسناده: إسحاق بن أبي الكهتلة، ذكره البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٤٠٠-٤٠١ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ٢٣٢ ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات ٤/ ٢٥ .

(٣) السبعة ص٦١٤ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٢-٦٩٣ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٣٩٧ .

(٥) ديوانه ص٤١٩ ، وورد فيه هكذا:

إن كـنـت كـاذبـة الـذي حـدَّثـتـنـي   فـنـجـوت ....

(٦) السبعة ص٦١٤ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٧) الصحاح (مرا).

(٨) الكشاف ٤/ ٢٩ ولم ينسبه.

أي: جحدته. وقال المبرِّد: يقال: مراه عن حقِّه، وعلى حقه: إذا منعَه منه ودفعَه عنه. قال: ومثل «على » بمعنى «عن» قول بني كعب بن ربيعة: رضي الله عليك، أي: رضي عنك[١].

وقرأ الأعرج ومجاهد: «أَفَتَمْرُونَهُ» بضمِّ التاء من غير ألف[٢]، من أمريت، أي: تريبونه وتشكِّكونه. الباقون: «أَفَتُمَارُونَهُ» بألف، أي: أتجادلونه وتدافعونه في أنَّه رأى الله، والمعنيان متداخلان؛ لأنَّ مجادلتهم جحود. وقيل: إنَّ الجحودَ كان دائماً منهم، وهذا جدال جديد، قالوا: صِفْ لنا بيتَ المقدس وأخبِرنا عن عِيرنا التي في طريق الشام[٣]. على ما تقدّم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ «نَزْلَةً»: مصدر في موضع الحال، كأنَّه قال: ولقد رآه نازلاً نزلةً أخرى[٥].

قال ابن عباس: رأى محمَّد ﷺ ربَّه مرَّة أُخرى بقلبه[٦]. روى مسلم[٧] عن أبي العالية عنه قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»، «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» قال: رآه بفؤادِه مرَّتين. فقوله: «نَزْلَةً أُخْرَى» يعود إلى محمَّد ﷺ؛ فإنه كان له صعود ونزول مراراً بحسَب أعداد الصلوات المفروضة، فلكلِّ عَرْجة نَزْلة[٨]. وعلى هذا قوله تعالى: «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى» أي: ومحمَّد ﷺ عند سدرة المنتهى، وفي بعض تلك النزلات.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٩ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٩ ، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٦ وعزاها إلى ابن مسعود والشعبي، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩ وعزاها إلى النخعي.

(٣) الوسيط ٤/ ١٩٧ .

(٤) في سورة الإسراء، عند الآية الأولى.

(٥) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٣ .

(٦) زاد المسير ٨/ ٦٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٢ ، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٩١٠).

(٧) في صحيحه برقم (١٧٦): (٢٨٥).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٧ .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» أنَّه جبريل. ثبت هذا أيضاً في «صحيح مسلم»[١]. وقال ابن مسعود: قال النبيُّ ﷺ: «رأيتُ جبريلَ بالأُفُق الأعلى له ستُّ مئة جناح، يتناثر من ريشه الدُّرُّ والياقوت» ذكره المهدويُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ «عِنْدَ» من صلة «رَآهُ» على ما بيَّنَّا[٣]. والسِّدْر: شجر النَّبِق[٤]، وهي في السماء السادسة، وجاء في السماء السابعة. والحديث بهذا في «صحيح مسلم»؛ الأوّل: ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال: لما أُسرِيَ برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سِدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرَج به من الأرض فيُقبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَط به من فوقِها فيُقبَض منها، قال: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال: فَرَاش من ذهب، قال: فأُعطيَ رسولُ الله ﷺ ثلاثاً: أُعطيَ الصلواتِ الخمسَ، وأُعطيَ خواتيمَ سورة البقرة، وغُفِر لمن لم يُشرِك بالله من أمَّته شيئاً المقحِمَاتُ[٥].

الحديث الثاني: رواه قتادة عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لما رُفِعْتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة، نَبِقها مثلُ قِلال هَجَر، وورقها مثل آذانِ الفِيَلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان، قلتُ: يا جبريل ما هذا؟ قال: أما الباطنان ففي الجنَّة، وأما الظاهران فالنيل والفرات» لفظ الدارقطني[٦].

والنَّبِق، بكسر الباء: ثمر السِّدْر، الواحد: نَبِقة[٧]. ويقال: نَبْق، بفتح النون

---

(١) أثر ابن مسعود أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٧٦)، والطبري ٢٢/ ٣٠، وأبو الشيخ في العظمة (٣٥٠)، وأما أثر أبي هريرة فهو عند مسلم (١٧٥).

(٢) وأخرجه أحمد (٣٩١٥)، والنسائي في الكبرى (١١٤٧٨).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٣.

(٥) مسلم (١٧٣)، والمقحمات: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار. النهاية ٤/ ١٩.

(٦) في سننه (٣٣)، وهو عند البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢)، وأحمد (١٢٥٠٥).

(٧) النهاية ٥/ ١٠.

وسكون الباء، ذكرهما يعقوب في «الإصلاح»[١]، وهي لغة المصريين، والأُولى أَفصح وهي التي ثبتت عن النبيِّ ﷺ.

وروى الترمذي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى ـ قال: «يسير الراكب في ظلِّ الغصن منها مئةَ سنة، أو يستظلُّ بظلِّها مئةُ راكب ـ شكَّ يحيى ـ فيها فَرَاش الذهب، كأنَّ ثمرها القِلال» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[٢].

قلت: وكذا لفظ مسلم[٣] من حديث ثابت عن أنس: «ثم ذُهِب بي إلى سِدْرة المنتَهى، وإذا ورقها كآذانِ الفيَلة، وإذا ثمرها كالقِلال، فلما غشيها من أمر الله عزَّ وجلَّ ما غشِي، تغيَّرت، فما أحد من خَلْق الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنها».

واختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتهى على أقوال تسعة:

الأوَّل: ما تقدَّم عن ابن مسعود أنَّه ينتهي إليها كلُّ ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها.

الثاني: أنَّه ينتهي عِلْم الأنبياء إليها ويَعزُب عِلْمهم عما وراءها، قاله ابن عباس.

الثالث: أنَّ الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها، قاله الضحاك.

الرابع: لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها، قاله كعب[٤].

الخامس: سمِّيت سِدْرة المنتهَى؛ لأنَّها ينتهي إليها أرواح الشهداء، قاله الربيع ابن أنس[٥].

---

(١) إصلاح المنطق ليعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت ص١٩١ .

(٢) الترمذي (٢٥٤١)، وفيه: هذا حديث حسن غريب اهـ. وفيه أيضاً: الفنن، بدل: الغصن.

(٣) برقم (١٦٢).

(٤) الأقوال الأربعة ذكرها الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، وأثر ابن مسعود أخرجه مسلم (١٧٣)، وأحمد (٣٦٦٥)، وأثر الضحاك أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٢٦ ، والطبري ٢٢/ ٣٤ ، وأثر كعب أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٠ ، والطبري ٢٢/ ٣٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠ ، وفيه المؤمنين، بدل: الشهداء.

السادس: لأنَّه تنتهي إليها أرواح المؤمنين، قاله قتادة[١].

السابع: لأنه ينتهي إليها كلُّ من كان على سنة محمَّد ﷺ ومنهاجه، قاله عليٌّ ﷺ والربيع بن أنس أيضاً[٢].

الثامن: هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي عِلْم الخلائق، قاله كعب أيضاً[٣].

قلت: يريد ـ والله أعلم ـ أنَّ ارتفاعَها وأعالي أغصانها قد جاوزت رؤوسَ حملة العرش، ودليله ما تقدَّم من أنَّ أصلها في السماء السادسة، وأَعلاها في السماء السابعة، ثم عَلَت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش. والله أعلم.

التاسع: سُمِّيت بذلك؛ لأنَّ من رُفعَ إليها فقد انتهى في الكرامة. وعن أبي هريرة لما أُسريَ برسول الله ﷺ انتهى به إلى سِدرة المنتهى، فقيل له: هذه سِدرة المنتهى ينتهي إليها كلُّ أحد خَلَا من أمَّتك على سنّتك، فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهار من لبنٍ لم يتغيَّر طعمه، وأنهار من خمر لذَّة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى، وإذا هي شجرة يسير الرّاكب المسرع في ظلِّها مئة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمَّة كلَّها، ذكره الثعلبيُّ[٤].

قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ تعريف بموضع جنَّة المأوى، وأنَّها عند سِدرة المنتهى[٥]. وقرأ عليٌّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبرة الجهنيُّ وعبد الله بن الزبير ومجاهد: «عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى»[٦]. يعني: جَنَّهُ المبيتُ. قال مجاهد: يريد أجنَّه[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٩٥ دون عزوه إلى علي ﷺ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٠ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٣ .

(٤) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٣٧-٣٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ .

(٦) المحتسب ٢/ ٢٩٣ ، والقراءات الشاذة ص١٤٦ ، ولم يذكرا أبا سبرة الجهني ومجاهداً، وزادا زرَّ بن حبيش ومحمد بن كعب، وزاد ابنُ جني ـ أيضاً ـ قتادةَ، ووقع في مطبوع القراءات الشاذة: «عنده»، بدل: «عندها».

(٧) في (ظ) و (د): الجنة.

والهاء للنبيِّ ﷺ[١]. وقال الأخفش: أدركه، كما تقول: جنَّه الليلُ، أي: ستَره وأدركه. وقراءة العامة: «جَنَّةُ الْمَأْوَى»، قال الحسن: هي التي يصير إليها المتَّقون[٢]. وقيل: إنَّها الجنَّة التي تصير إليها أرواح الشهداء، قاله ابن عباس. وهي عن يمين العرش[٣]. وقيل: هي الجنَّة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أُخرج منها، وهي في السماء السابعة[٤]. وقيل: إنَّ أرواحَ[٥] المؤمنين كلَّهم في جنَّة المأوى. وإنَّما قيل لها: جنة المأوى؛ لأنَّها تأوي إليها أرواح المؤمنين، وهي تحت العرش فيتنعَّمون بنعيمها، ويتنسَّمون بطيب رِيْحها. وقيل: لأنَّ جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها[٦]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال ابن عباس والضحَّاك وابن مسعود وأصحابه: فَرَاش من ذهب[٧]. ورواه مرفوعاً ابن مسعود وابنُ عباس إلى النبيِّ ﷺ[٨]. وقد تقدَّم في «صحيح مسلم»[٩] عن ابن مسعود قوله.

وقال الحسن: غشيها نورُ ربِّ العالمين، فاستنارت[١٠]. قال القشيريُّ: وسُئل رسولُ الله ﷺ ما غشيها؟ قال: «فَرَاش من ذهب»[١١]. وفي خبر آخر: «غشيها نورٌ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩ .

(٢) زاد المسير ٨/ ٦٩ ، وذكره الرازي ٢٨/ ٢٩٢ دون عزو.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ، وأشار محققه إلى أن لفظة: السابعة. جاءت في إحدى النسخ: الرابعة. وكذا وردت في النسخة (ظ) عندنا.

(٥) في (م): أزواح.

(٦) الوسيط ٤/ ١٩٨ بنحوه.

(٧) أثر ابن مسعود ذكره البغوي في التفسير ٤/ ٢٤٨ ، وهو جزء من الحديث المتقدم قريباً، وسلف تخريجه هناك.

(٨) حديث ابن عباس أخرجه أبو يعلى (٢٦٥٦)، والطبري ٢٢/ ٤١ .

(٩) برقم (١٧٣)، وسلف قريباً.

(١٠) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٨ .

(١١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ عن يعقوب بن زيد.

من الله حتى ما يستطيع أحدٌ أن ينظر إليها»[١]. وقال الربيع بن أنس: غشيها نورُ الربِّ، والملائكة تقع عليها كما يقع الغِربان على الشجرة[٢]. وعن النبي ﷺ قال: «رأيت السّدرةَ يغشاها فَرَاش من ذهب، ورأيت على كلِّ وَرَقةٍ مَلَكاً قائماً يسبِّح الله تعالى» وذلك قوله: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ[٣]. وقال أنس ابن مالك: «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى» قال: جراد من ذهب. وقد رواه مرفوعاً[٤]. وقال مجاهد: إنَّه رَفْرَف أخضرُ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يغشاها رَفْرَف من طير خضر»[٥]. وعن ابن عباس: يغشاها ربُّ العزة[٦]، أي: أَمْرُه، كما في «صحيح مسلم»[٧] مرفوعاً: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي». وقيل: هو تعظيم الأمر، كأنَّه قال: إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته. وهكذا قوله تعالى: «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى»، «وَالمؤتفكةَ أهوى . فغشاها ما غشى» [النجم:٥٣] ومثله: ﴿ٱلْحَاقَّةُ . مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢].

وقال الماورديُّ في «معاني القرآن» له[٨]: فإن قيل: لم اختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأنَّ السِّدْرَةَ تختصُّ بثلاثة أوصاف: ظلّ مديد،

(١) أخرجه مسلم (١٦٢) عن أنس بن مالك ﷺ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٣ .

(٣) وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ عن عبد الرحمن بن زيد. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦٠-١٦١ : وعبد الرحمن ضعيف، وهذا معضل.

(٤) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٦ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٩ ، ولطائف الإشارات ٣/ ٤٨٣ ، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦١ : لم أجده.

(٦) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢ .

(٧) برقم (١٦٢) عن أنس بن مالك ﷺ، وتقدم.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٩٦ ، والعبارة من قوله: قال الماوردي... إلى قوله: صوب الله رأسه في النار. جاءت في النسخ الخطية قبل تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، والمثبت من (م) وهو الصواب.

وطعم لذيذ، ورائحة ذكيَّة، فشابهت الإيمانَ الذي يَجمع قولاً وعملاً ونيَّةً، فظلُّها من الإيمان بمنزلة العمل؛ لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النيَّة؛ لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول؛ لظهوره.

وروى أبو داود في «سننه»[(١)] قال: حدَّثنا نصر بن علي قال: حدَّثنا أبو أسامة، عن ابن جريج، عن عثمان بنِ أبي سليمان، عن سعيد بن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم، عن عبد الله بن حُبْشي، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَطَعَ سِدْرةً صَوَّب اللهُ رأسَه في النار» وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سِدْرة في فلاة ـ يستظلُّ بها ابنُ السبيل والبهائم ـ عَبَثاً وظلماً بغير حقٍّ يكون له فيها، صَوَّب اللهُ رأسَه في النار.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال ابن عباس: أي: ما عَدل يميناً ولا شمالاً، ولا تجاوز الحدَّ الذي رأى[(٢)]. وقيل: ما جاوز ما أُمر به. وقيل: لم يمدَّ بصرَه إلى غير ما رأى من الآيات. وهذا وصف أدب للنبيِّ ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً[(٣)].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قال ابن عباس: رأى رَفْرَفاً سدَّ الأفق[(٤)]. وذكر البيهقي عن عبد الله قال: «رَأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»[(٥)]: رأى رَفْرَفاً

---

(١) برقم (٥٢٣٩)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٨٥٥٧)، من طريق مخلد بن يزيد، عن ابن جريج، به. قال المنذري في مختصر السنن ٨/ ٩٩ : وحبشي: بضم الحاء المهملة، وسكون الباء الموحدة، وكسر الشين المعجمة، وياء النسب. اهـ. وأخرجه أيضاً أبو داود (٥٢٤٠) عن عروة بن الزبير مرسلاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٤، والحاكم ٢/ ٤٦٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ .

(٥) بعدها في (م) و (د): قال ابن عباس. ولم ترد هذه العبارة في (ظ) وهو الصواب، وهي كذا في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٧٢ والنقل منه، والحديث عند البخاري (٤٨٥٨).

أخضرَ سدَّ أفق السماء. وعنه قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلَّة رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء والأرض. قال البيهقيُّ[(١)]: قوله في الحديث: «رأى رَفْرَفاً» يريد جبريلَ عليه السلام في صورته على رفرف. والرفرف: البساط. ويقال: فِراش[(٢)]. ويقال: بل هو ثوب كان لباساً له، فقد روي أنَّه رآه في حُلَّةِ رفرفٍ.

قلت: خرَّجه الترمذيُّ[(٣)] عن عبد الله قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» قال: رأى رسول الله ﷺ جبريلَ عليه السلام في حُلَّة من رفرف، قد مَلأَ ما بين السماء والأرض قال: هذا حديث حسن صحيح.

قلت: وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: «دَنَا فَتَدَلَّى» أنَّه على التقديم والتأخير، أي: تدلَّى الرفرفُ لمحمَّد ﷺ ليلةَ المعراج فجلس عليه، ثم رُفع فدنا من ربِّه. قال: «فارقني جبريلُ، وانقطعت عنِّي الأصواتُ، وسمعتُ كلامَ ربِّي» فعلى هذا الرَّفْرَفُ: ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره. وهو بالمعنى الأوَّل: جبريل. قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بنُ حيَّان: رأى جبريلَ عليه السلام في صورته التي يكون فيها في السماوات[(٤)]. وكذا في «صحيح مسلم» عن عبد الله قال: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» قال: رأى جبريلَ في صورته له ستُّ مئة جناح[(٥)]. ولا يبعد مع هذا أن يكون في حُلَّةِ رفرفٍ، وعلى رفرفٍ، والله أعلم.

وقال الضحَّاك: رأى سِدْرةَ المنتهى. وعن ابن مسعود: رأى ما غشيَ السِّدرة من فَرَاش الذهب، حكاه الماورديُّ[(٦)]. وقيل: رأى المعراج. وقيل: هو ما رأى تلك

---

(١) في دلائل النبوة ٢/ ٣٧٢ .

(٢) النهاية ٢/ ٢٤٢-٢٤٣ .

(٣) برقم (٣٢٨٣)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٦٧)، وأحمد (٣٧٤٠).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧١ ونسبه لابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٦ .

(٥) سلف ص٢٥ من هذا الجزء.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٩٧ ، وسلف تخريجه عنه ١٧/ ٩٦ .

الليلة في مَسْراه في عوده وبدئه(١). وهو أحسن، دليله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء:١]، و«مِن» يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون «الْكُبْرَى» مفعولة لـ «رأى» وهي في الأصل صفة الآيات، ووحِّدت لرؤوس الآيات. وأيضاً يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى(٢)، كقوله تعالى: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨] وقيل: «الْكُبْرَى» نعت لمحذوف، أي: رأى من آيات ربِّه الكبرى(٣). ويجوز أن تكون «مِن» زائدة، أي: رأى آيات ربِّه الكبرى. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: رأى الكبرى من آيات ربِّه.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبيِّ ﷺ، وذكر من آثار قُدرته ما ذكر، حاجَّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقِل وقال: أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئاً كما أُوحِيَ إلى محمَّد(٤)، وكانت اللَّاتُ لثَقِيف، والعُزَّى لقريش وبني كنانة، ومنَاةُ لبني هلال. وقال هشام(٥): فكانت مناة لِهُذَيْل وَخُزَاعة، فبعث رسول الله ﷺ عليّاً ؓ فهدمها عام الفتح. ثم اتخذوا اللَّاتَ بالطائف، وهي أحدث من مَنَاة، وكانت صخرةً مُربَّعة، وكان سَدَنتها من ثَقِيف، وكانوا قد بَنَوْا عليها بناءً، فكانت قريش وجميع العرب تُعظِّمها. وبها كانت العرب تسمِّي: زيدَ اللَّات، وتيمَ اللَّات. وكانت في موضع منارة(٦) مسجد الطائف

---

(١) في (د): وتدنيه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ بنحوه.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٩٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠ بنحوه.

(٥) في النسخ الخطية: ابن هشام. والمثبت من (م) وهو الصواب، وهو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وكلامه في كتابه «الأصنام» ص١٤-١٥ .

(٦) ليست في النسخ الخطية، وهي زيادة من (م) والأصنام ص١٦ .

اليسرى، فلم تَزَلْ كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ، فبعث رسولُ الله ﷺ المغيرةَ بنَ شعبة فهدمها، وحرقها بالنار. ثم اتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللَّات، اتخذها ظالم بن أسعد[(١)]، وكانت بوادي نَخْلة الشاميَّة فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتاً[(٢)]، وكانوا يسمعون منها الصوت.

قال هشام[(٣)]: وحدَّثني أبي، عن أبي صالح، عن ابنِ عباس قال: كانت العُزَّى شيطانةً تأتي ثلاثَ سَمُرات ببطن نَخْلة، فلما افتتح رسولُ الله ﷺ مكَّةَ، بعث خالدَ بنَ الوليد ﷺ فقال: «إيتِ بَطْنَ نخلة فإنَّك تجد ثلاثَ سَمُرات، فاعْضِد الأولى» فأتاها فَعضَدها، فلما جاء إليه قال: «هل رأيتَ شيئاً» قال: لا. قال: «فاعضِد الثانية» فأتاها فَعضَدها، ثم أتى النبيَّ ﷺ فقال: «هل رأيت شيئاً»؟ قال: لا. قال: «فاعضد الثالثة» فأتاها فإذا هو بحبشيَّة نافشةٍ شعرها، واضعةٍ يَدَيْها[(٤)] على عاتقها تصرفُ[(٥)] بأنيابها، وخلفها دُبَيَّةالسُّلَمِيُّ وكان سادِنَها فقال:

يـا عُـزُّ كُـفْـرَانَـك لا سـبْـحـانَـك ... إنِّـي رَأَيْـتُ الـلَّـهَ قَـد أهـانَـكِ[(٦)]

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حُمَمَة[(٧)]، ثم عَضَد الشجرة، وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره فقال: «تلك العُزَّى»[(٨)].

---

(١) في النسخ الخطية، سعد، والمثبت من (م) وكتاب الأصنام ص١٨.

(٢) في الأصنام: بساً.

(٣) في النسخ: ابن هشام. والمثبت من الأصنام ص٢٥-٢٨، وهو الصواب، والكلام منه.

(٤) في النسخ الخطية: يدها. والمثبت من (م) وهو الموافق لما جاء في الأصنام.

(٥) في النسخ الخطية: تضرب. والمثبت من (م) وهو الموافق لما جاء في الأصنام، وصَرَف النابُ: صوَّت، معجم متن اللغة (صرف).

(٦) القائل: خالد بن الوليد كما في الأصنام ص٢٦، والكلام منه، والبيت أخرجه عنه الطبراني في الكبير(٣٨١١) عن أبي عبد الرحمن السلمي مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أنه مرسل.

(٧) في النسخ الخطية: جمجمة. والمثبت من (م) والأصنام، والحممة، الفحم البارد. لسان (حمم).

(٨) وأخرجه الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس =

وقال ابن جُبير: العُزَّى: حجر أبيض كانوا يعبدونه[١]. قتادة: بيت[٢] كان ببطن نَخْلة.

ومَنَاة: صنم لخزاعة[٣]. وقيل: إنَّ «اللَّات» فيما ذكر بعض المفسرين أخذَه المشركون من لفظ «الله»، و«العُزَّى» من العزيز، و«مَنَاة» مِن مَنَى اللهُ الشيءَ: إذا قدَّره[٤].

وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحُميد وأبو صالح: «اللَّاتّ» بتشديد التاء[٥]، وقالوا: كان رجلاً يَلُتُّ السَّوِيق للحاجِّ ـ ذكره البخاري[٦] عن ابن عباس ـ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. ابن عباس: كان يبيع السَّوِيق والسَّمْن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل، عَبَدَتْ ثَقِيفُ تلك الصخرة؛ إعظاماً لصاحب السَّوِيق[٧].

أبو صالح: إنَّما كان رجلاً بالطائف فكان يقوم على آلهتهم، ويَلُتُّ لهم السَّوِيق، فلما مات عبدوه[٨].

= مختصراً، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٨٣)، وأبو يعلى (٩٠٢) عن أبي الطفيل بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦: رواه الطبراني، وفيه يحيى بن المنذر، وهو ضعيف. اهـ. والواقدي في المغازي ٣/ ٨٧٣-٨٧٤، ومن طريقه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ١٢٧-١٢٨ عن سعيد بن عمرو الهذلي بنحوه.

(١) أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٩.

(٢) في (م): نبت. وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠، ونسبه للضحاك.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٤.

(٦) في صحيحه (٤٨٥٩)، ولتَّ السويقَ، أي: بَلَّه بالماء ونحوه. والسويق: ما يتخذ من الحنطة والشعير. لسان العرب (لتت) و (سوق).

(٧) أخرجه الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨، والطبري ٢٢/ ٤٨ بنحوه، وينظر التعليق السابق.

(٨) أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٨.

مجاهد: كان رجل في رأس جبل له غُنَيْمة يَسْلي منها السَّمْن، ويأخذ منها الأَقِط، ويجمع رِسْلَها، ثم يتَّخذ منها حَيْساً فيطعم الحاجَّ، وكان ببطن نَخْلة، فلما مات عبدوه وهو اللَّات[١]. وقال الكلبيُّ: كان رجلاً من ثَقِيف يقال له: صِرمة بن غنم[٢].

وقيل: إنَّه عامر بن ظَرِب العَدْوانيّ. قال الشاعر:

لا تَنْصُروا الّلات إنَّ الله مُهْلِكُها وكيف يَنْصُرُكُم مَنْ ليس يَنْتَصِرُ[٣]

والقراءة الصحيحة «اللَّاتَ» بالتخفيف، اسم صنم، والوقوف عليها بالتاء، وهو اختيار الفرَّاء. قال الفرَّاء[٤]: وقد رأيت الكسائيَّ سأل أبا فَقْعَس الأَسَديَّ فقال: ذاه لذات، وقال: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاهَ». وكذا قرأ الدُّورِيُّ عن الكسائيِّ، والبَزِّيُّ عن ابن كثير «اللَّاه» بالهاء في الوقف[٥]، ومن قال: إنَّ «اللَّات» من الله، وقَف بالهاء أيضاً. وقيل: أصلها لاه، مثل شاه، وهي من لَاهَت، أي: اختفت، قال الشاعر:

لَاهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ يا ليتها خَرجتْ حتَّى رأيناها

وفي «الصحاح»[٦]: اللات: اسم صنم كان لِثَقيف وكان بالطائف. وبعض العرب يقف عليه بالتاء، وبعضهم بالهاء، قال الأخفش: سمعنا من العرب من يقول: اللَّات

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ ، وذكره الفاكهي في أخبار مكة ٥/ ١٦٤ ، وسَلأَ السَّمْنَ: طبخه وعالجه فأذاب زبده. والأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل. والرِّسل: اللبن ما كان. والحَيْس: الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن. لسان العرب (سلأ) و (أقط) و (رسل) و (حيس).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٩٨ ، وذكر البيت هشام الكلبي في الأصنام ص١٧ ، ونسبه لشداد بن عارض الجشمي.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٩٧ .

(٥) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص٣٣٦ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ١٣٢ عن الكسائي وحده.

(٦) مادة: (ليه).

والعُزَّى، ويقول: هي اللَّات، فيجعلها تاء في السّكوت، وهي اللَّاتِ فاعلم أنَّه جرّ في موضع الرفع، فهذا مثل: أمسِ، مكسورٌ على كلِّ حال، وهو أجودُ منه؛ لأنَّ الألف واللام اللَّتين في اللّات لا تسقطان وإن كانتا زائدتين. وأمَّا ما سمعنا من الأكثر في اللَّاتِ والعُزَّى في السّكوت عليها فاللّاه؛ لأنَّها هاءٌ فصارت تاءً في الوصل، وهي في تلك اللغة مثل: كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسر[١]؛ إلا أنَّه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة، ولا يجوز ذلك في اللَّاتِ؛ لأنَّ التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف، وإن جعلت الألف والتاء[٢] زائدتين بقي الاسم على حرف واحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد والسُّلَميُّ والأعشى عن أبي بكر: «وَمَنَاءَةَ» بالمدِّ والهمز. والباقون: بترك الهمز[٣]، لغتان. وقيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّهم كانوا يريقون عنده الدماء؛ يتقرَّبون بذلك إليه. وبذلك سُمِّيت منًى؛ لكثرة ما يُراق فيها من الدماء[٤]. وكان الكسائيُّ وابن كثير وابن مُحَيْصن يقفون بالهاء على الأصل[٥]. الباقون: بالتاء؛ اتِّباعاً لخطِّ المصحف[٦].

وفي «الصحاح»[٧]: ومناة: اسم صنم كان [لهذيل وخزاعة] بين مكَّة والمدينة، والهاء للتأنيث، ويسكت عليها بالتاء، وهي لغة، والنسبة إليها: مَنوِيٌّ. وعبدُ مَناةَ بنُ

---

(١) في (م): كسرها.

(٢) في (د) و(ظ): واللام.

(٣) قراءة ابن كثير في السبعة ص٦١٥، والتيسير ص٢٠٤.

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٣١، والكشاف ٤/ ٣٠.

(٥) قال ابن الجزري في النشر في القراءات العشر ٢/ ١٣٣: وشذَّ جماعة من العراقيين فرووا عن الكسائي وحده الوقف على مناة بالهاء، وعن الباقين بالتاء، ذكر ذلك ابن سوار وأبو العز وسبط الخياط، وهو غلط... وأكَّد ذلك في ٢/ ٣٧٩ بقوله: وما وقع في كتب بعضهم من أن الكسائي وحده يقف بالهاء والباقون بالتاء، فوهم لعله انقلب عليهم من اللات كما قدمناه في بابه.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٣.

(٧) مادة: (منا)، وما بين حاصرتين منه.

أُدِّ بن طابِخة، وزيدُ مناةَ بن تميم بن مُرٍّ، يُمَدُّ ويقصر، قال هَوْبَر الحارثيُّ:

أَلَا هَـلْ أَتـى الـتَّـيْـمَ بـنَ عـبـدِ مَـنَـاءةٍ   على الشِّنْءِ فيما بيننا ابْنُ تَـمِيمِ[(١)]

قوله تعالى: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ العرب [لا][(٢)] تقول للثالثة: أخرى، وإنَّما الأخرى نعت للثانية، واختلفوا في وجهها فقال الخليل: إنَّما قال ذلك؛ لوفاق رؤوس الآي، كقوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨] ولم يقل: أُخَر. وقال الحسين بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير، مجازها: أفرأيتم اللّات والعُزّى الأخرى ومَنَاة الثالثة[(٣)].

وقيل: إنَّما قال: «ومَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» لأنَّها كانت مرتَّبة عند المشركين في التعظيم بعد اللّات والعُزَّى[(٤)]، فالكلام على نسقه. وقد ذكرنا عن هشام[(٥)]: أن مَنَاةَ كانت أولاً في التقديم، فلذلك كانت مقدَّمة عندهم في التعظيم، والله أعلم. وفي الآية حذف دلَّ عليه الكلام، أي: أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرَّت حتى تكون شركاءَ لله.

ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ردًّا عليهم قولهم: الملائكة بناتُ الله، والأصنام بناتُ الله[(٦)].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا﴾ يعني: هذه القسمة ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحقِّ.

يقال: ضَازَ في الحكم، أي: جَارَ، وضَازَه حقَّه يَضِيزه ضَيْزاً ـ عن الأخفش ـ

---

(١) ذكره أيضاً أبو العلاء المعري في الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ص٦٣ ، والشِّنْءُ: البغض. لسان العرب (شنأ).

(٢) ليست في النسخ الخطية، والمثبت من (م)، وهو الصواب.

(٣) زاد المسير ٨/ ٧٢ – ٧٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٩٨ .

(٥) في النسخ: ابن هشام، والصواب ما أثبتناه، وكما أسلفنا، وهو هشام بن محمد بن السائب، واشتهر بابن الكلبي، وكلامه في الأصنام ص١٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠١ .

أي: نقصه وبخَسَه. قال: وقد يهمز فيقال: ضأزه يَضْأَزُه ضَأْزاً وأنشد:

فَإنْ تَنْأَ عَنَّا نَنْتَقِصْكَ وإنْ تُقِمْ فقِسْمُكَ مَضْؤوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ[١]

وقال الكسائيُّ: يقال: ضازَ يَضِيز ضَيْزاً، وضازَ يَضُوز ضَوْزاً، وضَأَز يَضْأَز ضأزاً: إذا ظلم وتعدَّى وبخَس وانتقص[٢]. قال الشاعر:

ضَازَتْ بنو أَسدٍ بِحُكْمِهِمُ إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ[٣]

قوله تعالى: «قِسْمَةٌ ضِيزَى» أي: جائرة، وهي فُعْلى، مِثل: طُوبَى وحُبْلى، وإنَّما كسروا الضاد؛ لتسلم الياء؛ لأنه ليس في الكلام «فِعْلى» صفةٌ، وإنَّما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى. قال الفرَّاء: وبعض العرب تقول: ضُؤْزى وضِئْزى بالهمز. وحكى أبو حاتم عن أبي زيد: أنَّه سمع العرب تهمز «ضِيزى»[٤].

قال غيره: وبها قرأ ابن كثير، جعله مصدراً، مثل ذِكرى[٥]، وليس بصفة، إذ ليس في الصفات «فِعْلى»، ولا يكون أصلها «فُعْلى»، إذ ليس فيها ما يوجب القلب، وهي من قولهم: ضأزته، أي: ظلمته. فالمعنى: قسمة ذات ظلم. وقد قيل: هما لغتان بمعنًى. وحكى فيها أيضاً سواهما: ضَيْزَى وضَأْزى، وضُوزَى وضُؤْزى[٦]. وقال المؤرِّج: كرهوا ضمَّ الضاد في ضِيزى، وخافوا انقلاب الياء واواً، وهي من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلَّة، كما قالوا في جمع أبيض: بِيضٌ، والأصل بُوضٌ،

---

(١) الصحاح (ضيز)، وذكر البيت أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٥٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ ، وجاء في الصحاح: فحقك، وفي التهذيب: فحظك، بدل: فقسمك، وفي النسخ الخطية: تغب، بدل: تقم.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠ .

(٣) القائل امرؤ القيس كما ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٧ وعزاه إلى الطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وورد في الدر: يعدلون، بدل: يجعلون.

(٤) الصحاح (ضيز)، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٩٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠١ ، والقراءة في السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص٢٠٤ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٣ .

مثل: حُمْر وصُفْر وخُضْر. فأمَّا من قال: ضاز يَضُوز، فالاسم منه: ضُوزَى مثل شُورَى[١].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: ما هي ـ يعني هذه الأوثان ـ «إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا» يعني: نَحتُّموها وسمَّيتموها آلهةً. ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: قلَّدتموهم في ذلك. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما أنزل الله بها من حجَّة ولا برهان. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر[٢]، أي: ما يتَّبع هؤلاء إلَّا الظَّنَّ. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: تميل إليه.

وقراءة العامة: «يَتَّبِعُونَ» بالياء. وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمَيْفَع «تَتَّبِعُونَ» بالتاء على الخطاب. وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس[٣]. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: البيان من جهة الرسول أنَّها ليست بآلهة[٤]. ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: اشتهى، أي: ليس ذلك له[٥]. وقيل: «لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» [من البنين، أي: يكون له دون البنات[٦]. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» من غير جزاء! ليس الأمر كذلك. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى» من النبوّة أن تكون فيه دون غيره[٧]. وقيل: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٠ ولم ينسبه للمؤرِّج.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٣) الكشاف ٤/ ٣١ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٣٠٠ دون عزو، والبحر المحيط ٨/ ١٦٢-١٦٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٩٩ ، وما بين حاصرتين ليست في (د).

تَمَنَّى»] من شفاعة الأصنام[١]، نزلت في النضر بن الحارث. وقيل: في الوليد بن المغيرة[٢]. وقيل: في سائر الكفار.

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا ما تمنَّى أحد[٣].

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عَبَدَ الملائكة والأصنام، وزعم أنَّ ذلك يقرِّبه إلى الله تعالى، فأعلم أنَّ الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذنَ أن يشفع له[٤]. قال الأخفش: الملَك واحد، ومعناه جمع، وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧]. وقيل: إنَّما ذكر ملَكاً واحداً؛ لأنَّ «كَمْ» تدلُّ على الجمع[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ۝٢٨ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هم الكفار الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله. ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ أي: كتسمية الأنثى، أي: يعتقدون أنَّ الملائكة إناث، وأنَّهم بناتُ الله[٦]. ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ أي: إنَّهم لم يشاهدوا خلقَه الملائكةَ، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله ﷺ، ولم يَرَوْهُ في كتاب.

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٠٠ .

(٢) الكشاف ٤/ ٣١ .

(٣) الكشاف ٤/ ٣١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٩ .

(٦) الوسيط ٤/ ٢٠٠ .

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتَّبعُونَ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في أنَّ الملائكةَ إناث. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني: القرآن والإيمان[١]، وهذا منسوخ بآية السيف[٢]. ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ نزلت في النَّضر. وقيل: في الوليد. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: إنَّما يُبصرون أمر دنياهم، ويَجهلون أمر دينهم. قال الفرَّاء[٣]: صغَّرهم وازدرى بهم، أي: ذلك قَدْر عقولهم ونهاية عِلْمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: أن جعلوا الملائكةَ والأصنامَ بناتِ الله. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: حاد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيجازي كُلًّا بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ اللام متعلِّقة بالمعنى الذي دلَّ عليه: «وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» كأنَّه قال: هو مالك ذلك، يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء؛ ليجزيَ المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته[٤]. وقيل: «لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» معترض في الكلام، والمعنى: إنَّ ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى؛ ليجزي[٥]. وقيل: هي لام العاقبة[٦]، أي: ولله ما في السماوات وما في الأرض،

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥١ .

(٢) الوسيط ٤/ ٢٠١ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٠٠ .

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٩٣ - ٦٩٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣ .

(٦) زاد المسير ٨/ ٧٥ .

أي: وعاقبة أَمْرِ الخَلْق أن يكون فيهم مسيْء ومحسن؛ فللمسِيْء السُّوأَى وهي جهنَّم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذا نعت للمحسنين[١]، أي: هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشِّرك؛ لأنَّه أكبر الآثام، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائيُّ: «كَبيرَ» على التوحيد[٢]، وفسَّره ابن عباس بالشِّرك. «وَالْفَوَاحِشَ» الزنى[٣]. وقال مقاتل: «كَبَائِرَ الْإِثْمِ»: كلُّ ذنب خُتمَ بالنار. «وَالْفَوَاحِشَ»: كلُّ ذنب فيه الحدُّ[٤]. وقد مضى في «النساء»[٥] القول في هذا. ثم استثنى استثناءً منقطعاً وهي:

المسألة الثانية: فقال: «إِلَّا اللَّمَمَ»: وهي الصغائر التي لا يَسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه.

وقد اختلف في معناها، فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبيُّ: «اللَّمَمُ»: كلُّ ما دون الزنى[٦]. وذكر مقاتل بن سليمان: أنَّ هذه الآيةَ نزلت في رجل كان يُسمَّى نبهان التمَّار، كان له حانوت يبيع فيه تمراً، فجاءته امرأة تشتري منه تمراً فقال لها: إنَّ داخل الدكان ما هو خيرٌ من هذا، فلما دخلت راودها، فأبت وانصرفت، فندم نبهان، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣.

(٢) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٦١٥، والتيسير ص١٩٥، وقراءة الأعمش ويحيى بن وثاب في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٣.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠.

(٤) زاد المسير ٨/ ٧٥ ولم ينسبه.

(٥) ٦/ ٢٦٢.

(٦) الوسيط ٤/ ٢٠١.

فعلته إلا الجماع. فقال: «لعلَّ زوجَها غازٍ» فنزلت هذه الآية[١]، وقد مضى في آخر «هود»[٢].

وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخُدريُّ وحذيفة ومسروق: إنَّ اللمم ما دون الوطء من القُبلة والغَمْزة والنظرة والمضاجعة[٣].

وروى مسروق عن عبد الله بنِ مسعود قال: زنى العينين النظر، وزنى اليدين البطش، وزنى الرِّجلين المشي، وإنَّما يصدِّق ذلك أو يكذِّبه الفَرْجُ، فإن تقدَّم كان زنًى، وإن تأخَّر كان لَمَماً[٤]. وفي «صحيح البخاري ومسلم»[٥] عن ابنِ عباس قال: ما رأيتُ شيئاً أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ كتب على ابن آدَم حظَّه من الزنى، أدركَ ذلك لا محالةَ، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنَّى وتشتهي، والفرج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه». والمعنى: أنَّ الفاحشة العظيمة والزنى التامَّ الموجِب للحدِّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة، هو في الفَرْج، وغيرُه له حظٌّ من الإثم[٦]. والله أعلم.

وفي رواية أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «كُتِب على ابن آدَمَ نصيبه من الزنى، مُدْرِكٌ ذلك لا محالةَ، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطَا، والقلب

---

(١) سلف ٥/ ٣٢٢.

(٢) ١١/ ٢٣٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٥٥، والطبري ٢٢/ ٦٢، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٦٠) من طريق أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود به، ولم يرد: مسروق، في إسناد عبد الرزاق والطبري. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٥) البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧) واللفظ له، وهو عند أحمد (٧٧١٩).

(٦) إكمال المعلم ٨/ ١٤٥.

يَهْوَى ويتمنَّى، ويصدِّق ذلك الفَرْجُ ويكذِّبه». خرَّجه مسلم[١]. وقد ذكر الثعلبيُّ حديثَ طاوس عن ابن عباس، فذكر فيه الأُذن واليد والرِّجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان: «وزنى الشفتين القُبلة»[٢]. فهذا قول.

وقال ابن عباس أيضاً: هو الرجل يُلِمُّ بذنب ثم يتوب. قال: أَلَم تسمع النبيَّ ﷺ كان يقول:

إن تَـغـفـر الـلَّـهُـمَّ تَـغـفـر جَـمَّـا ... وأيُّ عــبــدٍ لــكَ لا أَلَــمَّــا

رواه عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس[٣]. قال النحَّاس: هذا أصحُّ ما قيل فيه وأجلُّها إسناداً.

وروى شعبة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: «إِلَّا اللَّمَمَ» قال: هو أن يُلِمَّ العبدُ بالذنب ثم لا يعاوده، قال الشاعر:

إن تَـغـفِـرِ الـلَّـهـمَّ تـغـفـر جَـمَّـا ... وأيُّ عــبــدٍ لــكَ لا أَلَــمَّــا[٤]

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده[٥]. ونحوه عن

---

(١) في صحيحه (٢٦٥٧): (٢١).

(٢) وقد وردت هذه الزيادة في حديث ابن مسعود السالف الذكر، وثمة تخريجه هناك.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٨٤) من طريق زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، به. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. اهـ. والبيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوانه ص٥٨، ونسبه بعضهم لأبي خِراش الهذلي كما في أمالي ابن الشجري ٢/ ٥٣٦، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١٣٤٦ وغيرها من المصادر، لكن قال البغدادي في خزانة الأدب ٢/ ٢٩٥: وزعم العيني أنه لأبي خراش الهذلي، وهذا خطأ، وإنما هو لأمية بن أبي الصلت، قاله عند موته، وقد أخذه أبو خراش منه. وينظر التعليق الآتي.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٨٥، وفي شعب الإيمان (٧٠٥٧) من طريق آدم بن أبي إياس، عن شعبة، به. وقال: هذا هو المحفوظ موقوف. اهـ. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٢/ ٦٤ من طريق محمد ابن جعفر، عن شعبة، به. إلا أنه لم يذكر ابن عباس في إسناده.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٠٠، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٤ عن مجاهد بنحو قول ابن عباس الآنف الذكر، وأخرجه مجاهد في التفسير ٢/ ٦٣١، والطبري ٢٢/ ٦٤ - ٦٥ عن الحسن بنحوه.

الزهري، قال: اللَّمم: أن يزنيَ ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرقَ أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود. ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [١٣٥ من آل عمران]. ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦] فضمن لهم المغفرة، كما قال عقيبَ اللَّمم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فعلى هذا التأويل يكون «إِلَّا اللَّمَمَ» استثناء متصل. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللَّمم: ما دون الشرك[١]. وقيل: اللَّمم: الذنب بين الحدَّين، وهو ما لم يأتِ عليه حدٌّ في الدنيا، ولا تُوعِّد عليه بعذاب في الآخرة، تكفِّره الصلوات الخمس. قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة[٢]. ورواه العوفيُّ والحكم بن عتيبة عن ابن عباس[٣].

وقال الكلبيُّ: اللَّمم على وجهين: كلُّ ذنب لم يَذكر اللهُ عليه حدًّا في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة، فذلك الذي تكفِّره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائرَ والفواحشَ. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يُلِمُّ به الإنسان المرَّة بعد المرَّة فيتوب منه[٤].

وعن ابن عباس أيضاً وأبي هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أنَّ المشركين قالوا للمسلمين: إنَّما كنتم بالأمسِ تعملون معنا، فنزلت، وقاله زيد بن أسلم وابنه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[٥] [النساء: ٢٣].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ وعزاه إلى أبي هريرة وابن عباس، والنكت والعيون ٥/ ٤٠١ وعزاه إلى ابن عباس وقتادة، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧ - ٦٨ عن ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وقتادة والضحاك.

(٣) أورده ابن كثير في التفسير ٧/ ٤٦٢ عن العوفي عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٦٧ عن الحكم بن عتيبة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ ولم ينسبه لأبي هريرة، وذكره عنه أبو الليث السمرقندي في التفسير ٣/ ٢٩٣.

وقيل: اللَّمم: هو أن يأتيَ بذنب لم يكن له بعادة، قاله نفطويه[١]. قال: والعرب تقول: ما يأتينا إلَّا لِمَاماً؛ أي: في الحين بعد الحين. قال: ولا يكون أن يُلِمَّ ولا يفعل؛ لأنَّ العرب لا تقول: ألمَّ بنا، إلا إذا فعل الإنسان، لا إذا همَّ ولم يفعله. وفي «الصحاح»[٢]: وألمَّ الرجل، من اللَّمم: وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. وأنشد غير الجوهريِّ:

بِزينَب أَلْمِمْ قبل أن يَرْحَلَ الرَّكبُ وقُلْ إنْ تَمَلِّينَا فما مَلَّكِ الْقَلْبُ[٣]

أي: اقرب.

وقال عطاء بن أبي رباح: اللَّمم: عادة النفس الحين بعد الحين[٤]. وقال سعيد ابن المسيّب: هو ما ألمَّ على القلب، أي: خطر[٥]. وقال محمد ابن الحنفيَّة: كلُّ ما هممتَ به من خير أو شرٍّ، فهو لمَمَ[٦]. ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ للشيطان لَمَّة، وللملَك لَمَّة» الحديث. وقد مضى في «البقرة»[٧] عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ [الآية: ٢٣٨].

وقال أبو إسحاق الزجَّاج: أصل اللَّمم والإلمام: ما يعمله الإنسان المرَّة بعد المرَّة ولا يتعمَّق فيه ولا يقيم عليه[٨]. يقال: ألممت به، إذا زرته وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لَمَماً وإلماماً، أي: الحين بعد الحين. وإنَّما زيارتك إلمام[٩]،

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٢) مادة: (لمم).

(٣) القائل نُصَيْب بن رباح، والبيت في ديوانه ص٦٠ .

(٤) الكشاف ٤/ ٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٦) زاد المسير ٨/ ٧٦ .

(٧) ٤/ ٣٥٥ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٤ ، والوسيط ٤/ ٢٠٢ بنحوه.

(٩) لسان العرب (لمم) بنحوه.

ومنه إلمام الخيال، قال الأعشى[١]:

أَلَمّ خَيَالٌ مِن قُتَيْلَةَ بَعْدَ مَا ... وَهَى حَبْلُها مِن حَبْلِنَا فَتَصَرَّمَا

وقيل: «إلا» بمعنى الواو[٢]. وأنكر هذا الفرَّاء[٣] وقال: المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل: اللَّمم: النظرة التي تكون فجأة[٤].

قلت: هذا فيه بعدٌ، إذ هو معفوٌّ عنه ابتداءً، غير مؤاخذ به؛ لأنه يقع من غير قصد واختيار، وقد مضى في «النور» بيانه[٥].

واللَّمم أيضاً: طَرَفٌ من الجنون، ورجل ملموم، أي: به لَمَمٌ. ويقال أيضاً: أصابت فلاناً لمَّةٌ من الجنّ، وهي المسُّ، والشيء القليل، قال الشاعر:

فإذا وذَلِك يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ ... إلَّا كَلَمَّةِ حالِمٍ بِخَيالِ[٦]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ لمن تاب من ذنبه واستغفر، قاله ابن عباس[٧]. وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب ابنِ مسعود: رأيتُ في المنام كأنِّي دخلتُ الجنَّة، فإذا قِباب مضروبة، فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لذي الكَلَاع وحَوْشَب ـ وكانا ممن قَتل بعضهم بعضاً ـ فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: إنَّهما لقيا اللهَ فوجداه واسعَ المغفرة. فقال أبو خالد: بلغني أنَّ ذا الكَلَاع أعتق اثني عشَر ألف بيت[٨].

---

(١) في ديوانه ص٥٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٣ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٠٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ ونسبه للحسين بن الفضل.

(٥) ١٥/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٦) الصحاح (لمم) ولم ينسب البيت فيه، ونسب في لسان العرب (لمم) إلى ابن مقبل، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٧) الوسيط ٤/ ٢٠٢ .

(٨) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ٢/ ٣٤٠ ، وابن أبي شيبة ١٥/ ٢٩٠ ، وأبو نعيم في الحلية =

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أباكم آدم من الطين[١]، وخرج اللفظ على الجمع.

قال الترمذيُّ أبو عبد الله: وليس هو كذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض، وكنَّا جميعاً في تلك التربة وفي تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على اختلاف هيئتها، ثم استخرجها من صُلْبها على اختلاف الهيئات، منهم كالدُّرِّ يتلألأ، وبعضهم أنور من بعض، وبعضهم أسود كالحُمَمَة، وبعضهم أشدُّ سواداً من بعض، فكان الإنشاء واقعاً علينا وعليه. حدَّثنا عيسى بن حماد العسقلانيُّ قال: حدَّثنا بِشر بنُ بَكرٍ، قال: حدَّثنا الأوزاعيُّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرض عليَّ الأوَّلون والآخرون بين يدي حجرتي هذه الليلة» فقال قائل: يا رسولَ الله! ومَن مضى من الخَلْق؟ قال: «نعم، عُرض عليَّ آدم فمن دونه، فهل كان خُلِقَ أحد» قالوا: ومن في أصلاب الرجال وبطون الأُمَّهات؟ قال: «نعم، مثلوا في الطين فعرفتهم، كما علم آدم الأسماء كلَّها»[٢].

قلت: وقد تقدَّم في أوَّل «الأنعام»[٣] أنَّ كلَّ إنسان يُخلَق من طين البقعة التي يدفن فيها.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جَنِين: وهو الولد ما دام في البطن، سُمِّيَ جنيناً؛ لاجتنانه واستتاره[٤]. قال عمرو بن كُلْثوم:

هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا[٥]

= ٤/ ١٤٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٧٤ . وقول أبي خالد ـ وهو يزيد بن هارون من رجال الإسناد ـ جاء عقب رواية البيهقي هكذا: ...فإن ذا الكلاع وحوشب أعتقا اثني عشر ألف أهل بيت، وذكر من محاسنهم أشياء. اهـ وجاء في (م) و(د): بنت، بدل: بيت.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ٨/ ٣١٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

(٥) سلف ٤/ ٣٨ .

وقال مكحول: كنَّا أجنَّة في بطون أمهاتنا، فسقط منَّا من سقط، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا رُضَّعاً، فهلك منَّا من هلك، وكنا فيمن بقي، ثم صرنا يَفَعةً، فهلك منَّا من هلك، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا شباباً، فهلك منَّا من هلك، وكنَّا فيمن بقي، ثم صرنا شيوخاً ـ لا أبَا لك! ـ فما بعد هذا ننتظر[١]؟!.

وروى ابنُ لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبيٌّ صغير: هو صِدِّيق. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذبت يهود، ما من نَسَمة يخلقها الله في بطن أمِّه إلا أنَّه شقيٌّ أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» إلى آخرها[٢]. ونحوه عن عائشة: «كان اليهود». بمثله[٣].

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي: لا تمدحوها ولا تثنُوا عليها[٤]، فإنَّه أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع. ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: أَخْلَصَ العمل، واتَّقى عقوبةَ الله، عن الحسن وغيره[٥]. قال الحسن: قد عَلِمَ اللهُ سبحانه كلَّ نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة[٦]. وقد مضى في «النساء»[٧] الكلام في معنى هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾ [الآية:٤٩] فتأمَّله هناك. وقال ابن عباس: ما من أحد من هذه الأمَّة أزكِّيه غير رسول الله ﷺ[٨]. والله تعالى أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٢ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٢٢ ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٦٨) من طريق يحيى بن بكير، عن ابن لهيعة، به.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٣ .

(٥) زاد المسير ٨/ ٧٧ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٠٢ .

(٧) ٦/ ٤٠٧ .

(٨) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٥٢٥)، والطبراني في الكبير (١١٠٢٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ الآيات، لما بيَّن جهل المشركين في عبادة الأصنام، ذكر واحداً منهم معيَّناً بسوء فعله. قال مجاهد وابن زيد ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتَّبع رسولَ الله ﷺ على دينه، فعيَّره بعض المشركين، وقال: لِمَ تركتَ دينَ الأشياخ وضَلَّلتهم[١] وزعمت أنَّهم في النار؟! قال: إنِّي خشيتُ عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمَّل عنه عذاب الله[٢]، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن [له] ثم بَخِلَ ومنعَه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مقاتل: كان[٣] الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل: «وَأَعْطَى قَلِيلاً» أي: من الخير بلسانه «وَأَكْدَى» أي: قطع ذلك وأمسك عنه[٤]. وعنه: أنَّه أعطى رسولَ الله ﷺ عقد الإيمان ثم تولَّى، فنزلت: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى» الآية.

وقال ابن عباس والسُّدِّيُّ والكلبيُّ والمسيّب بن شريك: نزلت في عثمان بن عفان ﷺ كان يتصدَّق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألَّا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إنَّ لي ذنوباً وخطايا، وإنِّي أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوه! فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برَحْلها وأنا أتحمَّل عنك ذنوبك كلّها. فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن

---

(١) في (ظ): وملكهم، وفي (د): وملتهم، وفي (ف): ومللهم، والمثبت من (م)، وأسباب النزول للواحدي ص٤٢٣ ، والكلام منه دون نسبته إلى مقاتل، وما بين حاصرتين منه أيضاً، والخبر أخرجه الطبري ٢٢/ ٧٢ عن ابن زيد بتمامه، وعن مجاهد مختصراً، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٦٣١ .

(٢) بعدها في (د) و(ظ) و(ف): ففعل. ولم ترد في أسباب النزول.

(٣) في (م): كال. وهو خطأ.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ .

بعض ما كان يصنع [من الصدقة] فأنزل الله تعالى: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله. ذكر ذلك الواحديُّ(١) والثعلبيُّ.

وقال السُّدِّيُّ أيضاً: نزلت في العاص بن وائل السَّهْميّ، وذلك أنَّه كان ربَّما يوافق النبيَّ ﷺ في بعض الأمور(٢). وقال محمد بن كعب القرظيُّ: نزلت في أبي جهل ابن هشام، قال: واللهِ ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق، فذلك قوله تعالى: «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى»(٣). وقال الضحَّاك: هو النَّضْر بن الحارث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى(٤) ارتدَّ عن دينه، وضمن له أن يتحمَّل عنه مأثم رجوعه.

وأصل «أَكْدَى» من الكُدْية، يقال لمن حَفَر بئراً ثم بلغ إلى حَجَرٍ لا يتهيَّأ له فيه حَفْر: قد أَكْدَى، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يُتمِّم، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره(٥). وقال الحُطَيْئة(٦):

فأعطى قليلاً ثم أَكْدَى عطاءَه ... ومن يَبْذُلِ المعروفَ في الناسِ يُحمَدِ

قال الكسائيُّ وغيره: أَكْدَى الحافرُ وأَجْبل: إذا بلغ في حَفْره كُدْية أو جبلاً، فلا يمكنه أن يَحفِر. وحفر فأكْدَى: إذا بلغ إلى الصُّلْب. ويقال: كَدِيت أصابعه: إذا كَلَّتْ من الحفر(٧).

---

(١) في أسباب النزول ص٤٢٢-٤٢٣ ، وما بين حاصرتين منه، وذكر الخبر أيضاً الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٣ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٥ ونسبه للثعلبي، ولكنَّ ابن عطية ردَّ الخبرَ بقوله: وذلك كله عندي باطل، وعثمان منزَّه عن مثله.

(٢) قوله: في بعض الأمور. لم يرد في (م).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣ ، وزاد المسير ٨/ ٧٨ .

(٤) في (م): حين. والمثبت من النسخ الخطية وزاد المسير ٨/ ٧٨ ، والكلام منه.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٩ .

(٦) لم نقف عليه في ديوانه.

(٧) الصحاح (كدي).

وكَدِيت يدهُ: إذا كَلَّتْ، فلم تعمل شيئاً. وأكْدَى النَّبتُ: إذا قلَّ رَيْعه. وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كَدْواً فهي كَادِيَةٌ: إذا أبطأ نباتها، عن أبي زيد[١]. وأكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء: رددتُه عنه. وأكْدَى الرجلُ: إذا قلَّ خيره. وقوله: «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» أي: قطع القليل[٢].

قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: أعند هذا المكدِي علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب؟! «فَهُوَ يَرَى» أي: يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حَمْلَ العذاب عن غيره[٣]؟! وكفى بهذا جهلاً وحمقاً. وهذه الرؤية هي المتعدِّية إلى مفعولين، والمفعولان محذوفان، كأنَّه قال: فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وصحف إبْرَاهيمَ ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ كما في سورة «الأعلى»: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الآية:١٩] أي: لا تؤخذ نفس بدلاً عن أخرى، كما قال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وخصَّ صحف إبراهيم وموسى بالذِّكْر؛ لأنَّه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة ابنه وأبيه[٤]، قاله الهذيل بن شرحبيل.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٢٥ .

(٢) الصحاح (كدي).

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٢٩ .

(٤) في (د) و(م): أخيه وابنه وأبيه. والمثبت من (ظ) و (ف) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٤٠٣ والكلام منه.

و «أنْ» هذه المخفَّفة من الثقيلة، وموضعها جرٌّ بدلاً من «ما»، أو يكون في موضع رفع على إضمار «هو»[(١)].

وقرأ سعيد بن جبير وقتادة: «وَفَى» خفيفة[(٢)]، ومعناها: صَدَق في قوله وعمله، وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة: «وَفَّى» بالتشديد، أي: قام بجميع ما فُرض عليه فلم يَخْرم منه شيئاً. وقد مضى في «البقرة»[(٣)] عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [الآية: ١٢٤] والتوفية: الإتمام. وقال أبو بكر الورَّاق: قام بشرط ما ادَّعى، وذلك أنَّ الله تعالى قال له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] فطالبه الله بصحَّة دعواه، فابتلاه في ماله وولده ونفسه، فوجده وافياً بذلك، فذلك قوله: «وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى» أي: ادَّعى الإسلام، ثم صحَّح دعواه.

وقيل: «وفَّى عمله كلَّ يوم بأربع ركعات في صدر النهار» رواه الهيثم عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ[(٤)]. وروى سهل بن سعد الساعدي عن أبيه: «ألَا أُخبركم لم سَمَّى الله تعالى خليلَه إبراهيمَ: «الَّذِي وَفَّى»؛ لأنَّه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[(٥)] الآية [١٧ من سورة الروم]. ورواه سهل بن معاذ بن[(٦)] أنس، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ[(٧)].

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٣ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٧ ونسبها إلى ابن جبير واليماني، والمحتسب ٢/ ٢٩٤ ونسبها إلى ما نسبه ابن خالويه في القراءات الشاذة، وزاد: أبا أمامة وأبا مالك. البحر المحيط ٨/ ١٦٧ .

(٣) ٢/ ٣٥١ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٣ ، وأخرجه أيضاً الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (١٠٩)، والطبري ٢٢/ ٧٨ ، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٥٤ ، من طريق القاسم، عن أبي أمامة، به. وفي إسناده: جعفر ابن الزبير، قال عنه ابن حجر في التقريب ١/ ٢١٧ : متروك الحديث، وكان صالحاً في نفسه.

(٥) لم نقف عليه، وينظر الحديث الآتي.

(٦) في النسخ عدا (ف): عن: والمثبت من (ف) ومصادر التخريج.

(٧) أخرجه أحمد (١٥٦٢٤)، والطبري ٢٢/ ٧٧-٧٨ ، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٢٧) و (٤٢٨)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١٠١١ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١١٧ : رواه الطبراني، وفيه ضعفاء وثقوا.

وقيل: «وفَّى» أي: وَفَّى ما أُرسل به[١]، وهو قوله: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» قال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذَنْب غيره، ويأخذون الوليَّ بالوليِّ في القتل والجراحة، فيُقتَل الرجل بأبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده، فبلَّغهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»[٢]. وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير في قوله تعالى «وَفَّى»: عمل بما أُمر به، وبلَّغ رسالات ربِّه[٣]. وهذا أحسن؛ لأنه عام. وكذا قال مجاهد: «وَفَّى» بما فُرض عليه[٤]. وقال أبو مالك الغفاريُّ: قوله تعالى: «أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» إلى قوله: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى» في صحف إبراهيم وموسى[٥]. وقد مضى في آخر «الأنعام»[٦] القول في: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ روي عن ابن عباس[٧] أنَّها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه، ويشفِّع اللهُ تعالى الآباءَ في الأبناء، والأبناءَ في الآباء، يدلُّ ذلك على قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

---

(١) زاد المسير ٨/ ٨٠ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٤ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٣.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٧٩ إلا أن فيه: إلى قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾.

(٦) ٩/ ١٤٥.

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٠، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٣٦، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦ بعد أن أورد الخبر: وهذا لا يصح عندي على ابن عباس، لأنه خبر لا ينسخ، ولأن شروط النسخ ليست هنا، اللهم إلا أن يتجوز في لفظة النسخ ليفهم سائلاً.

وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة، ولا ينفع أحداً عملُ أحدٍ، وأجمعوا أنَّه لا يُصلِّي أحد عن أحد. ولم يُجِز مالك الصيام والحجَّ والصدقة عن الميت، إلا أنَّه قال: إن أوصى بالحجِّ ومات، جاز أن يُحجَّ عنه. وأجاز الشافعيُّ وغيره الحجَّ التطوّع عن الميِّت[١]. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه[٢]. وروي أنَّ سعد بنَ عبادة قال للنبيِّ ﷺ: إنَّ أمِّي توفيت أفأتصدَّقُ عنها؟ قال: «نعم» قال: فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»[٣]. وقد مضى جميع هذا مستوفًى في «البقرة»[٤] و «آل عمران»[٥] و«الأعراف»[٦].

وقد قيل: إنَّ الله عز وجل إنَّما قال: «وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلَّا ما سعى» ولام الخفض معناها في العربية المِلْكُ والإيجاب، فليس يجب للإنسان إلا ما سعى، فإذا تصدَّق عنه غيرُه، فليس يجب له شيء، إلا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يتفضَّل عليه بما لا يجب له، كما يتفضَّل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل[٧]. وقال الربيع بن أنس: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» يعني: الكافر، وأما المؤمن فله ما سَعَى، وما سعى له غيرُه[٨].

قلت: وكثير من الأحاديث يدلُّ على هذا القول، وأنَّ المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدَّم كثير منها لمن تأملها، وليس في الصدقة اختلاف، كما في صدر «كتاب مسلم»[٩] عن عبد الله بن المبارك. وفي «الصحيح»[١٠]: «إذا

(١) قول مالك في المدونة ٦/ ٥٨ ، وقول الشافعي في الأم ٤/ ٤٦ .
(٢) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ١/ ١٢٥ ، وابن أبي شيبة ٣/ ٩٤ .
(٣) سلف ٩/ ٢٣٣ .
(٤) ٤/ ٥٠٠ .
(٥) ٥/ ٢٢٧ .
(٦) ٩/ ٢٣٣ .
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦-٢٠٧ بنحوه.
(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦ .
(٩) في مقدمة كتابه ١/ ١٦ .
(١٠) مسلم (١٦٣١)، وسلف ١/ ٨ .

مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث» وفيه: «أو ولد صالح يدعو له» وهذا كلُّه تفضُّل من الله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ زيادة الأضعاف فَضْلٌ منه؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عَشْراً إلى سبع مئة ضعف إلى ألف ألف حسنة، كما قيل لأبي هريرة: أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة»؟ فقال سمعته يقول: «إنَّ الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة»[(١)] فهذا تفضُّل. وطريق العدل: «أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى».

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» خاصٌّ في السيئة؛ بدليل ما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا همَّ عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عَشْر حسنات إلى سبع مئة ضِعف، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها، لم أكتبها عليه، فإن علمها كتبتها سيئةً واحدة»[(٢)].

وقال أبو بكر الورَّاق: «إِلَّا مَا سَعَى» إلا ما نوى[(٣)]. بيانه قوله ﷺ: «يُبعَث الناس يوم القيامة على نيَّاتهم»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة[(٥)] ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي: يُجزَى به ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾. قال الأخفش: يقال: جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء، سواء لا فَرْقَ بينهما، قال الشاعر:

إنْ أجْزِ عَلْقَمَةَ بنَ سعْدٍ سَعْيَه ... لم أجْزِهِ ببَلاءِ يَوْمٍ واحِدِ

(١) سلف ٦/ ٣٢٤.

(٢) سلف ١١/ ٣١٥.

(٣) زاد المسير ٨/ ٨١.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٩) عن أبي هريرة ﷺ، قال البوصيري في الزوائد: في إسناده ليث بن سليم، وهو ضعيف، ويشهد له حديث جابر، وقد رواه مسلم [(٢٨٧٨)] .اهـ. وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٨٤) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٦.

فجمع بين اللغتين[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المرجع والمردّ والمصير، فيعاقب ويثيب. وقيل: منه ابتداء المِنَّة، وإليه انتهاء الأمان. وعن أبيٍّ بن كعب قال: قال النبيُّ ﷺ في قوله: «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» قال: «لا فكرة في الربِّ»[٢]. وعن أنس: قال النبيُّ ﷺ: «إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى فانْتَهِ»[٣].

قلت: ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خَلَق كذا وكذا، حتى يقول له: مَن خَلَق ربَّكَ. فإذا بلغ ذلك، فلْيستعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ» وقد تقدَّم في آخر «الأعراف»[٤]. ولقد أحسن من قال:

ولا تُفْكِرنْ في ذِي العُلَا عَزَّ وجهُهُ فإنَّكَ تردَى إنْ فعلتَ وتُخذَلُ
ودونَك مصنوعَاتِه فاعتَبِرْ بِها وقُلْ مِثلَ ما قال الخليلُ المبَجَّلُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعلَ إلا هو. وفي «صحيح مسلم»[٥] عن عائشة رضي الله عنها قالت:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٤-٢٥٥ بنحوه، والبيت لرجل من بهراء اسمه فدكى كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٧٠، وسماه المرزبانيُّ في معجم الشعراء ص٤٤٦ المرفاقَ الطائيَّ وقال: وأحسبه لقباً .اهـ. وجاء فيهما: سيف، بدل: سعد.

(٢) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٢٥٥، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٦) عن سفيان، قوله.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٩٣ عن أنس، وفي إسناده: سنان بن سعد، ويقال: سعد بن سنان، وقد اختلف فيه فقال النسائي عنه: منكر الحديث. وقال أحمد بن حنبل: روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها، ما أعرف منها واحداً. تهذيب التهذيب ١/ ٦٩٢ - ٦٩٣. وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه في المسند (٣٩٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٣٥٠) من طريق عطاء الخراساني، عن أبي هريرة مرفوعاً. وإسناده منقطع، لأن عطاء لم يسمع من أبي هريرة.

(٤) ٩/ ٤٢٣.

(٥) برقم (٩٢٩)، وهو عند أحمد (٢٨٨).

لا والله ما قال رسولُ الله قطُّ: إنَّ الميِّتَ يعذَّب ببكاء أحدٍ، ولكنَّه قال: «إنَّ الكافرَ يزيدُه اللهُ ببكاء أهله عذاباً، وإنَّ اللهَ لهو أضحك وأبكى، وما تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى».

وعنها قالت: مَرَّ النبيُّ ﷺ على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «لو تعلمون ما أَعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فنزل عليه جبريلُ فقال: يا محمد! إنَّ الله يقول لك: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى». فرجع إليهم فقال: «ما خطوتُ أربعين خطوةً حتى أتاني جبريلُ فقال: إيتِ هؤلاء فقل لهم: إنَّ اللهَ تعالى يقول: هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى»[١]. أي: قضى أسبابَ الضحك والبكاء. وقال عطاء بن أبي مسلم: يعني: أفرح وأحزن؛ لأنَّ الفرح يجلب الضحك، والحزن يجلب البكاء[٢]. وقيل لعمر: هل كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم! والإيمان واللهِ أثبتُ في قلوبهم من الجبال الرواسي[٣]. وقد تقدّم هذا المعنى في «النمل»[٤] و «براءة»[٥].

قال الحسن: أضحك اللهُ أهلَ الجنة في الجنة، وأبكى أهلَ النار في النار[٦]. وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سَرَّه، وأبكى من شاء بأن غَمَّه[٧]. الضحَّاك: أَضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر[٨]. وقيل: أَضحك الأشجار بالنُّوَّار، وأبكى السحاب بالأمطار[٩]. وقال ذو النون: أَضحك قلوبَ المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوبَ الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته. وقال سهل

---

(١) زاد المسير ٨/ ٨٣، وأخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ١٣٠ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ عن ابن عمر بنحوه.

(٤) عند الآية (١٩).

(٥) ١٠/ ٣١٨ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ لكن عزاه إلى مجاهد والكلبي.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٨ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ .

(٩) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ٥٩ ، والنُّوَّار: الزهر. اللسان (نور).

ابن عبد الله: أضحك اللهُ المطيعين بالرحمة، وأبكى العاصين بالسخط. وقال محمد ابن علي الترمذيُّ: أضحك المؤمنَ في الآخرة، وأبكاه في الدنيا. وقال بسام بن عبد الله[1]: أضحك اللهُ أسنانهم وأبكى قلوبهم. وأنشد:

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحترِقُ ... وإنَّما ضِحْكُها زُورٌ ومُختَلَقُ
يا رُبَّ باكٍ بِعيْنٍ لا دموعَ لها ... ورُبَّ ضاحِكِ سنٍّ ما بِهِ رَمَقُ

وقيل: إنَّ الله خصَّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان، وليس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان. وقد قيل: إنَّ القِرْدَ وحده يضحك ولا يبكي، وإنَّ الإبل وحدها تبكي ولا تضحك[2]. وقال يوسف بن الحسين: سئل طاهر المقدسيُّ: أتضحك الملائكة؟ فقال: ما ضحكوا ولا كلُّ مَن دون العرش منذ خُلِقت جهنَّم.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خَلَق الموت والحياة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [تبارك:٢] قاله ابن بحر[3]. وقيل: أمات الكافر بالكفر، وأحيا المؤمن بالإيمان[4]، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الآية [١٢٢ من سورة الأنعام]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٣٦] على ما تقدّم، وإليه يرجع قول عطاء: أمات بِعَدْله، وأحيا بفضله. وقول من قال: أمات بالمَنْع والبخل، وأحيا بالجود والبذل. وقيل: أمات النطفة، وأحيا النَّسَمة. وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء. وقيل: يريد بالحياة: الخصب،

(١) هو: بسام بن عبد الله الأسدي الكوفي الصيرفي، سمع عكرمة وأبا جعفر محمد بن علي، روى عنه أبو أحمد الزبيري وأهل الكوفة، وعنده مراسيل. التاريخ الكبير ٢/ ١٤٤، والثقات لابن حبان ٦/ ١١٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٧ وعزاه إلى الثعلبي.

وبالموت: الجدب. وقيل: أنام وأيقظ[١]. وقيل: أمات في الدنيا وأحيا للبعث[٢].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: من أولاد آدم، ولم يُرِدْ آدم وحوَّاء بأنَّهما خُلقا من نُطْفة.

والنطفة: الماء القليل، مشتقٌّ من نطفَ الماءُ: إذا قَطَر[٣]. ﴿تُمْنَىٰ﴾ تُصبُّ في الرحم وتُراق، قاله الكلبيُّ والضحَّاك وعطاء بن أبي رباح[٤]، يقال: مَنَى الرجل وأمْنى من الْمَنِيِّ. وسُمِّيت مِنًى بهذا الاسم؛ لما يُمْنَى فيها من الدماء، أي: يُراق[٥]. وقيل: «تُمْنَى» تُقدَّر، قاله أبو عبيدة[٦]. يقال: مَنَيت الشيء: إذا قَدَّرته، ومُنِي له، أي: قُدِّر له، قال الشاعر:

حَتّى تُلاقِيَ ما يَمْنِي لَكَ الْمَانِي

أي: ما يُقدِّر لك القادر[٧].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: إعادة الأرواح في الأشباح للبعث

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٤ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٤ .

(٣) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٦ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥ ، ولم يعزه للكلبي، وعزاه إليه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ .

(٥) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٣١ .

(٦) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٣٨ .

(٧) الصحاح (مني)، والبيت سلف ٢/ ٢١٩ .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين والمدّ[١]، أي: وعد ذلك، ووَعْده صِدْق. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ قال ابن زيد: أغنى من شاء، وأفقر من شاء[٢]، ثم قرأ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] وقرأ: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] واختاره الطبريُّ[٣].

وعن ابن زيد أيضاً ومجاهد وقتادة والحسن: «أَغْنَى»: مَوَّلَ، «وأَقْنَى»: أَخْدم[٤].

وقيل: «أَقْنَى» جعل لكم قِنْية تقتنونها[٥]، وهو معنى أخدم أيضاً[٦].

وقيل: معناه: أرضى بما أعطى، أي: أغناه ثم رضَّاه بما أعطاه، قاله ابن عباس[٧].

وقال الجوهريُّ[٨]: قَنِيَ الرجل يَقْنَى قِنًى، مثل غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وأقناه اللهُ، أي: أعطاه الله ما يُقتنَى من القُنْية والنَّشَب. وأقناه أيضاً، أي: أرضاه. والقِنَى: الرضا، عن أبي زيد، قال: وتقول العرب: من أُعطِي مئةً من المعز، فقد أُعطِيَ القِنَى، ومن أُعطِي مئةً من الضأن، فقد أُعطِيَ الغنى، ومن أعطي مئة من الإبل، فقد أُعطِيَ المُنى. ويقال: أغناه الله وأقناه، أي: أعطاه ما يَسكُن إليه.

وقيل: «أغنى وأَقْنَى» أي: أغْنَى نفسه، وأفقر خَلْقه إليه، قاله سليمان التيميُّ[٩].

---

(١) السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٩.

(٣) في التفسير ٢٢/ ٨٥ دون ذكر آية البقرة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٣ عن مجاهد وقتادة والحسن.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ وعزاه إلى قتادة والحسن، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٨٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٨٣.

(٨) في الصحاح (قني).

(٩) أخرجه الطبري ٢٢/ ٨٤، وأبو الشيخ في العظمة (١٧٦).

وقال سفيان: أغنى بالقناعة، وأقنى بالرضا[١]. وقال الأخفش: أقنى: أفقر. قال ابن كيسان: أولد[٢]. وهذا راجع لما تقدَّم.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ «الشِّعْرَى»: الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء[٣]، وطلوعه في شدَّة الحرِّ، وهما الشِّعريان: العَبُور التي في الجوزاء، والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التي في الذراع[٤]، وتزعم العرب أنَّهما أختا سُهَيل.

وإنَّما ذكر أنَّه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره؛ لأنَّ العرب كانت تعبده، فأعلمهم اللهُ جلَّ وعزَّ أنَّ الشِّعْرى مربوب وليس بربٍّ. واختلف فيمن كان يعبده، فقال السديُّ: كانت تعبده حِمْيَر وخُزَاعة. وقال غيره: أوَّل من عبَده أبو كبشة ـ أحدُ أجداد النبيِّ ﷺ من قِبَلِ أمَّهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمُّون النبيَّ ﷺ: ابنَ أبي كبشة، حين دعا إلى الله وخالف أديانَهم، وقالوا: ما لقينا من ابنِ أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكرُ رسول الله ﷺ تمرُّ عليه: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كبشة ـ وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظِّمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضى أَيْلُولُ وارتفع الحَرُورُ ... وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُورُ[٥]

وقيل: إنَّ العرب تقول في خرافاتها: إن سُهيْلاً والشِّعرى كانا زوجين، فانحدر

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ .

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٠٥ عدا ما بين معترضتين فمن النهاية (كبش)، وشرح مشكل الآثار ٢/ ١٨٥ بنحوه، وقول أبي سفيان أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٢)، وأحمد (٢٣٧٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن الأثير في النهاية (أمر): ومنه حديث أبي سفيان: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة: أي: كثر وارتفع شأنه، يعني النبي ﷺ. اهـ. والبيت لأبي نواس وهو في ديوانه ص٣٢١ .

سُهَيل فصار يمانيًّا، فاتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرَّة فسمِّيت العبور، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناه فسمِّيت غميصاء؛ لأنَّها أخفى من الأخرى[١].

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ سمَّاها الأولى؛ لأنَّهم كانوا مِن قبل ثمود. وقيل: إنَّ ثمود مِن قبل[٢] عاد. وقال ابن زيد: قيل لها: عاد الأولى؛ لأنَّها أوَّل أمَّة أُهلِكت بعد نوح عليه السلام[٣]. وقال ابن إسحاق: هما عادان، فالأُولى أُهلِكت بالريح الصَّرصر، ثم كانت الأُخرى فأهلكت بالصيحة. وقيل: عاد الأولى هو: عاد بن إِرَمَ ابنِ عَوْصِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، وعاد الثانية من ولد عادٍ الأولى[٤]. والمعنى متقارب. وقيل: إنَّ عاداً الآخرة الجبَّارون، وهم قوم هود[٥].

وقراءة العامَّة: «عَاداً الْأُولَى» ببيان التنوين والهمز. وقرأ نافع وابن مُحَيصِن وأبو عمرو: «عَاداً لُّوْلَى»[٦] بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها، إلا أنَّ قالون والسوسيَّ يُظهِران الهمزة الساكنة. وقلبها الباقون واواً على أصلها، والعرب تقلب هذا القلب فتقول: قُمْ لَانَ عنَّا، وصُمْ لثْنَين، أي: قُمِ الآنَ، وصُمِ الاثنين[٧].

﴿وَثَمُودَا فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ ثمود: هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة[٨]. قُرِئَ: «ثَمُوداً» و«ثَمُود» وقد تقدَّم[٩]. وانتصب على العطف على عاد[١٠].

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣٥٤ بنحوه.

(٢) في (ظ): نسل.

(٣) الكشاف ٤/ ١٢٠ ولم يعزه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٠ وعزاه إلى ابن إسحاق.

(٥) المحرر الوجيز ٥/٢٠٨ .

(٦) السبعة ص٦١٥ ، والتيسير ص٢٠٤ – ٢٠٥ ، والنشر ١/ ٤١٠ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٦٨٧ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٢ .

(٨) الوسيط ٤/ ٢٠٥ .

(٩) ٩/ ٢٦٦ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨١ .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ وذلك لطول مدَّة نوح فيهم[١]، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا؛ فإنه كذَّاب، وإنَّ أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثلَ ما قلتُ لك[٢]. فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصيَّة أبيه.

وقيل: إنَّ الكناية ترجع إلى كلِّ مَن ذُكر من عاد وثمود وقوم نوح، أي: كانوا أكفرَ من مشركي العرب وأطغى. فيكون فيه تسلية وتعزية للنبيِّ ﷺ، فكأنَّه يقول له: فاصبر أنت أيضاً، فالعاقبة الحميدة لك.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يعني: مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم، أي: انقلبت[٣]، وصار عالِيَها سافلها. يقال: أَفَكْته، أي: قلبته وصرفته[٤]. «أَهْوَى» أي: خسف بهم بعد رَفْعها إلى السماء، رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض[٥]. وقال المبرِّد: جعلها تهوي. ويقال: هَوَى ـ بالفتح ـ يَهْوِي هُوِيًّا، أي: سقط[٦]. و«أَهْوَى» أي: أسقط[٧].

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: ألبسها ما ألبسها من الحجارة، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٨] [الحجر: ٧٤]، وقيل: إنَّ الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم، أي: غَشَّاها من العذاب ما غشَّاهم، وأُبهم؛ لأنَّ كلًّا منهم أهلِك بضرب غير ما أُهْلِك به الآخر. وقيل: هذا تعظيم الأمر.

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٠٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٨٩ عن قتادة.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٣٠ .

(٤) الصحاح (أفك).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٥ .

(٦) الصحاح (هوي).

(٧) تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٩ .

(٨) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٥ .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّك تشكُّ، والمخاطبة للإنسان المكذِّب، والآلاء: النِّعَم، واحدها: أَلًى وإِلًى وإِلْيٌ[1]. وقرأ يعقوب: «تَمَّارَى» بإدغام إحدى التاءين في الأخرى والتشديد[2].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ قال ابن جُرَيج ومحمد بن كعب: يريد أنَّ محمداً ﷺ نذيرٌ بالحقِّ الذي أنذر به الأنبياء قبله[3]، فإن أطعتموه أفلحتم، وإلَّا حلَّ بكم ما حلَّ بمكذِّبي الرسل السالفة.

وقال قتادة: يريد القرآن، وأنَّه نذير بما أنذرت به الكتب الأولى[4].

وقيل: أي: هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويفٌ لهذه الأمَّة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر، أي: مثل النذر[5]، والنذر في قول العرب بمعنى الإنذار[6]، كالنُّكُر بمعنى الإنكار، أي: هذا إنذار لكم. وقال أبو مالك: هذا الذي أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو في صحف إبراهيم وموسى[7]. وقال السديُّ: أخبرني أبو صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله تعالى: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ» إلى قوله: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٢ .

(٢) النشر ١/ ٣٠٠ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٧ ونسبها إلى ابن محيصن.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٨ .

(٦) لسان العرب (نذر).

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٤ .

النُّذُرِ الْأُولَى» كل هذه في صحف إبراهيم وموسى[١].

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ أي: قربت الساعة ودَنَت القيامة. وسمَّاها آزفة؛ لقرب قيامها عنده[٢]، كما قال: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا . وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧]. وقيل: سماها آزفة؛ لدنوِّها من الناس وقربها منهم[٣]؛ ليستعدُّوا لها؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريب. قال:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أنَّ رِكَابَنَا ... لمَّا تَزَلْ بِرِحالِنا وكأَنْ قَدِ[٤]

وفي «الصحاح»[٥]: أَزِف الترحُّل يَأْزَف أَزَفاً، أي: دنا وأَفِد، ومنه قوله تعالى: «أَزِفَتِ الْآزِفَةُ» يعني القيامة، وأَزِفَ الرجلُ، أي: عَجِل، فهو آزِف على فاعل، والمتآزِف: القصير وهو المتداني. قال أبو زيد: قلت لأعرابيٍّ ما الْمُحْبَنْطِئُ؟ قال: المتَكَأْكِئُ. قلت: ما الْمُتَكَأْكِئُ؟ قال: المتآزِف. قلت: ما المتآزف؟ قال: أنت أحمق! وتركني ومَرَّ.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها من دون الله من يؤخِّرها أو يقدِّمها. وقيل: كاشفة، أي: انكشاف، أي: لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله، فالكاشفة اسم بمعنى المصدر، والهاء فيه كالهاءِ في العاقبة والعافية والداهية والباقية[٦]، كقولهم: ما لفلان من باقية، أي: من بقاء[٧]. وقيل: أي: لا أحد يردُّ ذلك[٨]، أي:

---

(١) سلف ص٥٤ من هذا الجزء عن أبي مالك الغفاري بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٠٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٨ .

(٤) القائل النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٨ ، وفيه: أفد، بدل: أزف، وهما بمعنى. وجاء البيت في البيان والتبيين ٢/ ٢٨٠ كما في الرواية هنا.

(٥) مادة (أزف)، وحكاية أبي زيد الآتية ذكرها أبو طاهر المقرئ في كتابه أخبار النحويين، في ترجمة أبي زيد.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٣ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ .

إنَّ القيامة إذا قامت لا يكشفها أحدٌ من آلهتهم، ولا ينجِّيهم غير الله تعالى. وقد سمِّيت القيامةُ غاشيةً، فإذا كانت غاشية، كان ردُّها كشفاً، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف، أي: نفس كاشفة، أو: فرقة كاشفة، أو: حال كاشفة. وقيل: إنَّ «كاشِفة» بمعنى كاشف، والهاء للمبالغة، مثل راوية وداهية[١].

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن. وهذا استفهام توبيخ[٢] ﴿تَعْجَبُونَ﴾ تكذيباً به ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ انزجاراً وخوفاً من الوعيد[٣]. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ ما رُئيَ بعد نزول هذه الآية ضاحكاً إلا تبسُّماً[٤].

وقال أبو هريرة: لما نزلت: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ» قال أهل الصُّفَّة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع النبيُّ ﷺ بكاءَهم، بكى معهم، فبكينا لبكائه، فقال النبيُّ ﷺ: «لا يَلِجُ النارَ مَن بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنَّة مُصِرٌّ على معصيةِ الله، ولو لم تُذنبوا لذهب اللهُ بكم، ولجاء بقوم يُذنبون، فيغفر لهم ويرحمهم، إنَّه هو الغفور الرحيم»[٥].

وقال أبو حازم: نزل جبريلُ على النبيِّ ﷺ وعنده رجل يبكي، فقال له: من هذا؟ قال: «هذا فلان». فقال جبريل: إنَّا نَزِنُ أعمالَ بني آدم كلَّها إلا البكاء، فإنَّ الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحوراً من جهنَّم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: لاهون معرضون. عن ابن عباس، رواه الوالبيُّ والعوفيُّ عنه. وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة حِمْيَر ـ يقال: سمِّد لنا، أي: غنِّ لنا ـ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢١٠.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٩٦.

(٤) الكشاف ٤/ ٣٥.

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٨٩ بنحوه.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٥ عن رجل يقال له: خازم.

فكانوا إذا سمعوا القرآنَ يتلى، تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا[١]. وقال الضحَّاك: سامدون: شامخون متكبِّرون[٢]. وفي «الصحاح»[٣]: سمَدَ سُمُوداً: رفع رأسه تكبُّراً، وكلُّ رافع رأسه، فهو سامد، قال:

سَـوَامِـدَ الـلَّـيْـلِ خِـفَـافَ الْأَزْوَادْ[٤]

يقول: ليس في بطونها عَلَف. وقال ابن الأعرابيّ: سَمَدْتُ سُمُوداً: علوتُ. وسَمَدتِ الإبلُ في سيرها: جدَّتْ. والسُّمُود: اللَّهو، والسامد: اللَّاهي، يقال للقَيْنَة: أسمِدينا، أي: أَلهينا بالغناء. وتسميد الأرض: أن يجعل فيها السماد، وهو سِرْجين ورَمَاد. وتسميد الرأس: استئصال شعره، لغة في التَّسبِيد. واسمأَدَّ الرجلُ ـ بالهمز ـ اسْمِئْداداً، أي: وَرِم غضباً.

وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ معنى «سَامِدُونَ»: أن يجلسوا غير مصلِّين ولا منتظرين الصلاة. وقال الحسن: واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام، ومنه ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال: «ما لي أراكم سامدين» حكاه الماورديُّ[٥]. وذكره المهدويُّ عن عليٍّ، وأنَّه خرج إلى الصلاة فرأى الناسَ قياماً فقال: «ما لكم سامدون» قاله المهدويُّ[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٧ عدا ما بين معترضتين فمن غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٨١ ، وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٧ عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٨ ، وأبو يعلى (٢٦٨٥) عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) مادة (سمد).

(٤) الراجز رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص٣٩ ، وقبله:

قـلَّـصـن تـقـلـيـص الـنـعـام الـوخَّـاد

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ ، وفيه قول علي والحسن، والحديث أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٨٠ مرفوعاً، وذكر محققه أن في بعض النسخ الخطية: عن علي رحمة الله عليه. اهـ. ولم نقف عليه مرفوعاً، وسيأتي من قول علي في التعليق الآتي.

(٦) وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٤٠٥ ، والطبري ٢٢/ ١٠٠ .

والمعروف في اللغة: سَمَد يَسْمُد سُمُوداً: إذا لَهَا وأعرض. وقال المبرِّد: سامدون خامدون، قال الشاعر:

أَتَى الحدثَانُ نِسوةَ آلِ حَرْبٍ ... بِمَقْدورٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا[١]

وقال صالح أبو الخليل: لما قرأ النبيُّ ﷺ: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ» لم يُرَ ضاحكاً إلا مبتسِّماً حتى مات ﷺ. ذكره النحَّاس[٢].

قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا۩﴾ قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. وهو قولُ ابن مسعود[٣]. وبه قال أبو حنيفة والشافعيُّ[٤]. وقد تقدَّم أوَّل السورة[٥] من حديث ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ سجد فيها، وسجد معه المشركون. وقيل: إنَّما سجد معه المشركون؛ لأنَّهم سمعوا أصواتَ الشياطين في أثناء قراءةِ رسول الله ﷺ عند قوله: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» وأنَّه قال: تلك الغَرَانِيقُ الْعُلَا وشفاعتهنَّ تُرْتَجَى.كذا في رواية سعيد بن جُبير: ترتجى. وفي رواية أبي العالية: وشفاعتهنَّ ترتضى، ومثلهنَّ لا يُنسى. ففرح المشركون وظنُّوا أنَّه من قول محمد ﷺ، على ما تقدَّم بيانه في «الحج»[٦]. فلما بلغ الخبرُ بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبيِّ ﷺ رجعوا ظنًّا منهم أنَّ أهل مكة آمنوا، فكان أهل مكة أشدَّ عليهم، وأخذوا في

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ ، والبيت اختلف في نسبته، فنسبه المرزباني في معجم الشعراء ص١٧٧ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ٦٧ إلى فضالة بن شريك، ونسبه القالي في ذيل الأمالي ٣/ ١١٥ إلى الكميت الأسدي، ونسبه المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٩٤١ لعبد الله بن الزبير الأسدي.

(٢) لم نقف عليه عند النحاس، وسلف ص٦٧ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٠٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٢٣ .

(٥) ص٥ من هذا الجزء.

(٦) ١٤/ ٤٢٥ .

تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم.

وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة، وهو قول ابن عمر، كان لا يراها من عزائم السجود[١]. وبه قال مالك.

وروى أبيٌّ بن كعب ﷺ: كان آخر فِعْلِ النبيِّ ﷺ ترك السجود في المفصَّل. والأوَّل أصحُّ، وقد مضى القول فيه آخر «الأعراف»[٢] مبيناً، والحمد لله ربِّ العالمين.

تم تفسير سورة «والنجم»

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٢٣ .

(٢) ٩/ ٤٣٦ .

تفسير سورة النَّجم

وهى مكية.

قال البخارى: حدثنا نصر بن على، أخبرنى أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: أولُ سورة أنزلت فيها سَجْدة: ﴿ والنَّجم﴾، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلا رأيته أخذ كفاً من تُرَاب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافراً، وهو أمية بن خَلَف[١].

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع، ومسلم وأبو داود والنسائى، من طرق، عن أبى إسحاق، به[٢]. وقوله فى الممتنع: إنه أمية بن خلف فى هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾.

قال الشعبى وغيره: الخالق يُقسِم بما شاء من خَلْقه، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق. رواه ابن أبى حاتم.

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ فقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: يعنى بالنجم: الثُّريَّا إذا سقطت مع الفجر. وكذا رُوى عن ابن عباس، وسفيان الثورى. واختاره ابن جرير. وزعم السدى أنها الزهرة.

وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾: إذا رُمى به الشياطين. وهذا القول له اتجاه.

وروى الأعمش، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ يعني: القرآن إذا نزل. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ .لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ .تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

وقوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذى يسلك على غير طريق

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٣).

(٢) صحيح البخارى برقم (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢) وصحيح مسلم برقم (٥٧٦) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٦) وسنن النسائى (٢/ ١٦٠).

بغير علم، والغاوى: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله [سبحانه وتعالى][(١)] رسوله وشَرْعَه عن مشابهة أهل[(٢)] الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وعن[(٣)] علم الشىء وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو، صلوات الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى: ما يقول قولا عن هوى وغرض، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أى: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملا موفَّراً من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد.

حدثنا يزيد، حدثنا حَرِيز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن مَيْسَرَة، عن أبى أمامة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثلُ الحيين ـ أو: مثل أحد الحيين ـ: رَبِيعة ومُضَر». فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضر؟ قال: «إنما أقول ما أقول»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عُبَيد الله بن الأخنس، أخبرنا الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن مَاهَك، عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتنى قريش فقالوا: إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم فى الغضب. فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، فوالذى نفسى بيده، ما خرج منى إلا حق».

ورواه أبو داود عن مُسَدَّد وأبى بكر بن أبى شيبة، كلاهما عن يحيى بن سعيد القَطَّان، به[(٥)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، عن ابن عَجْلان، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ قال: «ما أخبرتكم أنه الذى من عند الله، فهو الذى لا شَكّ فيه». ثم قال: لا نعلمه يُروَى إلا بهذا الإسناد[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن محمد، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا أقول إلا حقا». قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إنى لا أقول إلا حقا»[(٧)].

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا

(١) زيادة من م. (٢) فى م: «أصحاب». (٣) فى م: «وهى».

(٤) المسند (٥/٢٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٨١): «رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة».

(٥) المسند (٢/١٦٢) وسنن أبى داود برقم (٣٦٤٦).

(٦) مسند البزار برقم (٢٠٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١/١٧٩): «فيه أحمد بن منصور الرمادى وهو ثقة، وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح، وعبد الله بن صالح مختلف فيه».

(٧) المسند (٢/٣٤٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٩٠) من طريق المقبرى به وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

رأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علَّمه الذى جاء به إلى الناس **﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾**، وهو جبريل، عليه السلام، كما قال: **﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ .مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾** [التكوير: ١٩ ـ ٢١].

وقال هاهنا: **﴿ذُو مِرَّةٍ﴾** أى: ذو قوة. قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن.

وقال قتادة: ذو خَلْق طويل حسن.

ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عليه السلام، ذو منظر حسن، وقوة شديدة. وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبى هريرة وابن عمرو[(١)] أن النبى ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغنىٍّ، ولا لذى مرّة سَوِىّ»[(٢)].

وقوله: **﴿فَاسْتَوَىٰ﴾** يعنى: جبريل، عليه السلام. قاله مجاهد والحسن وقتادة، والربيع بن أنس **﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾** يعنى: جبريل، استوى فى الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد. قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذى يأتى منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذى يأتى منه النهار. وكذا قال ابن زيد، وغيرهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا مُصَرِّف بن عمرو اليامى أبو القاسم، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة بن مصرف، حدثنى أبى، عن الوليد ـ هو ابن قيس ـ عن إسحاق بن أبى الكَهْتَلَة أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته فسد الأفق. وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك[(٣)] قوله: **﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾**.

وقد قال ابن جرير هاهنا قولا لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله: أنه ذهب إلى أن المعنى: **﴿فَاسْتَوَىٰ﴾** أى: هذا الشديد القوى ذو المرة هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم **﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾** أى: استويا جميعا بالأفق، وذلك ليلة الإسراء كذا قال، ولم يوافقه أحد على ذلك. ثم

---

(١) فى م: «ابن عمرو وأبى هريرة».

(٢) حديث عبد الله بن عمرو: رواه أبو داود فى السنن برقم (١٦٣٤) والترمذى فى السنن برقم (٦٥٢) عن ريحان بن يزيد عنه وحديث أبى هريرة: رواه النسائى فى السنن (٥/ ٩٩) وبن ماجه فى السنن برقم (١٨٣٩) عن سالم بن أبى الجعد عنه.

(٣) فى م: «فكذلك».

شرع يوجه ما قال من حيث العربية فقال: وهذا كقوله تعالى: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٧]، فعطف بالآباء على المكنّى فى ﴿كنا﴾ من غير إظهار «نحن»، فكذلك قوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ. وَهُوَ﴾ قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

ألم تَرَ أنّ النبعَ يَصْلُبُ عُودُه ... ولا يَسْتَوِى والخِرْوعُ المُتَقصِّفُ[١]

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسولُ الله ﷺ فى الأرض، فهبط عليه جبريل، عليه السلام، وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعنى ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل، عليه السلام، أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة «اقرأ»، ثم فتر الوحى فترة ذهب النبى ﷺ فيها مرارا ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هَمّ بذلك ناداه جبريل من الهواء: «يا محمد، أنت رسول الله حقا، وأنا جبريل». فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تَبَدّى له جبريل ورسول الله ﷺ فى الأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عُظْم خلقه الأفق، فاقترب منه[٢]، وأوحى إليه عن الله، عز وجل، ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذى جاءه بالرسالة، وجلالة قَدْره، وعلوّ مكانته عند خالقه الذى بعثه إليه. فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حيث قال:

حدثنا سلمة بن شَبِيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبى عمران الجَوْنى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا قاعد إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكَز بين كتفى، فقمت إلى شجرة فيها كَوَكْرَى الطير، فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر. فَسَمَت وارتفعت حتى سَدّت الخافقين وأنا أقلب طرفى، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلى جبريل كأنه حِلْس لاط[٣] فعرفتُ فضل علْمه بالله علىّ. وفُتِح لى بابٌ من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم، وإذا دونَ الحجاب رفرفة الدر والياقوت. وأوحى إلىّ ما شاء الله أن يوحى».

ثم قال البزار: لا يرويه إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلا مشهورا من أهل البصرة[٤].

قلت: الحارث بن عُبَيد هذا هو أبو قدامة الإيادى، أخرج له مسلم فى صحيحه إلا أن ابن معين ضعَّفه، وقال: ليس هو بشىء. وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم الرازى: كتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن حبان: كَثُر وَهَمه فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. فهذا الحديث من غرائب رواياته، فإن فيه نكارة وغرابة ألفاظ وسياقاً عجيبا، ولعله منام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن عاصم، عن أبى وائل، عن عبد الله

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٢٧/ ٢٥) وهو لجرير بن عطية.
(٢) فى م: «وأقرب منه».
(٣) فى م: «لاطى».
(٤) مسند البزار برقم (٥٨).

قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سَدَّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم[(١)]. انفرد به أحمد[(٢)].

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن مُنَبِّه، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس قال: سأل النبى ﷺ جبريل أن يراه فى صورته، فقال: ادع ربك. فدعا ربه، عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه النبى ﷺ صعِق، فأتاه فَنَعَشَه ومسح البزاق عن شِدْقه.

انفرد به أحمد[(٣)]. وقد رواه ابن عساكر فى ترجمة «عتبة بن أبى لهب»، من طريق محمد بن إسحاق، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن أبيه، عن هَبَّار بن الأسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه فى ربه، سبحانه، فانطلق حتى أتى النبى ﷺ، فقال: يا محمد، هو يكفر بالذى دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى. فقال النبى ﷺ: «اللهم ابعث إليه كلبا من كلابك». ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال: يا بنى، ما قلت له؟ فذكر له ما قال له، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك» قال: يا بنى، والله ما آمنُ عليك دُعاءه فسرنا حتى نزلنا الشراة، وهى مأْسَدَة، ونزلنا إلى صَوْمَعة راهب، فقال الراهب: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأُسْدُ فيها كما تسرح الغنم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سنى وحقى، وإن هذا الرجل قد دعا على ابنى دعوةً ـ والله ـ ما آمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابنى عليها، ثم افرشوا حولها. ففعلنا، فجاء الأسد فَشَمّ وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تَقَبّض، فوثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه ثم هزمه هَزْمة فَفَضخ رأسه. فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد[(٤)].

وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أى: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين، أى: بقدرهما إذا مُدّا. قاله[(٥)] مجاهد، وقتادة.

وقد قيل: إن المراد بذلك بُعدُ ما بين وتر القوس إلى كبدها.

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل فى اللغة لإثبات المخبر عنه ونفى ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أى: ما هى بألين من الحجارة، بل هى مثلها أو تزيد عليها فى الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:

(١) فى أ: «أعلم».
(٢) المسند (١/ ٣٩٥).
(٣) المسند (١/ ٣٢٢).
(٤) لم أجد ترجمة عتبة بن أبى لهب فى تاريخ دمشق المخطوط ولا فى مختصره لابن منظور.
وقد روى الأثر أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٣٨٩) من طريق محمد بن إسحاق به.
(٥) فى م: «قال».

١٤٧]، أي: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد[١]، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾.

وهذا الذى قلناه، من أن هذا المقترب الدانى الذى صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبى ذر، وأبى هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريبا إن شاء الله. وروى مسلم فى صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين»[٢]. فجعل هذه إحداهما. وجاء فى حديث شريك بن أبى نمر، عن أنس فى حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا تكلم[٣] كثير من الناس فى متن هذه الرواية، وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى، لا أنها تفسير لهذه الآية؛ فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ فى الأرض لا ليلة الإسراء؛ ولهذا قال بعده: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ**﴾، فهذه هى ليلة الإسراء، والأولى كانت فى الأرض.

وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيبانى، حدثنا زر بن حبيش قال: قال عبد الله بن مسعود فى هذه الآية: ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح»[٤].

وقال ابن وهب: حدثنا ابن لَهيعة، عن أبى الأسود، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: كان أولَ شأن رسول الله ﷺ أنه رأى فى منامه جبريل بأجياد، ثم إنه خرج ليقضى حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد، يا محمد. فنظر رسول الله ﷺ يمينا وشمالا فلم ير شيئاً[٥] ـ ثلاثاً ـ ثم رفع بصره فإذا هو ثان إحدى رجليه مع[٦] الأخرى على أفق السماء فقال: يا محمد، جبريل، جبريلُ ـ يُسكنّه ـ فهرب النبى ﷺ حتى دخل فى الناس، فنظر فلم ير شيئا، ثم خرج من الناس، ثم نظر فرآه، فدخل فى الناس فلم ير شيئاً، ثم خرج فنظر فرآه، فذلك قول الله عز وجل: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . [مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ]**[٧]﴾، إلى قوله: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾، يعنى جبريل إلى محمد، ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾: ويقولون: القاب نصف الإصبع. وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما.

رواه ابن جرير وابن أبى حاتم، من حديث ابن وهب[٨]. وفى حديث الزهرى عن أبى سلمة، عن جابر شاهد لهذا.

وروى البخارى عن طَلْق بن غنام، عن زائدة، عن الشيبانى قال: سألت زراً عن قوله: ﴿ **فَكَانَ**

---

(١) فى م، أ: «ولا ترديد».
(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٦).
(٣) فى م: «ولهذا قد تكلم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).
(٥) فى م: «أحداً». (٦) فى م، أ: «على». (٧) زيادة من م.
(٨) تفسير الطبرى (٢٧/٢٧).

قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح[١].

وقال ابن جرير: حدثنى ابن بَزِيع البغدادى، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا[٢] رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض[٣].

فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح، وقد ذُكر عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾، قال: أوحى إليه: «ألم أجدك يتيما»، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح: ٤].

وقال غيره: أوحى [الله][٤] إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾: قال مسلم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكيع، حدثنا الأعمش، عن زياد بن حُصَين، عن أبى العالية، عن ابن عباس: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين[٥].

وكذا رواه سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله. وكذا قال أبو صالح والسّدى وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين [أو مرة][٦]، وقد خالفه ابن مسعود وغيره[٧]، وفى رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهى محمولة على المقيدة بالفؤاد. ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح فى ذلك شىء عن الصحابة، رضى الله عنهم، وقولُ البغوى فى تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسنُ وعكرمة. فيه نظر، والله أعلم[٨].

وقال الترمذى: حدثنا محمد بن عمرو بن نَبْهان[٩] بن صفوان، حدثنا يحيى بن كثير العنبرى، عن سَلْم بن جعفر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه قلت: أليس الله يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾؟ [الأنعام: ١٠٣] قال: ويحك! ذاك إذا تَجَلى بنوره الذى هو نُورُه، وقد رأى ربه مرتين.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٧).
(٢) فى م، أ: «ليا».
(٣) تفسير الطبرى (٢٧/ ٢٩).
(٤) زيادة من أ.
(٥) صحيح مسلم برقم (١٧٦).
(٦) زيادة من م .
(٧) فى م: «ابن عمرو عنه».
(٨) انظر تفسير البغوى (٧/ ٤٠٣).
(٩) فى م: «منهال».

ثم قال: حسن غريب[(١)].

وقال أيضا: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن مجالد، عن الشعبي قال: لقي ابن عباس كعباً بعرفة، فسأله عن شيء فكبَّر حتى جاوبته الجبال، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين. وقال مسروق: دخلتُ على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قَفَّ له شعري. فقلت: رُوَيداً، ثم قرأتُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾.

فقالت: أين يُذهَبُ بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمدا رأى ربه أو كتم شيئا مما أُمرَ به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقد أعظم الفرية[(٢)]، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى ومرة في جياد[(٣)]، وله ستمائة جناح قد سد الأفق[(٤)].

وقال النسائي: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد، عليهم السلام؟![(٥)].

وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيتَ ربك؟ فقال: «نور أنى أراه». وفي رواية: «رأيت نورا»[(٦)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن موسى بن عُبيدةَ، عن محمد ابن كعب قال: قالوا: يا رسول الله، رأيت[(٧)] ربك؟ قال: «رأيته بفؤادي مرتين» ثم قرأ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾.

ورواه ابنُ جرير، عن ابن حُمَيد، عن مِهْرَان، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «لم أره بعيني، ورأيته بفؤادي مرتين» ثم تلا: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[(٨)].

(١) سنن الترمذي برقم (٣٢٧٩).
(٢) في م: «أعظم على الله الفرية».
(٣) في م: «أجنادين».
(٤) سنن الترمذي برقم (٣٢٧٨).
(٥) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٣٩).
(٦) صحيح مسلم برقم (١٧٨).
(٧) في أ: «هل رأيت».
(٨) تفسير الطبري (٢٧/٢٧).

ثم قال ابن أبى حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، أخبرنى عَبّاد بن منصور قال: سألت عكرمة: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، فقال عكرمة: تريد أن أخبرك أنه قد رآه؟ قلت: نعم. قال: قد رآه، ثم قد رآه. قال: فسألت عنه الحسن فقال: رأى جلاله وعَظَمته ورِداءَه.

وحدثنا أبى، حدثنا محمد بن مجاهد، حدثنا أبو عامر العَقَدى، أخبرنا أبو خلدة، عن أبى العالية قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نهرا، ورأيت وراء النهر حجابا، ورأيت وراء الحجاب نورا لم أر غير»[١].

وذلك غريب جدا، فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربى عز وجل»[٢].

فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإمام أحمد أيضا:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن أيوب، عن أبى قِلاَبة عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أتانى ربى الليلة فى أحسن صورة ـ أحسبه يعنى فى النوم ـ فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟» قال: «قلت: لا. فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بَرْدَها بين ثدييّ ـ أو قال: نَحْرِى ـ فعلمت ما فى السموات وما فى الأرض، ثم قال: يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟» قال: «قلت: نعم، يختصمون فى الكفارات والدرجات». قال: «وما الكفارات والدرجات؟» قال: «قلت: المكث فى المساجد بعد الصلوات، والمشى على الأقدام إلى الجُمُعات[٣]، وإبلاغ الوضوء فى المكاره، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم، إنى أسألك الخيرات[٤] وترك المنكرات، وحبّ المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضنى إليك غير مفتون». قال: «والدرجات بَذْلُ الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»[٥].

وقد تقدم فى آخر سورة «ص»، عن معاذ، نحوه[٦]. وقد رواه ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس، وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال:

حدثنى أحمد بن عيسى التميمى، حدثنى سليمان بن عُمَر بن سَيَّار، حدثنى أبى، عن سعيد بن زَرْبِى، عن عمر بن سليمان[٧]، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «رأيت ربى فى

(١) ورواه ابن المنذر كما فى الدر المنثور (٧/٦٤٨) وهو مرسل.
(٢) المسند (١/ ٢٨٥).
(٣) فى هـ، أ: «الجماعات».
(٤) فى م: «إنى أسألك فعل الخيرات».
(٥) المسند (١/ ٣٦٨).
(٦) انظر تفسير الآية: ٦٩ من سورة «ص».
(٧) فى أ: «سليم».

أحسن صورة فقال لى: يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا يارب. فوضع يده بين كتفى فوجدت بَرْدَها بين ثديىّ، فعلمت ما فى السموات والأرض، فقلت: يارب، فى الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجُمُعات[١]، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فقلت: يارب، إنك اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمتَ موسى تكليما، وفعلت وفعلت، فقال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وِزْرَك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أفعل؟» قال: «فأفضى إلى بأشياء لم يؤذن لى أن أحدثكموها» قال: «فذاك قوله فى كتابه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾، فجعل نور بصرى فى فؤادى، فنظرت إليه بفؤادى». إسناده ضعيف[٢].

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر بسنده إلى هَبَّار بن الأسود، رضى الله عنه؛ أن عتبة بن أبى لهب لما خرج فى تجارة إلى الشام قال لأهل مكة: اعلموا أنى كافر بالذى دنا فتدلى. فبلغ قوله رسولَ الله ﷺ، فقال: «سَلَّطَ الله عليه كلبا من كلابه». قال هبار: فكنت معهم، فنزلنا بأرض كثيرة الأسد، قال: فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يَشَمّ رؤوس القوم واحدا واحدا، حتى تخطى إلى عتبة فاقتطع رأسه من بينهم[٣].

وذكر ابن إسحاق وغيره فى السيرة: أن ذلك كان بأرض الزرقاء، وقيل: بالسراة، وأنه خاف ليلتئذ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله، فجاء الأسد فجعل يزأر، ثم تخطاهم إليه فضغم رأسه، لعنه الله.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾، هذه هى المرة الثانية التى رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التى خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الإسراء بطرقها وألفاظها فى أول سورة «سبحان» بما أغنى عن إعادته هاهنا، وتقدم أن ابن عباس، رضى الله عنهما، كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية. وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة، رضى الله عنهم، والتابعين وغيرهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زر بن حُبَيْش، عن ابن مسعود فى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتثر من ريشه التهاويل: الدرّ والياقوت»[٤]. وهذا إسناد جيد قوى.

وقال أحمد أيضا: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شَرِيك، عن جامع بن أبى راشد، عن أبى وائل،

---

(١) فى أ: «الجماعات».

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/٢٨).

(٣) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ٦٣) ولم يقع لى فى ترجمته فيما بين يدى من مخطوطات تاريخ دمشق.

(٤) المسند (١/ ٤٦٠).

عن عبد الله قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق: يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم»[١] . إسناده حسن أيضا.

وقال أحمد أيضا: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنى حسين، حدثنى عاصم بن بَهْدَلَة قال: سمعت شَقِيق بن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: قال: رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدرة[٢] المنتهى، وله ستمائة جناح» سألت عاصما عن الأجنحة، فأبى أن يخبرنى، قال: فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب[٣] . وهذا أيضا إسناد جيد.

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنى حسين، حدثنى عاصم بن بَهْدلة[٤]، حدثنى[٥] شقيق[٦] قال[٧]: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل،عليه السلام، فى خُضر معلق به الدر[٨]»[٩] . إسناد جيد أيضا.

وقال الإمام أحمد: حدثنى يحيى، عن إسماعيل، حدثنا عامر قال: أتى مسروقُ عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله لقد قَفّ شعرى لما قلت، أين أنت من ثلاث من حَدّثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾الآية [لقمان: ٣٤] ، ومن أخبرك أن محمدا قد كتم[١٠]، فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين[١١] .

وقال أحمد أيضا: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن داود، عن الشعبى، عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل[١٢] رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إنما ذاك جبريل». لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطا من السماء إلى الأرض، سادّاً عُظْمُ خلقه ما بين السماء والأرض.

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث الشعبى، به[١٣] .

رواية أبى ذر، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عبد الله بن شقيق

(١) لم أجده فى المسند وذكره الحافظ ابن حجر فى أطرف المسند (٤/١٥٨) .
(٢) فى م: «السدرة».
(٣) المسند (١/٤٠٧).
(٤) فى أ: «حصين».
(٥) فى م: «قال سمعت».
(٦) فى م: «شقيق بن سلمة».
(٧) فى م، أ: «يقول».
(٨) فى م: «الدر، به».
(٩) المسند (١/٤٠٧).
(١٠) فى أ: «كتم شيئا من الوحى».
(١١) المسند (٦/٤٩).
(١٢) فى أ: «سالت».
(١٣) المسند (٦/٢٤١) وصحيح البخارى برقم (٤٨٥٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٧) بنحوه.

قال: قلت لأبى ذر: لو رأيتُ رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه، عز وجل؟ فقال: إنى قد سألته فقال: «قد رأيته، نورا أنى أراه»(١).

هكذا وقع فى رواية الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين فقال: حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة، حدثنا وَكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه».

وقال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أى شىء كنت تسأله؟ قال: قلت: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نورا»(٢).

وقد حكى الخلال فى «علله» أن الإمام أحمد سُئل عن هذا الحديث فقال: ما زلتُ منكراً له، وما أدرى ما وجهه(٣).

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن عون الواسطى، أخبرنا هُشَيْم، عن منصور، عن الحكم، عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبى ذر قال: رآه بقلبه، ولم يره بعينه.

وحاول ابن خُزَيمة أن يدعى انقطاعه بين عبد الله بن شَقيق وبين أبى ذر، وأما ابن الجوزى فتأوله على أن أبا ذر لعله سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء، فأجابه بما أجابه به، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات. وهذا ضعيف جدا، فإن عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، قد سألت عن ذلك بعد الإسراء، ولم يثبت لها الرؤية. ومن قال: إنه خاطبها على قدر عقلها، أو حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه ـ كابن خُزيمة فى كتاب التوحيد(٤) ـ فإنه هو المخطئ، والله أعلم.

وقال النسائى: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشام(٥) عن منصور، عن الحكم، عن يزيد بن شريك، عن أبى ذر قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره(٦).

وقد ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن على بن مُسْهِر، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أنه قال فى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، قال: رأى جبريل(٧)، عليه السلام(٨).

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريل فى صورته مرتين. وكذا قال قتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم.

---

(١) المسند (٥/١٤٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٧٨).

(٣) ووجه الإنكار لا محل له فى المتن، فإن له شواهد وهو دليل على نفى الرؤية فى الدنيا.

(٤) التوحيد لابن خزيمة (ص٢٠٥، ٢٠٦)، (ص٢٢٥).

(٥) فى م، أ: «هشيم».

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٣٦).

(٧) فى أ: «رأى رسول الله ﷺ جبريل».

(٨) صحيح مسلم برقم (١٧٥).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾: قد تقدم فى أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان، وغشيها نور الرب، وغشيها ألوان ما أدرى ما هى .

وقال الإمام أحمد: حدثنا مالك بن مِغْوَل، حدثنا الزبير بن عدى، عن[1] طلحة، عن مرة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السابعة[2]، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثا: أُعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المُقحمات . انفرد به مسلم[3].

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع، عن أبى العالية، عن أبى هريرة أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ قال: لما أسرى برسول الله انتهى إلى السدرة، فقيل له: هذه السدرة [قال][4]: فغشيها نور الخلاق، وغشيتها الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجر، قال: فكلمه عند ذلك، فقال له: سل.

وقال[5] ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: كان أغصان السدرة لؤلؤا وياقوتا وزبرجدا، فرآها محمد، ورأى ربه بقلبه.

وقال ابن زيد: قيل: يا رسول الله، أىّ شىء رأيت يغشى تلك السدرة؟ قال: «رأيتُ يغشاها فَرَاشٌ من ذهب، ورأيت على كل ورقة من ورقها مَلَكا قائما يسبح الله، عز وجل»[6].

وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال ابن عباس: ما ذهب يمينا ولا شمالا، ﴿ وَمَا طَغَى﴾: ما جاوز ما أمر به.

وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جَنَّةَ المَأوَى وَمَا فَوْقَها، ولَو رأى غَيرُه ما قد رَآه لتَاهَا

وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾، كقوله: ﴿لِنُرِيَكَ[7] مِنْ آيَاتِنَا﴾ [طه: ٢٣] أى: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة «سبحان» وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا محمد بن طلحة، عن الوليد بن قيس، عن إسحاق بن أبى الكَهْتَلة[8]

(١) فى أ: «بن». (٢) فى م: «السادسة».
(٣) المسند (١/ ٤٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٣).
(٤) زيادة من أ. (٥) فى م: «فقال».
(٦) وهذا من مراسيل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.
(٧) فى م: «لنريه». (٨) فى م، أ: «الكهبلة».

قال محمد: أظنه عن ابن مسعود ـ أنه قال: إن محمدا لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأله أن يُريه نفسه فى صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صَعد معه حين صعد به. وقوله: ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ قال: فلما أحسَّ[1] جبريل ربه، عز وجل، عاد فى صورته وسجد. فقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ قال: خَلْقَ جبريل، عليه السلام.

هكذا رواه الإمام أحمد، وهو غريب[2].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾.

يقول تعالى مُقَرِّعا للمشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التى بناها خليل الرحمن، عليه [الصلاة و][3] السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ﴾؟ وكانت «اللات»[4] صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله [تعالى][5]، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. وحكى عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا «اللاتّ» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتُّ للحجيج فى الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

وقال البخارى: حدثنا مسلم ـ هو ابن إبراهيم ـ حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجوزاء، عن ابن عباس[6]: ﴿اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ قال: كان اللات رجلا يلت السَّويق، سويق الحاج[7].

قال ابن جرير: وكذا العُزَّى من العزيز.

وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهى بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما

(١) فى أ: «أخبر».
(٢) المسند (١/٤٠٧).
(٣) زيادة من م.
(٤) فى م: «العزى».
(٥) زيادة من م.
(٦) فى م: «عن ابن عباس عن».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٩).

قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزَّى لكم فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم»[١].

وروى البخارى من حديث الزهرى، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال فى حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أقَامرْك، فليتصدق»[٢].

وهذا محمول على من سبق لسانه فى[٣] ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته فى زمن الجاهلية، كما قال النسائى: أخبرنا أحمد بن بكَّار وعبد الحميد بن محمد قالا: حدثنا مَخْلَد، حدثنا يونس، عن أبيه، حدثنى مصعب بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى، فقال لى أصحابى: بئس ما قلت ! قلت هجرا! فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. وانفث عن شمالك ثلاثا، وتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»[٤].

وأما «مناة» فكانت بالمُشَلَّل[٥] ـ عند قُدَيد، بين مكة والمدينة ـ وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخارى عن عائشة نحوه[٦]. وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التى نص عليها فى كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها.

قال ابن إسحاق فى السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، بها[٧] سدنة وحجاب، وتهدى لها كما يهدى[٨] للكعبة، وتطوف بها كطَوْفَاتها بها، وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم، عليه السلام، ومسجده. فكانت لقريش وبنى كنانة العُزّى بنخلة، وكانت سدنتها وحجابها[٩] بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم[١٠].

قلت: بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها، وجعل يقول:

يَا عُزّ، كُفْرَانَكِ لا سُبْحَانَكِ   إنى رأيت الله قَدْ أهَانَكِ

وقال النسائى: أخبرنا على بن المنذر، أخبرنا ابن فُضَيْل، حدثنا الوليد بن جُمَيْع، عن أبى الطُّفَيْلِ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سَمُرات، فقطع السَّمُرات، وهدم البيت الذى كان عليها. ثم أتى النبى ﷺ

---

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير سورة «محمد» الآية: ١١.
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٠).
(٣) فى م: «إلى».
(٤) سنن النسائى (٧/٨).
(٥) فى أ: «بالمنال».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٦١).
(٧) فى م: «لها».
(٨) فى م: «تهدى».
(٩) فى م: «وحجبتها».
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام (١/٨٣).

فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً». فرجع خالد، فلما أبصرته السَّدَنة ـ وهم حَجَبتها ـ أمعنوا فى الحِيَل وهم يقولون: «يا عزى، يا عزى». فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن[1] التراب على رأسها، فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى»[2].

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سَدَنتها وحجابها بنى مُعَتِّب[3].

قلت: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف.

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المُشلَلّ بقديد، فبعث رسول الله ﷺ [إليها][4] أبا سفيان صخر بن حرب، فهدمها. ويقال: على بن أبى طالب.

قال: وكانت ذو الخَلَصة[5] لدَوس وخثعم وبَجِيله، ومن كان ببلادهم من العرب بتَبَالة.

قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، وللكعبة التى بمكة الكعبة الشامية.

فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلى فهدمه.

قال: وكانت فَلْس[6] لطيئ ولمن يليها بجبلى طيئ من[7] سَلمى وأجا.

قال ابن هشام: فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليه على بن أبى طالب فهدمه، واصطفى منه سيفين: الرَّسُوب والمِخْذَم، فَنَفَّله إياهما رسول الله ﷺ، فهما سيفا على[8].

قال ابن إسحاق: وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له: ريام. وذكر أنه كان به كلب أسود، وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه، وهدما البيت.

قال ابن إسحاق: وكانت «رُضَاء» بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها فى الإسلام:

ولقد شَدَدْتُ عَلَى رُضَاء شَدَّةً ... فَتَرَكْتُها قَفْراً بِقَاع أسحَمَا

قال ابن هشام: إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين[9] سنة، وهو القائل:

وَلَقَد سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاة وَطُولِهَا ... وَعُمِّرْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِينَ مِئِينَا
مِائَةً حَدَتْها بَعْدَهَا مِئَتَان لِى ... وازددت[10] مِنَ عَدَد الشُّهور سِنينَا
هَلْ مَا بَقِى إلاّ كَمَا قَدْ فَاتَنَا ... يَومٌ يَمُرُّ وَلَيلةٌ تَحْدُونَا

(١) فى م: «تحثو».
(٢) النسائى فى السنن الكبرى رقم (١١٥٦٧).
(٣) فى م: «مغيث». (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «الخليفة». (٦) فى م: «قيس».
(٧) فى م،أ: «بين».
(٧) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٨٧).
(٩) فى أ: «وستون». (١٠) فى م، أ: «وعمرت».

قال ابن إسحاق: وكان ذو الكَعَبَات لبكر وتغلب ابنى وائل، وإياد بِسَنْداد وله يقول أعشى بنى قيس بن ثعلبة:

بَيْنَ الخَوَرْنَق والسَّدير وبَارِقٍ والبيت ذى الكَعَبَات من سَنْدَاد[1]

ولهذا قال [تعالى][2]: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾؟.

ثم قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾؟ أى: أتجعلون له ولدا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أى: جورا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها.

ثم قال منكرا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أى: من تلقاء أنفسكم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى: من حجة، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ أى: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ أى: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له.

ثم قال: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أى: ليس كل من تمنى خيرا حصل له، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء:١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود[3] شيئا يحصل له.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، حدثنا أبو عَوَانة، عن عمر[4] بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدرى ما يكتب له من أمنيته». تفرد به أحمد[5].

وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ﴾ أى: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف فى الدنيا والآخرة ،فهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ:٢٣]، فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهم لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٨٧، ٨٨). (٢) زيادة من م.
(٣) فى م: «رد». (٤) فى أ: «عمرو».
(٥) المسند (١/ ٣٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٥١): «رجاله رجال الصحيح».

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، كما قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى: لا يجدى شيئا، ولا يقوم أبدا مقام الحق. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»[(١)].

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أى: أعرض عن الذى أعرض عن الحق واهجره.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾أى: وإنما[(٢)] أكثر[(٣)] همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ولذلك[(٤)] قال: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أى: طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه.

وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة [رضى الله عنها][(٥)] قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[(٦)] وفى الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مَبْلَغَ علمنا».

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أى: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذى لا يجور أبداً، لا فى شرعه ولا فى قَدَره.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا

(١) صحيح البخارى برقم (٥١٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) فى م: «وإنا». (٣) فى أ: «أكبر». (٤) فى م، أ: «ولهذا».
(٥) زيادة من م.
(٦) المسند (٦/ ٧١).

أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغنى عما سواه، الحاكم فى خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أى: يجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أى: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾. وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر[(١)]، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمَم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ، قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فَزِنَا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تَمنَّى وتَشْتَهِى، والفرج يُصدِّق ذلك أو يُكَذِّبه».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث عبد الرزاق، به[(٢)].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن[(٣)] ثور، حدثنا مَعْمَر، عن الأعمش، عن أبى الضُّحَى؛ أن ابن مسعود قال: «زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشى، ويُصدّق ذلك الفرج أو يُكَذِّبه، فإن تقدم بفرجه كان زانيا، وإلا فهو اللَّمَم»[(٤)]. وكذا قال مسروق، والشعبى.

وقال عبد الرحمن بن نافع ـ الذى يقال له: ابن لبابة الطائفى ـ قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: القُبلة، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل، وهو الزنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: إلا ما سلف. وكذا قال زيد بن أسلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن مجاهد أنه قال: فى هذه الآية: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾قال: الذى يلم بالذنب ثم يَدَعه، قال الشاعر:

إنْ تَغْفِرِ اللهُمَّ تغفر جَمّا ... وأَىّ عَبْد لَكَ مَا أَلَمَّا؟!

(١) فى م: «معمر بن أرطاة» وزيادة «ابن أرطاة» خطأ. انظر: تعليق أحمد شاكر على المسند حديث رقم (٧٧٠٥).
(٢) المسند (٢/ ٢٧٦) وصحيح البخارى برقم (٦٦١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٧).
(٣) فى أ: «أبو».
(٤) تفسير الطبرى (٢٧/ ٣٩).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد فى قول الله: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه، قال: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!

وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعا[1].

قال ابن جرير: حدثنى سليمان بن عبد الجبار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!

وهكذا رواه الترمذى، عن أحمد بن عثمان أبى[2] عثمان البصرى، عن أبى عاصم النبيل. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق. وكذا قال البزار: لا نعلمه يُروى متصلا إلا من هذا الوجه. وساقه ابن أبى حاتم والبغوى من حديث أبى عاصم النبيل، وإنما ذكره البغوى فى تفسير سورة «تنزيل»، وفى صحته مرفوعا نظر[3].

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا يونس، عن الحسن، عن أبى هريرة ـ أراه رفعه ـ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: «اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود»، قال: «ذلك[4] الإلمام»[5].

وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبى عَدِىّ، عن عوف، عن الحسن، فى قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود.

وحدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن أبى رَجاء، عن الحسن فى قول الله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيجتنبها ويتوب منها.

وقال ابن جرير[6]، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾: يلم بها فى الحين. قلت: الزنا؟ قال: الزنا ثم يتوب.

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن عُيَيْنَة، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن

(١) تفسير الطبرى (٢٧/ ٣٩).
(٢) فى م: «أى».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٨٤) وتفسير البغوى (٧/ ١٢٨).
(٤) فى م: «فتلك» وفى أ: «فعلك».
(٥) تفسير الطبرى (٢٧/ ٣٩).
(٦) فى أ: «جريج».

عباس قال: ﴿اللَّمَم﴾: الذى يلم المرَّةَ.

وقال السدى: قال أبو صالح: سئلت عن ﴿اللَّمَم﴾ فقلت: هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب. وأخبرت بذلك ابن عباس فقال: لقد أعانك عليها مَلَك كريم. حكاه البغوى.

وروى ابن جرير من طريق المثنى بن الصباح ـ وهو ضعيف ـ عن عمرو بن شعيب؛ أن عبد الله ابن عمرو قال: ﴿اللَّمَم﴾: ما دون الشرك.

وقال سفيان الثورى، عن جابر الجُعفى، عن عطاء، عن ابن الزبير: ﴿إِلاَّ اللَّمَم﴾ قال: ما بين الحدين: حد الدنيا[1] وعذاب الآخرة. وكذا رواه شعبة، عن الحكم، عن ابن عباس، مثله سواء.

وقال العَوْفِىّ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِلاَّ اللَّمَم﴾: كل شىء بين[2] الحدين: حد الدنيا[3] وحد الآخرة، تكفره الصلوات، وهو[4] اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته فى الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شىء ختمه الله بالنار، وأخَّر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أى: رحمته وَسِعَت كل شىء، ومغفرته تَسَع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أى: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى تصدر[5] عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذَّر، ثم قسمهم فريقين: فريقا للجنة، وفريقا للسعير[6]. وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾: قد كتب الملك الذى يُوكَّل به رزقَه وأجلَه وعمله، وشقى أم سعيد.

قال مكحول: كنا أجنة فى بطون أمهاتنا، فسقط منا من سقط، وكنا فيمن بقى ثم كنا مراضع فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا يَفَعَةً، فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا شباباً فهلك منا من هلك. وكنا فيمن بقى ثم صرنا شيوخا ـ لا أبا لك ـ فماذا بعد هذا ننتظر؟[7] رواه ابن أبى حاتم عنه.

وقوله: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٤٩].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا عَمْرو الناقد، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا الليث، عن يزيد

---

(١) فى م، أ: «الزنا». (٢) فى م: «من». (٣) فى أ: «الزنا».
(٤) فى م: «فهو». (٥) فى م ،أ: «ستصدر». (٦) فى أ: «فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير».
(٧) فى م، أ: «ينتظر».

ابن أبى حبيب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتى بَرّة، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت بَرَّة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»(١).

وقد ثبت أيضا فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا خالد الحَذَّاء، عن عبد الرحمن بن أبى بكْرَة، عن أبيه قال: مدح رَجُلٌ رجلاً عند النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! قطعت عُنُقَ صاحبك ـ مراراً ـ إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا ـ والله حسيبه، ولا أزكى على الله أحدا ـ أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك»(٢).

ثم رواه عن غُنْدَر، عن شعبة، عن خالد الحذاء، به. وكذا رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه، من طرق، عن خالد الحذاء، به(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه فى وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو فى وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو فى وجوههم التراب.

ورواه مسلم وأبو داود، من حديث الثورى، عن منصور، به(٤).

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) ﴾.

يقول تعالى ذَامّا لمن تولى عن طاعة الله: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ. وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلا ثم قطعه. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون فى أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «أكدينا»، ويتركون العمل.

وقوله: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ أى: أعند هذا الذى قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٤٢).
(٢) المسند (٥/ ٤٥).
(٣) المسند (٥/ ٤١) وصحيح البخارى برقم (٢٦٦٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٨٠٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٤٤).
(٤) صحيح مسلم برقم (٣٠٠٢) وسنن أبى داود برقم (٤٨٠٤).

معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما فى يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عيانا؟! أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلعا؛ ولهذا جاء فى الحديث: «أنفق بلالا، ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالا»(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ قال سعيد بن جبير، والثورى: أى بلغ جميع ما أمر به.

وقال ابن عباس: ﴿وَفَّىٰ﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿وَفَّىٰ﴾ ما أُمر به. وقال قتادة: ﴿وَفَّىٰ﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذى قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهى، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يُقتَدى به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحِمْصى، حدثنا آدم بن أبى إياس العسقلانى، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبى أمامة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾، قال: «أتدرى ما وفى؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «وفى عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار».

ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير، وهو ضعيف(٢).

وقال الترمذى فى جامعه: حدثنا أبو جعفر السِّمْنانى، حدثنا أبو مُسْهِر، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بحير بن سعد(٣)، عن خالد بن مَعْدان، عن جبير بن نُفَير، عن أبى الدرداء وأبى ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل، أنه قال: «ابن آدم، اركع لى أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره»(٤).

قال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أبى، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا زَبَّان بن قائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى:

(١) جاء من حديث أبى هريرة وبلال وابن مسعود. أما حديث أبى هريرة: فرواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٢٨٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٣٤١) من طريقين عن محمد بن سيرين عنه به.

وأما حديث بلال: فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٣٥٩) من طريق أبى إسحاق عن مسروق عنه به.

وأما حديث ابن مسعود: فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ١٩١) من طريق يحيى بن وثاب عن مسروق عنه به.

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٤٣).

(٣) فى م، أ: «يحيى بن سعيد».

(٤) سنن الترمذى برقم (٤٧٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧]» حتى ختم الآية. ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب، عن رِشْدِين بن سعد، عن(١) زبَّان، به(٢).

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه فى صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[فاطر: ١٨]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ أى: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى، رحمه الله، ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، رضى الله عنهم، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به»(٣)، فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله، كما جاء فى الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»(٤). والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ(٥)﴾ الآية [يس: ١٢]. والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده، هو أيضا من سعيه وعمله، وثبت فى الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا».

وقوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أى: فيخبركم به، ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شرا فشر، وهكذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ أى: الأوفر.

---

(١) فى م: «بن».

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٤٣)ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠/ ١٩٢) من كلا الطريقين. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١١٧): «فيه ضعفاء وثقوا».

قلت فى الأولى: ابن لهيعة وهو ضعيف.

وفى الثانية: رشدين بن سعد وهو ضعيف.

وفيهما: زيان بن فائد وهو ضعيف.

(٣) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

(٤) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٣١) وأبو داود فى السنن برقم (٣٥٢٨) والترمذى فى السنن برقم(١٣٥٨) والنسائى فى السنن (٧/ ٢٤٠) من حديث عائشة رضى الله عنها، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٥) فى م: ﴿وآثارهم وكل شيء أحصيناه﴾.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ﴾ .

يقول تعالى [مخبرا][(١)]: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أى: المعاد يوم القيامة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سُوَيد بن سَعيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن عبد الرحمن ابن سابط، عن عمرو بن ميمون الأوْدىّ قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بنى أود، إنى رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار.

وذكر البغوى من رواية أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبى بن كعب، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾، قال: لا فكرةَ فى الرب[(٢)].

قال البغوى: وهذا مثل ما رُوى عن أبى هريرة مرفوعا: «تفكَّروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق، فإنه لا تحيط[(٣)] به الفِكْرة».

كذا أورده، وليس بمحفوظ بهذا اللفظ[(٤)]، وإنما الذى فى الصحيح: «يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول: من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولْيَنْتَه»[(٥)]. وفى الحديث الآخر الذى فى السنن: «تفكروا فى مخلوقات الله، ولا تفكروا[(٦)] فى ذات الله ، فإن الله خلق ملكا ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مَسِيرة ثلاثمائة سنة» أو كما قال[(٧)].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أى: خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ

(١) زيادة من أ.
(٢) معالم التنزيل للبغوى (٤١٧/٧).
(٣) فى م: «يحيط».
(٤) معالم التنزيل للبغوى (٤١٧/٧) ورواه ابن عساكر فى المجلس التاسع والثلاثون ومائة من الأمالى (١/٥٠) كما فى السلسلة الصحيحة (٣٩٥/٤) من طريق محمد بن سلمة البلخى عن بشر بن الوليد عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة به، وفيه بشر بن الوليد وهو ضعيف.
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٢٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٣٤).
(٦) فى أ: «ولا تتفكروا».
(٧) لم أجده بهذا اللفظ، وقد روى أبو داود القطعة الثانية فى سننه برقم (٤٧٢٧) من حديث جابر رضى الله عنه، مرفوعا بلفظ: «أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، وإن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام».
والقطعة الأولى: رويت من حديث أبى ذر مرفوعا: «تفكروا فى خلق الله، ولا تتفكروا فى الله فتهلكوا».
أخرجه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٤).

الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (١) . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ. أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠] .

وقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾ أى: كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهى النشأة الآخرة يوم القيامة. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أى: مَلَّك عباده المال، وجعله لهم قُنْيَة مقيما عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: ﴿أَغْنَىٰ﴾: موَّل، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أخدم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن عباس، ومجاهد أيضا: ﴿أَغْنَىٰ﴾: أعطى، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: رَضّى.

وقيل: معناه: أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمى بن لاحق.

وقيل: ﴿أَغْنَىٰ﴾ من شاء من خلقه و ﴿أَقْنَىٰ﴾: أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير(٢)، وهما بعيدان من حيث اللفظ.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له: «مِرزَم الجوزاء»، كانت طائفة من العرب يعبدونه.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ﴾ وهم: قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ٦ـ ٨]، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

وقوله: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ أى: دمرهم فلم يبق منهم أحدا، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أى: من قبل هؤلاء، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أى: أشد تمردا من الذين من بعدهم، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يعنى: مدائن لوط، قَلَبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يعنى: من الحجارة التى أرسلها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

قال قتادة: كان فى مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فانضرم عليهم الوادى شيئا من نار ونفط وقَطِران كفم الأتون(٣). رواه(٤) ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن محمد بن وهب بن عطية، عن الوليد ابن مسلم، عن خليد، عنه به. وهو غريب جدا.

---

(١) فى م: «تمنى».

(٢) تفسير الطبرى (٢٧/ ٤٤).

(٣) فى أ: «كتم الأنوف».

(٤) فى م: «ورواه».

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ أي: ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمترى؟ قاهل قتادة.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ يا محمد. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾.

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعنى: محمدا ﷺ ﴿مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ أى: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أى: اقتربت القريبة، وهى القيامة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أى: لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه.

ثم قال تعالى منكرا على المشركين فى استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم: ﴿تَعْجَبُونَ[(١)]﴾ من أن يكون صحيحا، ﴿وَتَضْحَكُونَ[(٢)]﴾ منه استهزاء وسخرية، ﴿وَلا تَبْكُونَ﴾ أى: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال سفيان الثورى، عن أبيه، عن ابن عباس قال: الغناء، هى يمانية، اسمِدْ لنا: غَنِّ[(٣)] لنا. وكذا قال عكرمة.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿سَامِدُونَ﴾: معرضون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب. وفى رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السدى.

ثم قال آمرا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاسْجُدُوا[(٤)] لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أى: فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوا.

قال البخارى: حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: سجد النبى ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد، حدثنا رباح، عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن عكرمة بن خالد، عن جعفر بن المطلب بن أبى وَدَاعة، عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسَجَد من عنده، فرفعتُ رأسى وأبيتُ أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب،

---

(١) فى م: «يعجبون».

(٢) فى م: «يضحكون».

(٣) فى م، أ: «تغنى».

(٤) فى م: «فليسجدوا» وهو خطأ.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٢).

فكان بعد ذلك لا يسمع أحدا يقرؤها[١] إلا سجد معه.

وقد رواه النسائى فى الصلاة، عن عبد الملك بن عبد الحميد، عن أحمد بن حنبل، به[٢].

ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ. أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾، فإن النذير هو: الحذر لما يعاين من الشر، الذى يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]. وفى الحديث: «أنا النذير العُريان». أى: الذى أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عُريانا مسرعا، مناسب لقوله: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أى: اقتربت القريبة، يعنى: يوم القيامة، كما قال فى أول السورة التى بعدها: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر:١]، قال الإمام أحمد:

حدثنا أنس بن عياض، حدثنى أبو حازم ـ لا أعلم إلا عن سهل بن سعد ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خُبْزَتَهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه». وقال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ ـ قال أبو ضَمْرَة: لا أعلم إلا عن سهل بن سعد ـ قال: «مثلى ومثل الساعة كهاتين» وفرق بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام ، ثم قال: «مثلى ومثل الساعة كمثل فَرَسَى رِهَان» ، ثم قال: «مثلى مثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشى أن يسبق ألاح بثوبه: أتيتم أتيتم». ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا ذلك»[٣]. وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان، ولله الحمد والمنة، وبه الثقة والعصمة.

آخر [تفسير][٤] سورة النجم ولله الحمد والمنة

---

(١) فى م، أ: «يقرأ بها».

(٢) المسند (٦/ ٣٩٩) وسنن النسائى (٢/ ١٦٠).

(٣) المسند (٥/ ٣٣١).

(٤) زيادة من م، أ.

سورة والنجم

مكّيّة، وهي إحدى وستّون أو[1] اثنتان[2] وستّون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المراد بـ﴿ٱلنَّجْمِ﴾ إمّا الثريّا فإنّه اسم غالبٌ له، أو جنس النجوم. وبهُويّه غروبُه، وقيل: طلوعه، يقال: "هَوى هَويًّا" بوزن "قَبول" إذا غرَب، و"هُويًّا" بوزن "دُخول" إذا علا وصعِد. وأمّا النجم مِن نجوم القرآن فهُويّه نزوله، والعامل في ﴿إِذَا﴾ فعل القسَم فإنّه بمعنى مطلقِ الوقت منسلِخ مِن معنى الاستقبال، كما في قولك: "آتيك إذا احمرَّ البُسر".[3]

وفي الإقسام بذلك على نزاهته عليه السلام عن شائبة الضلال والغَواية مِن البراعة البديعةِ وحُسنِ الموقع ما لا غايةَ وراءه، أمّا على الأوّلين فلأنّ النجمَ شأنُه أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنّه قيل: والنجم الذي يهتدي به السابلة إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي: ما عدل عن طريق الحقّ الذي هو مَسلَك الآخرة ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: وما اعتقد باطلًا قطُّ، أي: هو في غاية الهدى والرُّشد، وليس ممّا تتوهّمونه مِن الضلال والغَواية في شيء أصلًا.

وأمّا على الثالث فلأنّه تنويهٌ بشأن القرآن، كما أُشيرَ إليه في مطلع سورة يس وسورة الزخرف، وتنبيهٌ / على مناط اهتدائه عليه السلام ومدار رشاده، [١٣٧ظ]

١ س: وقيل.

٢ س: ثنتان.

٣ هذا القول للعرب في كتاب سيبويه، ٣/٦٠.

كأنّه قيل: والقرآنِ الذي هو عَلَم في الهداية إلى مناهج الدِّين ومسالك الحقّ ما ضلّ عنها محمّد عليه السلام وما غوى.

والخطاب لقريش، وإيرادُه عليه السلام بعنوان صاحبيّته لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خُبرًا ببراءته عليه السلام ممّا نُفي عنه بالكلّيّة وباتّصافه عليه السلام بغاية الهدى والرَّشاد، فإنّ طُول صحبتهم له عليه السلام ومشاهدتَهم لمحاسن شئونه العظيمة مقتضيةٌ لذلك حتمًا.

وتقييدُ القسم بوقت الهُويّ على الوجه الأخير ظاهر، وأمّا على الأوّلين فلأنّ النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء، ولا يعلم المشرِق مِن المغرِب ولا الشَّمال مِن الجنوب، وإنّما يهتدي به عند هبوطه أو صعوده مع ما فيه مِن كمال المناسبة؛ لِما سيُحكى مِن تدلّي جبريلَ مِن الأفق الأعلى ودنوّه منه عليهما السلام، هذا هو اللائق بشأن التنزيل الجليل.

وأمّا حَمْل هُويّه على انتثاره يوم القيامة أو على انقضاض النجم الذي يُرجَم به أو حملُ النجم على النبات وحَمْلُ هُوِيّه على سقوطه على الأرض أو ظهوره منها،[١] فممّا لا يناسب المقام.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي: وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه أصلًا، فإنّ المراد استمرار نفي النطق عن الهوى، لا نفيُ استمرار النطق عنه، كما مرّ مرارًا.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الذي ينطق به مِن القرآن ﴿إِلَّا وَحْىٌ﴾ مِن الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكِّدة لـ﴿وَحْىٌ﴾ رافعة لاحتمال المجاز مفيدةٌ للاستمرار التجدّدي.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: مَلَك شديدٌ قُواه وهو جبريلُ عليه السلام، فإنّه الواسطة في إبداء الخوارق. وناهيك دليلًا على شدّة قوّته أنّه قلَع قُرى قوم لوط

---

[١] هذه الوجوه في الكشّاف للزمخشري، ٣١٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٥/٣.

مِن الماء الأسود الذي تحت الثرى وحَمَلها على جناحه ورفعها إلى السماء ثمّ قَلَبها، وصاح بثمودَ[١] صيحةً فأصبحوا جاثمين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أسرع مِن رجعة الطرف.[٢]

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: حَصَافةٍ[٣] في عقله ورأيه ومتانةٍ في دينه ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ / عطفٌ على ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ بطريق التفسير، فإنّه إلى قوله تعالى: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ بيان لكيفيّة التعليم، أي: فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى عليها دون الصورة التي كان يتمثّل بها كلّما هبط بالوحي، وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحبَّ أن يراه في صورته التي جُبل عليها، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحِراء[٤] فطلع له جبريلُ عليهما السلام مِن المشرق فسدّ الأرض مِن المغرب وملأ الأفق، فخرَّ رسول الله عليه السلام، فنزل جبريلُ في صورة الآدميّين فضمّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه.[٥] [١٣٨و]

قيل: ما رآه أحد مِن الأنبياء في صورته غير النبيّ عليهم السلام، فإنّه رآه فيها مرّتين مرّةً في الأرض ومرّةً في السماء.[٦] وقيل: استوى بقوّته على ما جُعل له مِن الأمر.[٧]

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: أفقِ الشمس، حالٌ مِن فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: أراد الدنوَّ مِن النبيّ عليهما السلام ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: استرسل مِن الأفق الأعلى مع تعلُّق به فدنا مِن النبيّ، يقال: "تدلّت الثمرة" و"دلّى رجليه مِن السرير" و"أدلى دَلْوه"، والدوالي: التمر المعلّق.

---

١ س: ثمود.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٦/٤.

٣ وفي هامش م: إحكام. «منه».

٤ حِراء: جبل مِن جبال مكّة على ثلاثة أميال، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل نزول الوحي يتعبّد في غار مِن هذا الجبل، وفيه أتاه جبريل عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٣٣/٢.

٥ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٤٠١/٧؛ واللباب لابن عادل، ١٦٠/١٨.

٦ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٤٠١/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١٦/٤.

٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٦/٣.

﴿فَكَانَ﴾ أي: مقدار امتداد ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: مقدارهما، فإنّ القاب والقِيب والقاد والقِيد والقِيس: المقدار. وقيل: فكان جبريلُ عليه السلام كما في قولك: "هو منّي معقدَ الإزار".[١] ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: على تقديركم، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات، ١٤٧/٣٧]، والمراد تمثيلُ ملكة الاتِّصال وتحقيقُ استماعه لِما أوحي إليه بنفي البُعد المُلبِس.

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: جبريلُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبد الله تعالى، وإضماره قبل الذِّكر لغاية ظهوره كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر، ٤٥/٣٥]. ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي: مِنَ الأمور العظيمة التي لا تفي بها العبارة، أو فأوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريلَ ما أوحى. قيل: أوحى إليه أنّ الجنّةَ محرَّمة على الأنبياء حتّى تدخلها، وعلى الأمم حتّى تدخلها أمّتك.[٢]

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي: فؤاد محمّد عليه السلام ﴿مَا رَأَىٰ﴾ أي: ما رآه ببصره مِن صورة جبريلَ عليهما السلام، / أي: ما قال فؤاده لمّا رآه: لمْ أعرِفك، ولو قال ذلك لَكان كاذبًا؛ لأنّه عرَفه بقلبه كما رآه ببصره. وقُرئ: "مَا كَذَّبَ"،[٣] أي: صدّقه ولم يشكّ أنّه جبريلُ بصورته. [١٣٨ظ]

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي: أتُكذِّبونه فتُجادلونه على ما يراه معاينةً؟ أو أبَعد ما ذُكر مِن أحواله المنافية للمُماراة تُمارونه؟ مِن "المِراء" وهو الملاحاة والمجادلة، واشتقاقه مِن "مَرْي الناقةِ" كأنّ كلًّا مِن المتجادلَين يمري ما عند صاحبه. وقُرئ: "أَفَتَمْرُونَهُ"،[٤] أي: فتغلبونه في المِراء مِن "مارَيته فمَريته"،

١ كتاب سيبويه، ٤٤١٤/١؛ الصحاح للجوهري، «عقد».
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٤.
٣ قرأ بها أبو جعفر وهشام. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والشعبي، والهَمْداني عن طلحة، وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٢٣.

ولِما فيه مِن معنى الغلَبة عُدّي بـ﴿عَلَىٰ﴾، كما يقال: "غلبتُه على كذا". وقيل: أفتُمرونه: أفتجحدونه، مِن "مراه حقَّه"، أي:[١] جحَده.[٢]

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: وبالله لقد رأى جبريلَ في صورته مرّةً أخرى مِن النزول، نُصبت النَّزْلة نَصْبَ الظرف الذي هو مرّة؛ لأنّ "الفعلة" اسم للمرّة مِن الفعل، فكانت في حكمها. وقيل: تقديره: ولقد رآه نازلًا نزلةً أخرى فنصبُها على المصدر.[٣]

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقِلال هَجَر،[٤] وورقُها كآذان الفُيول تنبع مِن أصلها الأنهار التي ذَكَرها الله تعالى في كتابه، يسير الراكب في ظِلّها سبعين عامًا لا يقطعها. و﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ موضع الانتهاء أو الانتهاء، كأنّها في منتهى الجنّة. وقيل: إليها ينتهي عِلم الخلائق وأعمالهم ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: ينتهي إليها أرواح الشهداء.[٥] وقيل: ينتهي إليها ما يهبط مِن فوقها ويصعد مِن تحتها.[٦]

قيل: إضافة السِّدرة إلى المنتهى إمّا إضافة الشيء إلى مكانه كقولك أشجار البستان، أو إضافة المحلّ إلى الحالّ كقولك: "كتاب الفقه"، والتقدير: سدرةٌ عندها منتهى العلوم، أو إضافة المُلك إلى المالك على حذف الجارّ والمجرور، أي: سدرة المنتهى إليه وهو الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم، ٤٢/٥٣].[٧]

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: الجنّة التي يأوي إليها المتّقون أو أرواح الشهداء، والجملة حاليّة. قيل: الأحسنُ أن يكون الحال هو الظرف و﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ مرتفعٌ به على الفاعليّة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ظرف زمان لـ﴿رَءَاهُ﴾، لا لِما بعده مِن الجملة المنفيّة كما قيل،[٨] فإنّ "ما" النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها.

---

١ س: إذا.

٢ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٧/٤.

٣ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٣٧/٣.

٤ هجر: هي قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلُّها هجر. **معجم البلدان** للحموي، ٣٩٣/٥.

٥ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٧/٤.

٦ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٣٧/٣.

٧ الوجهان في **اللباب** لابن عادل، ١٧٣/١٨.

٨ وفي هامش م: إمام رازي. «منه». | انظر: **تفسير الرازي**، ٢٤٥/٢٨؛ ونقله ابن عادل في **اللباب**، ١٧٣/١٨.

والغِشيان بمعنى التغطية والسَّتر، ومنه "الغواشي"، أو بمعنى الإتيان، يقال: "فلان يغشاني كلَّ حين"، أي: يأتيني، والأوّل هو الأليَق بالمقام.

[١٣٩و] / وفي إبهام ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ مِن التفخيم ما لا يخفى، وتأخيرُه عن المفعول للتشويق إليه، أي: ولقد رآه عند السِّدرة وقتَ ما غشيها ما غشيها ممّا لا يكتنهه الوصفُ ولا يفي به البيانُ كيفًا ولا كمًّا. وصيغةُ المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورتها البديعة أو للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدّد.

قيل: يغشاها الجمّ الغفير مِن الملائكة يعبدون الله تعالى عندها،[١] وقيل: يزورونها متبرِّكين بها كما يزور الناسُ الكعبةَ، وقيل: يغشاها سُبُحاتُ أنوار الله عزّ وجلّ[٢] حين يتجلّى لها كما تجلّى للجبل، لكنّها كانت أقوى مِن الجبل وأثبتَ، حيث لم يصبها ما أصابه مِن الدكّ، وقيل: يغشاها فَراش أو جراد مِن ذهب، وهو قول ابن[٣] عبّاس وابن مسعود والضحّاك.[٤]

ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «رأيتُ السِّدرة يغشاها فَراش مِن ذهب، ورأيتُ على كلّ ورقة مَلَكًا قائمًا يسبِّح الله تعالى»،[٥] وعنه عليه السلام: «يغشاها رَفرف[٦] مِن طير خُضر».[٧]

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: ما مال بصرُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزه مع ما شاهَدَ هناك مِن الأمور المذهِلة ما لا يحصى؛ بل أثبتَه إثباتًا صحيحًا متيقّنًا، أو ما عَدَل عن رؤية العجائب التي أُمِر برؤيتها ومُكِّن منها وما جاوَزها.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.
٢ مرويّ بمعناه عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٢/٢١.
٣ س + ابن قول.
٤ كما في جامع البيان للطبري، ٤١/٢١-٤٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٠٦/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.
٥ جامع البيان للطبري، ٤٢/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٠٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.
٦ وفي هامش م: جماعة. «منه».
٧ لم أجِده في مظانّه. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٢٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤. وفي صحيح البخاري، ١٦١/٦ (٤٨٥٨) في تفسير الآية الثامنة عشرة مِن هذه السورة مِن حديث ابن مسعود رضيَ الله عنه، قال: «رأى رَفرفًا أخضرَ قد سدَّ الأفق».

﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ أي: والله لقد رأى الآيات التي هي كُبراها وعُظماها حين عُرج به إلى السماء، فأُري مِن عجائب المُلك والملكوت ما لا يُحيط به نطاق العبارة. ويجوز أن يكون ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ صفةً لـ"الآيات" والمفعول محذوف، أي: شيئًا عظيمًا مِن آيات ربّه، وأن يكون ﴿مِن﴾ مزيدةً.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ هي أصنام كانت لهم، فـ"اللات" كانت لثقيف بالطائف، وقيل: لقريش بنَخْلَة.[١] وهي "فَعْلة" مِن "لوى"؛ لأنّهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها. وقُرئ بتشديد "التاء"[٢] على أنّه اسم فاعل اشتُهر به رجل كان يلتّ السمن بالزيت ويُطعِمه الحاجّ، وقيل: كان / يلتّ [١٣٩ظ] السَّوِيق[٣] بالطائف ويُطعمه الحاجّ، فلمّا مات عكفوا على قبره يعبدونه،[٤] وقيل: كان يجلس على حَجَر فلمّا مات سُمّي الحَجَر باسمه، وعُبد مِن دون الله، وقيل: كان الحَجَر على صورته.[٥]

و"العزّى" تأنيث "الأعزّ" كانت لغطفان[٦] وهي سمُرةٌ كانوا يعبدونها، فبَعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالدَ بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها واضعةً يدها على رأسها وهي تُولوِل فجعل خالدٌ يضربها بالسيف حتّى قتلها، فأخبر رسول الله عليه السلام، فقال: «تلك العُزّى ولن تُعبَد أبدًا».[٧]

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٨/٤. | نخلة: موضع بالحِجاز قريب مِن مكّة. **معجم البلدان** للحموي، ٢٧٧/٥.

٢ قرأ بها رُويس. **النشر** لابن الجزري، ٣٧٩/٢.

٣ السَّويق: طعام يتّخذ مِن الحنطة والشعير، ولتُّه: بلُّه بالماء. **لسان العرب** لابن منظور، «سوق»، «لتت».

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٨/٤.

٥ القول في **اللباب** لابن عادل، ١٧٨/١٨-١٧٩.

٦ غَطَفان: وهي قبيلة عظيمة مِن قبائل سعد بن قيس بن عيلان، وهم بطن متّسع كثير البطون والشعوب، منهم بنو عبس وبنو ذُبيان، كانت منازلهم ممّا يلي وادي القرى وجبلي طيئ أجأ وسلمى، ثمّ تفرّقوا في الفتوحات الإسلاميّة، واستولت على مواطنهم قبائل طيئ. انظر: **اللباب** لابن الأثير، ٣٨٦/٢؛ **وقلائد الجمان** للقلقشندي، ص ١١٢.

٧ **التفسير البسيط** للواحدي، ٤٤٢/٢١؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٤٠٧/٧-٤٠٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٨/٤.

و"مناة" صخرة لهُذيل وخزاعة، وقيل: لثقيف، وكأنّها سُمّيت مناةَ؛ لأنّ دماء النسائك تُمنَى عندها، أي: تُراق. وقُرِئ: "وَمَنَاءَةَ"[١] وهي "مَفْعَلة" مِن "النَّوْء"؛ كأنّهم كانوا يستمطِرون عندها الأنواءَ تبرُّكًا بها، و﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ صفة ذمٍّ لها، وهي المتأخِّرة الوضيعةُ المقدارِ. وقد جُوِّز أن تكون الأوّليّة والتقدّم عندهم للات والعُزّى.[٢]

ثمّ إنّهم كانوا مع ما ذُكر مِن عبادتهم لها يقولون: إنّ الملائكة وتلك الأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فقيل: لهم توبيخًا وتبكيتًا ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾... إلخ، و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ما ذُكر مِن شئون الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة، وهي قلبيّة، ومفعولها الثاني محذوف لدلالة الحال عليه.

فالمعنى أعَقِيب ما سمعتم مِن آثار كمال عظمة الله عزّ وجلّ في مُلكه وملكوته وجلاله وجبروته وإحكامِ قدرته ونفاذِ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى وما بينهما رأيتُم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وقماءتها بناتٍ له تعالى.

وقيل: المعنى أفرأيتم هذه الأصنام مع حقارتها وذِلّتها شركاءَ لله تعالى
[١٤٠و] مع ما تقدَّم مِن عظمته. وقيل: أخبروني عن آلهتكم / هل لها شيء مِن القدرة والعظمة التي وُصف بها ربّ العزّة في الآي السابقة. وقيل:[٣] المعنى أظننتم أنّ هذه الأصنام التي تعبدونها تنفعكم. وقيل: أظننتم أنّها تشفع لكم في الآخرة. وقيل: أفرأيتم إلى هذه الأصنام إن عبدتموها لا تنفعكم وإن تركتموها لا تضرُّكم.

والأوّل هو الحقّ، كما يشهد به قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ شهادة بيّنةً، فإنّه توبيخ مبنيٌّ على التوبيخ الأوّل، وحيث كان مداره تفضيلَ جانب أنفسهم على جنابه تعالى بنسبتهم إليه تعالى الإناثَ مع اختيارهم لأنفسهم الذكورَ، وجب أن يكون مناطُ الأوّل نفسَ تلك النسبة حتّى يتسنّى بناء التوبيخ الثاني عليه، وظاهرٌ أن ليس في شيء مِن التقديرات المذكورة مِن تلك النسبة عينٌ ولا أثرٌ.

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٤.
٣ وفي هامش م: أبو الليث السمرقندي. «منه». | انظر القول في تفسير السمرقندي، ٢٩١/٣.

وأمّا ما قيل مِن أنّ هذه الجملة مفعول ثانٍ للرؤية وخلوّها عن العائد إلى المفعول الأوّل لِما أنّ الأصل: أخبروني أنّ اللات والعزّى ومَناة، ألكم الذَّكَر وله هُنّ؟ أي: تلك الأصنام، فوُضع موضعَها الأنثى لمراعاة الفواصل وتحقيقِ مناط التوبيخِ،[1] فمع ما فيه مِن التمحّلات التي ينبغي تنزيهُ ساحة التنزيل عن أمثالها يقتضي اقتصارَ التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقيرِ على جَناب الله العزيز الجليل مِن غير تعرُّض للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى القِسمة المنفهِمة مِن الجملة الاستفهاميّة. ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، وهي "فِعْلى" مِن "الضَّيْز" وهو الجَوْر، لكنّه كُسر فاؤه لتسلم "الياء"، كما فُعل في "بِيض"، فإنّ "فِعلى" بالكسر لم يأتِ في الوصف.

وقُرئ: "ضِئْزَى"[2] بـ"الهمز" مِن "ضَأَزه" إذا ظلمه، على أنّه مصدر نُعت به. وقُرئ: "ضَيْزَى"[3] إمّا على أنّه مصدر وُصف به كـ"دَعوى"، أو على أنّه صفة كـ"سَكْرى" و"عَطْشى".

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنْ هِىَ﴾ الضمير للأصنام، أي: ما الأصنام باعتبار الألوهيّة التي يدّعونها ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ محضة ليس تحتها ممّا تنبئ هي عنه مِن معنى الألوهيّة شيءٌ ما أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ صفة لـ﴿أَسْمَآءٌ﴾ وضميرها لها لا للأصنام، والمعنى جعلتموها أسماءً، لا جعلتم لها أسماءً، فإنّ التسمية نسبة بين الاسم والمسمّى، / فإذا قِيسَت إلى الاسم فمعناها جَعْلُه اسمًا للمسمّى، وإن قِيسَت [١٤٠ظ]
إلى المسمّى فمعناها جَعْلُه مسمّى للاسم، وإنّما اختير ههنا المعنى الأوّل مِن غير تعرُّض للمسمّى لتحقيق أنّ تلك الأصنام التي يسمّونها آلهةً أسماءٌ مجرّدة

---

[1] القول في اللباب لابن عادل، ١٨/١٨٢.
[2] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٥.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٢.

ليس لها مسمّياتٌ قطعًا، كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ الآية [يوسف، ٤٠/١٢]، لا أنّ هناك مسمّيات لكنّها لا تستحقّ التسمية.

وقيل: هي للأسماء الثلاثة المذكورة،[١] حيث كانوا يُطلقونها على تلك الأصنام لاعتقادهم أنّها تستحقّ العكوفَ على عبادتها والإعزازَ والتقرّب إليها بالقرابين. وأنت خبير بأنّه لو سُلِّم دلالة الأسماء المذكورة على ثبوت تلك المعاني الخاصّة للأصنام فليس في سَلْبها عنها مزيدُ فائدة؛ بل إنّما هي في سَلْب الألوهيّة عنها كما هو زعمُهم المشهور في حقّ جميع الأصنام على وجه برهاني، فإنّ انتفاء الموصوف يقتضي انتفاءَ الوصف بطريق الأولويّة، أي: ما هي إلّا أسماءٌ خالية عن المسمّيات وضعتموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ برهان تتعلّقون به.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بأنّ تعداد قبائحهم اقتضى الإعراضَ عنهم وحكايةَ جناياتهم لغيرهم، أي: ما يتّبعون فيما ذُكر مِن التسمية والعمل بموجَبها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلّا توهُّم أنّ ما هم عليه حقٌّ توهّمًا باطلًا. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: تشتهيه أنفسهم الأمّارة بالسوء.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ قيل: هي حال مِن فاعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾،[٢] أو اعتراضٌ، وأيًّا ما كان ففيه تأكيدٌ لبطلان اتّباع الظنّ وهو النفس، وزيادةُ تقبيح لحالهم، فإنّ اتّباعهما مِن أيّ شخص كان قبيحٌ وممّن هداه الله تعالى بإرسال الرسول عليه السلام وإنزالِ الكتاب أقبحُ.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للانتقال مِن بيان أنّ ما هُم عليه غيرُ مستند إلّا إلى توهُّمهم وهوى أنفسهم إلى بيان أنّ ذلك ممّا لا يُجدي نفعًا أصلًا. / و"الهمزة" للإنكار والنفي، أي: ليس للإنسان كلّ ما يتمنّاه [١٤١و]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٤.

٢ وفي هامش م: طيبيّ وابن عادل. | وانظر هذا الوجه في فتوح الغيب للطِّيبي، ٩٢/١٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٧/١٨.

وتشتهيه نفسه مِن الأمور التي مِن جملتها أطماعهم الفارغة في شفاعة الآلهة ونظائرِها التي لا تكاد تدخل تحت الوجود.

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمّناه حتمًا، فإنّ اختصاص أمور الآخرة والأولى جميعًا به تعالى مقتضٍ لانتفاء أن يكون له أمرٌ مِن الأمور.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ إقناط لهم عمّا علّقوا به أطماعهم مِن شفاعة الملائكة لهم موجِبٌ لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولويّة. و﴿كَم﴾ خبريّة مفيدةٌ للتكثير محلُّها الرفع على الابتداء، والخبرُ هي الجملة المنفيّة، وجَمْعُ الضمير في ﴿شَفَٰعَتُهُمۡ﴾ مع إفرادِ "المَلَك" باعتبار المعنى، أي: وكثير مِن الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله تعالى شيئًا مِن الإغناء في وقت مِن الأوقات.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾ ويراه أهلًا للشفاعة مِن أهل التوحيد والإيمان، وأمّا مَن عداهم مِن أهل الكفر والطغيان فهم مِن إذن الله تعالى بمَعزِل ومِن الشفاعة بألف مَنزِل، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذُكر فما ظنهم بحال الأصنام؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وبما فيها مِن العقاب على ما يتعاطَونه مِن الكفر والمعاصي ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المنزَّهين عن سِمات النقصان على الإطلاق، أي: يسمُّون كلَّ واحد منهم ﴿تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾، فإنّ قولهم: "الملائكةُ بناتُ الله" قولٌ منهم بأنّ كلًّا منهم بنتُه سبحانه، وهي التسمية بالأنثى،

وفي تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعارٌ بأنّها في الشناعة والفظاعة[١] واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلّا مَن لا يؤمن بها رأسًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُسَمُّونَ﴾، أي: يسمُّونهم والحال أنّه لا عِلم لهم بما يقولون أصلًا. / وقُرئ: "بِهَا"،[٢] أي: بالملائكة أو بالتسمية. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الفاسدَ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ أي: جنس الظنّ، كما يلوّح به الإظهارُ في موقع الإضمار ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مِن الإغناء، فإنّ الحقّ: الذي هو عبارة عن حقيقة الشيء، لا يُدرَك إلّا بالعِلم، والظنُّ لا اعتدادَ به في شأن المعارف الحقيقيّة، وإنّما يُعتدّ به في العمليّات وما يؤدّي إليها. [١٤١ظ]

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: عنهم. ووَضْعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتوسّل به إلى وصفهم بما في حيّز صلته مِن الأوصاف القبيحة وتعليلِ الحكم بها، أي: فأعرِضْ عمّن أعرَض عن ذكرنا المفيدِ للعِلم اليقيني وهو القرآن المنطوي على علوم الأوّلين والآخرين المذكِّر لأمور الآخرة، أو عن ذِكرنا كما ينبغي، فإنّ ذلك مستتبع لذِكر الآخرة وما فيها مِن الأمور المرغوبِ فيها والمهروب عنها.

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ راضيًا بها قاصرًا نظرَه عليها، والمرادُ النهي عن دعوته والاعتناءِ بشأنه، فإنّ مَن أعرض عمّا ذُكر وانهمك في الدنيا بحيث كانت هي منتهى همّته وقُصارى سعيه لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلّا عِنادًا وإصرارًا على الباطل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما أدّاهم إلى ما هم فيه مِن التولّي وقَصْرِ الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ لا يكادون يُجاوزونه إلى غيره حتّى تُجديهم الدعوة والإرشاد. وجَمْعُ الضمير في ﴿مَبْلَغُهُم﴾ باعتبار معنى ﴿مَن﴾ كما أنّ إفراده

---

[١] س: الفضاعة.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٢٥.

فيما سبق باعتبار لفظها. والمرادُ بـ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ مطلقُ الإدراك المنتظِم للظنّ الفاسد. والجملةُ اعتراضٌ مقرِّر لمضمون ما قبلها مِن قَصْر الإرادة على الحياة الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تعليل للأمر بالإعراض، وتكريرُ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزيادة التقرير والإيذانِ بكمال تباينِ المعلومَين. والمراد ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ مَن أصرّ عليه ولم يرجع إلى الهدى أصلًا، و﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ مَن مِن شأنه الاهتداء في الجملة، أي: هو المبالغ في العِلم بمَن لا يرعوي عن الضلال أبدًا وبمَن يقبل الاهتداء في الجملة لا غيرَه، فلا تُتعب نفسك في دعوتهم فإنّهم مِن القبيل الأوّل.

وفي تعليل الأمر بإعراضه عليه السلام عن الاعتناء بأمرهم باقتصار العِلم بأحوال الفريقين عليه تعالى رمزٌ إلى أنّه تعالى يُعاملهم / بموجَب عِلمه بهم، فيجزي كلًّا منهم بما يليق به مِن الجزاء، ففيه وعيدٌ ووعدٌ ضِمنًا، كما سيأتي صريحًا. [١٤٢و]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَلقًا ومُلكًا لا لغيره أصلًا، لا استقلالًا ولا اشتراكًا. وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾... إلخ متعلِّق بما دلّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾... إلخ،[١] وما بينهما اعتراضٌ مقرِّر لِما قبله، فإنّ كون الكلّ مخلوقًا له تعالى ممّا يقرِّر عِلمه تعالى بأحوالهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك، ١٤/٦٧]، كأنّه قيل: فيعلم ضلالَ مَن ضلّ واهتداءَ مَن اهتدى ويحفظهما ليجزي ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: بعقاب ما عملوا مِن الضلال الذي عُبّر عنه بالإساءة بيانًا لحاله، أو بسبب ما عملوا ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي: اهتدوا ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي: بالمثوبة الحسنى التي هي الجنّة، أو بسبب أعمالهم الحسنى.

---

[١] في الآية السالفة.

وقيل: متعلِّق بما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، كأنّه قيل: خَلَق ما فيهما ليجزي... إلخ.[١] وقيل: متعلِّق بـ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهْتَدَىٰ﴾[٢] على أنّ "اللام" للعاقبة، أي: هو أعلمُ بمَن ضلّ ليئول أمرُه إلى أن يجزيَه الله تعالى بعمله وبمَن اهتدى ليئول أمرُه إلى أن يجزيَه بالحسنى.[٣] وفيه مِن البعد ما لا يخفى.

وتكريرُ الفعل لإبراز كمال الاعتناءِ بأمر الجزاء والتنبيهِ على تباين الجزاءين.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ بدل مِن الموصول الثاني وصيغةُ الاستقبال في صلته للدلالة على تجدّد الاجتناب واستمراره، أو بيانٌ، أو نعتٌ، أو منصوبٌ على المدح. و﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ما يكبر عقابه مِن الذنوب وهو ما رُتِّب عليه الوعيدُ بخصوصه. وقُرئ: "كَبِيرَ الإثْمِ"[٤] على إرادة الجنس أو الشرك.

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وما فحُش مِن الكبائر خصوصًا ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي: إلّا ما قلّ وصغُر فإنّه مغفور ممّن يجتنب الكبائر. قيل: هي النظرة والغَمْزة والقُبلة،[٥] وقيل: هي الخَطْرة مِن الذنب، وقيل: كلّ ذَنْب لم يُذكَر الله عليه حدًّا ولا عذابًا، وقيل: عادة النفس الحين بعد الحين.[٦] والاستثناءُ منقطِع.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، فالجملة تعليلٌ لاستثناء ﴿ٱللَّمَمَ﴾ وتنبيهٌ على أنّ إخراجه عن حُكم المؤاخذة به ليس لخُلوّه عن الذَّنب في نفسه؛ بل لسَعة المغفرة الربّانيّة. وقيل: المعنى له أن يغفر
[١٤٢ظ] / لمَن يشاء مِن المؤمنين ما يشاء مِن الذنوب صغيرِها وكبيرِها.[٧] ولعلّ تعقيبَ وعيدِ المسيئين ووعدِ المحسنين بذلك حينئذ لئلّا ييأس صاحبُ الكبيرة مِن رحمته تعالى ولا يتوهَّم وجوبَ العقاب عليه تعالى.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٠/٤.
٢ في الآية السالفة.
٣ القول بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٠/٤؛ ووضحه ابن عادل في اللباب، ١٩٤/١٨.
٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٢١/٤.
٥ وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي ورواية طاوس عن ابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ٦٣/٢٢-٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤١٢/٧.
٦ القولان في اللباب لابن عادل، ١٩٧/١٨.
٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٠/٣.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي: بأحوالكم يعلمها ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدمَ عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إنشاءً إجماليًا حسبما مرّ تحقيقه مرارًا. ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ ووقتَ كونكم أجِنّةً ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ على أطوار مختلفة مترتّبة لا يخفى عليه حالٌ مِن أحوالكم وعملٌ مِن أعمالكم التي مِن جملتها اللَّمَم الذي لولا المغفرةُ الواسعة لأصابكم وَبالُه، فالجملةُ استئناف مقرِّر لِما قبلها.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لترتيب النهي عن تزكية النفس على ما سبق مِن أنّ عدم المؤاخذة باللَّمَم ليس لعدم كونه مِن قبيل الذنوب؛ بل لمَحْض مغفرته تعالى مع عِلمه بصدوره عنكم، أي: إذا كان الأمر كذلك فلا تُثنوا عليها بالطهارة عن المعاصي بالكلّيّة،[1] أو بما يستلزمها مِن زكاء العمل ونماء الخير؛ بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ المعاصي جميعًا، وهو استئنافٌ مقرّر للنهي ومشعِرٌ بأنّ فيهم مَن يتّقيها بأسرها. وقيل: كان ناس يعملون أعمالًا حسنةً، ثمّ يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجُّنا، فنزلت.[2] وهذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرِّياء، فأمّا مَن اعتقد أنّ ما عمله مِن الأعمال الصالحة مِن الله تعالى وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدّح لم يكن مِن المزكِّين أنفسهم، فإنّ المسرّة بالطاعة طاعة وذِكرُها شكر.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي: عن اتّباع الحقّ والثباتِ عليه.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أي: شيئًا قليلًا أو إعطاءً قليلًا ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: قَطَع العطاء مِن قولهم: "أكدى الحافرُ" إذا بلغ الكُدية، أي: الصلابة كالصخرة، فلا يمكنه أن يحفر. قالوا: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يتّبع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعيّره بعض المشركين، وقال له: «تركتَ دين الأشياخ وضلّلتهم؟»

---

[1] وفي هامش م: بأن لا يصدر عنها شيء منها أصلًا. «منه».

[2] مرويّ عن الكلبي ومقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٤١٣/٧؛ واللباب لابن عادل، ١٩٩/١٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٣٢١/٤.

فقال: «أخشى عذاب الله»، فضمِن أن يتحمّل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله، فارتدّ وأعطاه بعض المشروط وبخل بالباقي.[١] وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، لِما أنّه كان يُوافق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بعض الأمور.[٢] وقيل: في أبي جهل كان ربّما يُوافق الرسول صلّى الله عليه وسلّم في بعض الأمور، وكان / يقول: «والله ما يأمرنا محمّد إلّا بمكارم الأخلاق»، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾.[٣] [١٤٣و]

والأوّل هو الأشهر المناسب لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾... إلى آخره، أي: أعنده عِلم بالأمور الغيبيّة التي مِن جملتها تحمُّل صاحبه عنه يوم القيامة؟

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۞ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: وفّر وأتمّ ما ابتُلِيَ به مِن الكلمات، أو أُمِر به، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله. وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود، حتّى إنّه أتاه جبريلُ عليهما السلام حين يُلقى في النار فقال: «ألك حاجة؟» فقال: «أمّا إليك فلا»،[٤] وعلى ذبح الولد. ويُروى أنّه كان يمشي كلّ يوم فرسخًا يرتاد ضيفًا، فإن وافقه أكرمَه وإلّا نوى الصوم. وتقديم موسى لِما أنّ صُحفه التي هي التوراة أشهرُ عندهم وأكثرُ.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: أنّه لا تحمِل نفس مِن شأنها الحَمْلُ حِمْلَ نفسٍ أخرى، على أنّ ﴿أَنْ﴾ هي المخفّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوفٌ، والجملةُ المنفيّة خبرُها، ومحلُّ الجملة الجرُّ على أنّها بدل مِن ﴿مَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، أو الرفعُ على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، كأنّه قيل: ما في صحفهما؟

---

١ هذا السبب مذكور في معالم التنزيل للبغوي، ٧/٤١٣-٤١٤.

٢ مرويّ عن السدّي في معالم التنزيل للبغوي، ٧/٤١٤.

٣ مرويّ عن محمّد بن كعب القُرظي في معالم التنزيل للبغوي، ٧/٤١٤.

٤ في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٢.

فقيل: هو ألّا تزر... إلخ، والمعنى أنّه لا يؤاخَذ أحدٌ بذَنْب غيره ليتخلّص الثاني عن عقابه، ولا يقدح في ذلك قوله عليه السلام: «مَن سنَّ سنّة سيّئة فله وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِل بها إلى يوم القيامة»،[1] فإنّ ذلك وِزر الإضلال الذي هو وِزره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره مِن حيث جلبُ النفع إليه إثرَ بيان عدمِ انتفاعه به مِن حيث دفعُ الضرر عنه. وأمّا شفاعة الأنبياء عليهم السلام واستغفارُ الملائكة عليهم السلام ودعاءُ الأحياء للأموات وصدقتُهم عنهم وغيرُ ذلك ممّا لا يكاد يحصى مِن الأمور النافعة للإنسان، مع أنّها ليست مِن عمله قطعًا، فحيث كان مناطُ منفعة كلّ منها عملُه الذي هو الإيمان والصلاح ولم يكن لشيء منها نفعٌ ما بدونه جُعل النافع نفسَ عملِه / وإن كان بانضمام عَمِل غيره إليه. و﴿أَن﴾ مخفَّفة كأختها معطوفة عليها، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُعرَض عليه ويُكشَف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه مِن "أَرَيتُه الشيءَ". [١٤٣ظ]

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي: يُجزى الإنسانُ سعيه، يقال: "جزاه الله بعَمَله" و"جزاه على عَمَله" و"جزاه عملَه" بحذف الجارّ وإيصالِ الفعل، ويجوز أن يُجعَل الضمير للجزاء ثمّ يفسَّر بقوله تعالى: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أو يُبدَل هو عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنبياء، ٣/٢١].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: انتهاءُ الخلقِ ورجوعُهم إليه تعالى لا إلى غيره استقلالًا ولا اشتراكًا. وقُرئ بكسر ﴿أَنَّ﴾[2] على الابتداء.

---

[1] بمعناه في مسند أحمد، ٣٢٦/١٦ (١٠٥٥٦)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٥٩/٤ (١٠١٧)؛ وسنن الترمذي، ٤٣/٥ (٢٦٧٥).

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان وأبي السَمّال واليماني وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٢.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ أي: هو خَلَق قوّتَي الضحك والبكاء.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ لا يقدِر على الإماتة والإحياء غيرُه، فإنّ أثر القاتل نقضُ البنية وتفريقُ الاتّصال، وإنّما يحصل الموت عنده بفعل الله تعالى على العادة.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ تُدفَق في الرَّحِم أو تُخلَق أو يُقدَّر منها الولد مِن "مَنَى" بمعنى "قدّر".

﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي: الإحياءَ بعد الموت وفاءً بوعده. وقُرئ: "النَّشَاءَة"[١] بالمدّ، وهي أيضًا مصدر "نَشَأَ".

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ وأعطى القِنية وهي ما يُتأثّل مِن الأموال، وأفردها بالذِّكر لأنّها أشفّ الأموال، أو أرضى، وتحقيقُه جَعْل الرِّضا له قِنيةً.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ أي: ربّ معبودهم، وهي العَبُور وهي أشد ضياءً مِن الغُميصاء، وكانت خُزاعةُ تعبدها، سَنّ لهم ذلك أبو كَبْشة رجلٌ مِن أشرافهم، وكانت قريش تقول لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أبو كبشة تشبيهًا له عليه السلام به لمخالفته إيّاهم في دينهم.[٢]

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٍ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ هي قوم هودٍ عليه السلام، / وعادٌ الأخرى إرَمُ، [١٤٤و]
وقيل: الأُولى القدماء؛ لأنّهم أُولى الأمَم هلاكًا بعد قوم نوح،[٣] وقُرئ: "عَادًا لُولَى"[٤] بحذف "الهمزة" ونقلِ ضمّها إلى "اللام"، و"عَادَ لُّولَى"[٥] بإدغام التنوين في "اللام" وطرحِ همزة "أولى" ونقلِ حركتها إلى لام التعريف.

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٤. وقال الزيلعي تعليقًا عليه في تخريج أحاديث الكشّاف، ٣٨٥/٣: «كأنّه وهم، إنّما كانوا يقولون له: ابن أبي كبشة، كما في حديث أبي سفيان: لقد أمِر أمرُ ابن أبي كبشة»، وهو جزء مِن حديث طويل في صحيح البخاري، ٨/١ (٧)؛ وصحيح مسلم، ١٣٩٣/٣ (١٧٧٣).

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٤.

[٤] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٤.

[٥] قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وورش وقالون بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٤١٠/١.

﴿وَثَمُودَاْ﴾ عطفٌ على ﴿عَادًا﴾؛ لأنّ ما بعده لا يعمل فيه. وقُرئ: "وَثَمُودًا"[١] بالتنوين ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أي: أحدًا مِن الفريقين.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ عطفٌ عليه أيضًا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل إهلاك عادٍ وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ مِن الفريقين حيث كانوا يؤذونه وينفِّرون الناس عنه، وكانوا يُحذِّرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وكانوا يضربونه عليه السلام حتّى لا يكون به حراك، وما أثّر فيهم دعاؤه قريبًا مِن ألف سنة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ هي قرى قوم لوطٍ ائتفكت بأهلها، أي: انقلبت بهم. ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: أسقَطها إلى الأرض بعد أن رَفعها على جناح جبريلَ عليه السلام إلى السماء.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ مِن فنون العذاب، وفيه مِن التهويل والتفظيع ما لا غايةَ وراءه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكّك، والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، على طريقة قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر، ٦٥/٣٩]، أو لكلّ أحد.[٢] وصيغة[٣] التفاعل وإن وُضعت[٤] لإفادة صدور الفعل عن المتعدِّد ووقوعِه عليه بحيث يكون كلّ مِن ذلك فاعلًا ومفعولًا معًا، لكنّها قد تُجرَّد عن المعنى الثاني فيُراد بها المعنى الأوّل فقط،[٥] وربّما[٦] تجرَّد عنه أيضًا فيراد[٧] مجرّد[٨] تعدُّد[٩] الفعل باعتبار[١٠] تعدُّد[١١] متعلَّقه، كما فيما نحن فيه، فإنّ المِراء متعدِّد بتعدّد الآلاء، فتدبّر. وتسميةُ الأمور المعدودة "آلاءً" مع أنّ بعضها نِقَم لِما أنّها أيضًا نِعَم مِن حيث إنّها نُصرة للأنبياء والمؤمنين وانتقامٌ لهم، وفيها عِظاتٌ وعِبَر للمعتبِرين.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

٢ س ي + وإسنادُ فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدُّده بحسب تعدُّد متعلَّقه، فإنّ.

٣ س ي: صيغة.

٤ س ي: كانت موضوعةً.

٥ س ي + كما في "يتداعونهم"، أي: يدعونهم.

٦ س ي: وقد.

٧ س ي: فيُكتفى.

٨ س ي - مجرّد.

٩ س ي: بتعدُّد.

١٠ س ي - باعتبار.

١١ س ي: بتعدُّد.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ إمّا إشارة إلى القرآن، و"النذير" مصدر، أو إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم، و"النذير" بمعنى المُنذِر، وأيًّا ما كان فالتنوين للتفخيم و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بمحذوف هو نعت لـ﴿نَذِيرٌ﴾ مقرِّر له ومتضمِّن للوعيد، أي: هذا القرآن الذي تشاهِدونه نذيرٌ مِن قبيل الإنذارات المتقدِّمة التي سمعتُم عاقبتها، أو هذا الرسول منذِر مِن جنس المنذرِين الأوّلين، والأُولى[1] على تأويل الجماعة لمراعاة الفواصل، وقد علمتُم أحوال قومِهم المنذَرين.

وفي تعقيبه بقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ إشعارٌ بأنّ تعذيبهم مؤخَّر إلى يوم القيامة، أي: دنتِ الساعة الموصوفة بالدنوّ في نحو قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر، ١/٥٤].

[١٤٤ظ] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها نفسٌ قادرة / على كشفها عند وقوعها إلّا الله تعالى لكنّه لا يكشفها، أو ليس لها الآن نفسٌ كاشفة بتأخيرها إلّا الله تعالى، فإنّه المؤخِّر لها، أو ليس لها كاشفة لوقتها إلّا الله،[2] كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]، أو ليس لها مِن غير الله تعالى كَشْف على أنّ "كاشفة" مصدر كـ"العافية".

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارًا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً مع كونه أبعدَ شيء مِن ذلك ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حزنًا على ما فرَّطتم في شأنه وخوفًا مِن أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: لاهون، أو مستكبِرون مِن "سمَد البعير" إذا رفع رأسه، أو مُغنُّون لتشغلوا الناس عن استماعه مِن "السُّمود" بمعنى الغِناء على لغة حِمْيَر، أو خاشعون جامدون مِن "السُّمود" بمعنى الجُمود والخشوع

[1] س: والأدنى.

[2] س + تعالى.

كما في قول مَن قال:

رمى الحَدَثان نسوةَ آل سعدٍ   بمِقدار سَمَدْنَ له سُمودا
فرَدّ شُعورَهنّ السُّودَ بِيضا   ورَدّ وجوهَهنّ البِيضَ سُودا[1]

والجملة حال مِن فاعل ﴿لَا تَبْكُونَ﴾، خلا أنّ مضمونها على الوجه الأخير قيدٌ للمنفي والإنكارُ واردٌ على نفي البكاءِ والسُّمود معًا، وعلى الوجوه الأُوَل قيدٌ للنفي والإنكارُ متوجّهٌ إلى نفي البكاءِ ووجودِ السُّمود. والأوّلُ أوفى بحقّ المقام، فتدبّر.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟۩﴾ لترتيب الأمر أو موجَبه على ما تقرَّر مِن بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء ووجوبِ تلقّيه بالإيمان مع كمال الخضوع والخشوع، أي: وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذي أنزله واعبدوه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة والنجم أعطاه الله تعالى عشرَ حسناتٍ بعدد مَن صدّق بمحمّد وجَحَد به بمكّة».[2]

---

[1] هما لعبد الله بن الزَّبِير الأسدي في شرح الحماسة للتبريزي، ٣٩٠/١؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٢٦٤/٢. ويُنسبان لآخرين غير عبد الله، وهما في ديوان أيمن بن خُريم الأسدي، ص ٣٠، وتخريجهما وذِكر الاختلاف في نسبتهما ثمّة.

[2] س + والحمد لله ربّ العالمين. | والحديث في الكشف والبيان للثعلبي، ٦٦/٢٥ (النجم، ١/٥٣)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١٩٢/٤ (النجم، ١/٥٣)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٢٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سُورَةُ وَالنَّجْمِ

وتُسمَّى أيضاً سورة النجم بدون واو، وهي مكية على الإطلاق، وفي «الإتقان»: استثني منها (ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ) إلى (ٱتَّقَىٰٓ)، وقيل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الآيات التسع[1].

ومن الغريب حكايةُ الطبرسي عن الحسن أنَّها مدنية[2]. ولا أرى صحة ذلك عنه أصلاً.

وآيُها اثنتان وستون آية في الكوفي، وإحدى وستون في غيره[3].

وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أولُ سورةٍ أعلنَ النبيُّ ﷺ بقراءتها، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون[4].

وأخرج البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنسائي عنه قال: أولُ سورةٍ أُنزلَت فيها سجدة «والنجم» فسجد رسولُ الله ﷺ وسجَدَ الناس كلُّهم إلا رجلاً رأيتُه أخذَ كفّاً من تراب فسجَدَ عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتِل كافراً[5]. وهو أمية بن خلف.

وفي «البحر» أنَّه عليه الصلاة والسلام سجَدَ وسجَدَ معه المؤمنون والمشركون

---

(١) الإتقان ١/ ٥٠.

(٢) مجمع البيان ٢٧/ ٣٩.

(٣) جاء في هامش الأصل: الاختلاف في قوله تعالى: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

(٤) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١.

(٥) صحيح البخاري (١٠٧٠)، وصحيح مسلم (٥٧٦)، وسنن أبي داود (١٤٠٦)، وسنن النسائي (المجتبى ٢/ ١٦٠)، وهو عند أحمد (٣٦٨٢).

والجنُّ والإنسُ غيرَ أبي لهبٍ، فإنَّه رَفَع حفنةً من تراب وقال: يكفي هذا[١]. فيحتمل أنه وأميةَ فَعَلَا كذلك.

وهي شديدةُ المناسبة لِمَا قبلها، فإنَّ «الطورَ» خُتِمَت بقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وافتُتِحَت هذه بقوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾. وأيضاً في مفتتحها ما يؤكِّدُ ردَّ الكفرة فيما نسبوه إليه ﷺ من التقوُّل والشعر والكهانة والجنون. وذكر أبو حيان أنَّ سبب نزولها قولُ المشركين: إنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام يختلقُ القرآن[٢].

وذكر الجلال السيوطي[٣] في وجه مناسبتها: أنَّ الطور فيها ذكرُ ذريةِ المؤمنين وأنَّهم تبَعٌ لآبائهم، وهذه فيها ذكرُ ذرية اليهود في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الآية؛ فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني[٤] وأبو نعيم في «المعرفة» والواحدي عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهودُ إذا هلَكَ لهم صبيٌّ صغيرٌ قالوا هو صدِّيق، فبلَغَ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذَبت يهودُ، ما مِن نَسَمةٍ يخلُقُها الله في بَطْن أُمِّها إلا أنَّه شَقِيٌّ أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية كلَّها[٥]، وأنَّه تعالى لمَّا قال هناك في المؤمنين: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] إلخ قال سبحانه هنا في الكفار، أو في الكبار[٦]: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] خلاف ما دخل[٧] في المؤمنين الصغار، ثم قال: وهذا وجهٌ بديعٌ في المناسبة من وادي التضادِّ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في تناسق الدرر ص ٨٠.
(٤) في الأصل و(م): والطبري، والصواب ما أثبتناه، وينظر التعليق الآتي.
(٥) المعجم الكبير للطبراني (١٣٦٨)، ومعرفة الصحابة (١٣٣٤)، وأسباب النزول للواحدي ص٤٢٢، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ١٢٨، وفي تناسق الدرر ص ٨٠، والكلام منه.
(٦) في مطبوع تناسق الدرر: أو في بني الكفار، بدل: أو في الكبار.
(٧) في مطبوع تناسق الدرر: ذكر، بدل: دخل.

وفي صحة كون قوله تعالى: (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ) الآية نَزَل لِمَا ذُكِر نَظَرٌ عندي، وكون قوله تعالى: (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) في الصغار لم يتفق عليه المفسرون كما سمعتَ غير بعيدٍ، نعم مَن تأمَّل ظهر له وجوهٌ من المناسبات غير ما ذكر فتأمَّل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ أقسمَ سبحانه بجنسِ النجم المعروف على ما رُوي عن الحسن ومعمَر بن المثنى، ومنه قوله:

فباتَتْ تَعُدُّ النجمَ في مُستَحِيرَةٍ سريعٍ بأيدي الآكِلين جُمُودُها[1]

ومعنى «هوى»: غَرب، وقيل: طَلَع؛ يقال: هَوَى يهوي كرمى يَرْمي، هَوِيّاً بالفتح في السقوط والغروب لمشابهتِهِ له؛ وهُوِيّاً بالضمِّ للعلوِّ والطلوع، وقيل: الهَوِيُّ بالفتح للإصعاد، والهُوِيُّ بالضم للانحدار؛ وقيل: الهوِي بالفتح والضم السقوط، ويقال: أَهْوَى بمعنى هَوَى، وفرَّق بعضُ اللغويِّين بينهما بأنَّ هَوَى إذا انقضَّ لغير صيد، وأهوَى إذا انقضَّ له.

وقال الحسن وأبو حمزة الثمالي: أقسم سبحانه بالنجوم إذا انتثرت في القيامة.

وعن ابن عباس في روايةٍ: أقسمَ عز وجل بالنجوم إذا انقضَّت في إثر الشياطين.

وقيل: المرادُ بـ «النجم» معيَّنٌ؛ فقال مجاهد وسفيان: هو الثريَّا، فإن النجم صار عَلَماً بالغلبة لها، ومنه قوله ﷺ: «إذا طَلَع النجم صباحاً ارتفعَت العاهةُ»[2].

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى ٢/ ٢٣٥، والبيت للراعي النميري عبيد بن حصين، وهو في ديوانه ص٩٢، قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٦٩ بعد أن أورد البيت: يصف قدراً كثيرةَ الدسم، ومعنى تعدُّ النجم، أي: من صفاء دسمها ترى النجوم فيه، والمستحيرة: القدر، فقال: يجمد على الأيدي الدسم من كثرته.

(٢) أخرجه أحمد (٨٤٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث حسن، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

وقولُ العرب: طلَعَ النجمُ عشاءً فابتغَى الراعي كساءً. طلَعَ النجمُ غُدَيَّه فابتغَى الراعي كسيه[١]. وفسَّر هوِيُّها بسقوطها مع الفجر.

وقيل: هو «الشعرى» المرادةُ بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩]. والكهَّان يتكلمون على المغيبات عند طلوعها.

وقيل: الزهرة وكانت تُعبد.

وقال ابن عباس ومجاهد والفراء[٢] ومنذر بن سعيد: «النجم» المقدارُ النازلُ من القرآن على النبيِّ ﷺ، و«إذا هَوَى» بمعنى: إذا نَزَل عليه مع مَلَك الوحي جبريل عليه السلام.

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: هو النبيُّ ﷺ، وهوِيُّه نزوله من السماء ليلة المعراج. وجوِّز على هذا أنْ يُراد بهويِّهِ صعودُه وعروجُه عليه الصلاة والسلام إلى منقطع الأَيْن.

وقيل: هو الصحابةُ رضي الله عنهم.

وقيل: العلماءُ على إرادة الجنس، والمراد بهويِّهم قيل: عروجُهم في معارج التوفيق إلى حظائر التحقيق، وقيل: غوصُهم في بحار الأفكارِ لاستخراج دُرَر الأسرار.

وأظهرُ الأقوال القولُ بأنَّ المرادَ بالنجم جنسُ النجم المعروف، فإنَّ أصلَه اسمُ جنسٍ لكلِّ كوكب، وعلى القول بالتعيين فالأظهرُ القول بأنَّه الثريا، ووراء هذَين القولَين القولُ بأنَّ المرادَ به المقدارُ النازل من القرآن، وفي الإقسام بذلك على

---

(١) أدب الكتاب للصولي ص١٧٨، وتهذيب اللغة ١٠/ ٢٩٩، ومفردات الراغب (نجم)، وتفسير الثعلبي ٩/ ١٣٤، والكشاف ٤/ ٢٧، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٦، واللسان (شكا) و(نجم)، والبحر المحيط ٨/ ١٥٧. وجاء في غير البحر وأدب الكتاب: شُكَيَّه، بدل: كُسَيَّه. قال الأزهري: الشكية تصغير الشكوة - وهي وعاء من أدم للماء واللبن - وذلك أن الثريا إذا طلعت هذا الوقت من الزمان هبت البوارح ورَمِضت الأرض وعطش الرعيان، فاحتاجوا إلى شكاءٍ يستقون فيها لشفاههم، ويحقنون اللبن في بعضها ليشربوه بارداً قارصاً.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٩٤.

نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة الضلالِ والغواية من البراعة البديعةِ وحُسْن الموقع ما لا غايةَ وراءه.

أما على الأوَّلين: فلأنَّ النجم شأنُه أنْ يَهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنَّه قيل: والنجم الذي تهتدي به السابلةُ إلى سواء السبيل ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي: ما عدل عن طريق الحقِّ الذي هو مسلكُ الآخرة، فهو استعارةٌ وتمثيلٌ لكونه عليه الصلاة والسلام على الصواب في أقواله وأفعاله ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: وما اعتقَد باطلاً قطُّ؛ لأنَّ الغَيَّ الجهلُ مع اعتقادٍ فاسدٍ، وهو خلافُ الرُّشد، فيكون عطفُ هذا على «ما ضل» مِن عَطْفِ الخاصِّ على العام اعتناءً بالاعتقاد، وإشارةً إلى أنَّه المدارُ.

وأما على الثالث: فلأنَّه تنويهٌ بشأن القرآن، وتنبيهٌ على مناط اهتدائِهِ عليه الصلاة والسلام ومدارِ رَشاده، كأنَّه قيل: وما أُنزلَ عليك من القرآن الذي هو عَلَمٌ في الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحقِّ واليقين ما ضَلَّ عنها محمدٌ ﷺ وما غَوَى، فهو من باب:

وثنـــايـــاكِ إنَّـــهـــا إغـــريـــضُ[(١)]

والخطابُ لقريشٍ، وإيرادُه عليه الصلاة والسلام بعنوان المصاحبة لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفةِ، وإحاطتهم خُبْراً ببراءته ﷺ مما نُفِيَ عنه بالكلِّية، وباتِّصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهُدَى والرَّشاد، فإنَّ طولَ صُحْبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شُؤونِهِ العظيمة مقتضيةٌ لذلك حتماً، ففي ذلك تأكيدٌ لإقامة الحُجَّة عليهم.

واختلف في متعلَّق «إذا» قال بعضُهم: فاوضْتُ جارَ الله في قوله تعالى: (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) فقال: العاملُ فيه ما تعلَّق به الواو. فقلتُ: كيف يعملُ فعلُ الحال في المستقبل؟! وهذا لأنَّ معناه: أُقسِمُ الآن، لا: أُقسِمُ بعد هذا. فرجع وقال: العاملُ فيه مصدرٌ محذوفٌ، والتقدير: وهُوِيُّ النجم إذا هَوَى. فعرضْتُه على بعض المشايخ فلم يستحسن قولَه الثاني. والوجْهُ تعلُّقه بـ «أُقسِمُ» وهو قد انسلَخَ عنه معنى

---

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٢/ ٢٨٧، وسلف ٢٢/ ١٢.

الاستقبال، وصار للوقت المجرَّد، ونحوُه: آتيكَ إذا احمرَّ البسرُ، أي: وقتَ احمرارِه.

وقال عبد القاهر: إخبارُ الله تعالى بالمتوقَّع يُقامُ مقامَ الإخبار بالواقع إذ[١] لا خُلْفَ فيه، فيجري المستقبل مجرَى المحقَّق الماضي[٢].

وقيل: إنَّه متعلِّق بعامل هو حالٌ من «النجم»، وأوردَ عليه أنَّ الزمان لا يكونُ خبراً ولا حالاً عن جُثَّة كما هنا، وأنَّ «إذا» للمستقبل فكيف يكونُ حالاً إلا أنْ تكون حالاً مقدَّرة، أو تُجرَّد «إذا» لمطلَقِ الوقت، كما يُقال بصِحَّيَّة الحاليةِ إذا أفادَت معنًى معتدّاً به، فمجيءُ الزمانِ خبراً أو حالاً عن جثة ليس ممنوعاً على الإطلاق كما ذكره النحاة، أو «النجم» لتغيُّره طلوعاً وغروباً أَشبَهَ الحدَثَ.

والإنصافُ أنَّ جعْلَه حالاً كتعلُّقه بمصدر محذوفٍ ليس بالوجْهِ، وإنما الوجه ـ على ما قيل ـ ما سمعتَ مِن تعلُّقه بـ «أُقسمُ» منسلخاً عنه معنى الاستقبال، وهو الذي اختاره في «المغني»[٣].

وتخصيصُ القسم بوقت الهوِيِّ ظاهرٌ على الأخير من الأقوال الثلاثة، وأمَّا على الأوَّلَين فقيل: لأنَّ النجمَ لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء، ولا يَعلمُ المشرقَ من المغرب ولا الشمال من الجنوب، وإنما يهتدي به عند هبوطِه أو صعوده، مع ما فيه من كمال المناسبةِ لِمَا سيُحْكَى من التدلِّي والدنوِّ.

وقيل: لدلالته على حدوثه الدالِّ على الصانع وعظيمِ قدرته عز وجل، كما قال الخليل على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة وأكمل السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦] وسيأتي إن شاء الله تعالى آخرَ الكتاب تمامُ الكلام في تحقيق إعراب مثل هذا التركيب[٤] فلا تغفل.

---

(١) في (م): إذا.
(٢) ينظر دلائل الإعجاز ص ٢٣٠-٢٣١.
(٣) مغني اللبيب ص ١٣٠، وحاشية الشهاب ٨/ ١٠٩.
(٤) ينظر ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ من سورة الشمس آية رقم (٣-٤).

﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ أي: النبيُّ ﷺ؛ لتقدُّم ذكره في قوله سبحانه: (صَاحِبُكُمْ) والنُّطقُ مضمَّنٌ معنَى الصدور، فلذا عُدِّي بـ «عن» في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ وقيل: هي بمعنى الباء، وليس بذاك. أي: ما يصدرُ نطقُه فيما آتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن، أو مِن القرآن، عن هَوَى نفسِه ورأيه أصلاً، فإنَّ المرادَ استمرارُ النَّفْي كما مرَّ مراراً في نظائره.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الذي ينطقُ به من ذلك، أو القرآن، وكلُّ ذلك مفهومٌ من السياق ﴿إِلَّا وَحْيٌ﴾ من الله عز وجل ﴿يُوحَىٰ﴾ يوحيه سبحانه إليه، والجملةُ صفةٌ مؤكِّدةٌ لـ «وَحْيٌ» رافعةٌ لاحتمال المجاز، مفيدةٌ للاستمرار التجدُّدي.

وقيل: ضميرُ «ينطقُ» للقرآن، فالآيةُ كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وهو خلافُ الظاهر.

وقيل: المرادُ: ما يصدر نطقه عليه الصلاة والسلام مطلقاً عن هوًى، وهو عائدٌ لِمَا ينطقُ به مطلقاً أيضاً.

واحتَجَّ بالآية على هذا التفسير مَن لم يَرَ الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كأبي عليٍّ الجبائي وابنه أبي هاشم، ووجهُ الاحتجاج أنَّ الله تعالى أَخبرَ بأنَّ جميعَ ما ينطقُ به وَحْيٌ، وما كان عن اجتهادٍ ليس بوَحْيٍ، فليس مما ينطقُ.

وأُجيبَ بأنَّ الله تعالى إذا سوَّغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهادَ، كان الاجتهادُ وما يسند إليه وحياً لا نطقاً عن الهوى، وحاصلُه منع كبرى[1] القياس.

واعترض عليه بأنَّه يلزمُ أنْ تكونَ الأحكامُ التي يستنبطُها المجتهدون بالقياس وحياً. وأُجيبَ بأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أُوحَي إليه أنْ يجتهدَ بخلاف غيره من المجتهدين.

---

(١) في (م): كبر، والمثبت من الأصل. ويقصد به قول المحتج: وما كان عن اجتهاد ليس بوحْيٍ.
وهي المقدمة الكبرى لاحتجاجه، والإجابة التي ذكرها الآلوسي بقوله: وأجيب بأن الله تعالى إذا. . .، هي منع المقدمة الكبرى.

وقال القاضي البيضاوي: إنَّه حينئذٍ بالوحي لا وحيٌ[١].

وتعقَّبه صاحب «الكشف» بأنَّه غيرُ قادحٍ؛ لأنَّه بمنزلة أنْ يقولَ الله تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: متى ما ظننْتَ بكذا فهو حكمي، أي: كلُّ ما ألقيتُه في قلبك فهو مرادي، فيكونُ وحياً حقيقةً.

والظاهرُ أنَّ الآيةَ واردةٌ في أمر التنزيل بخصوصه، وإنْ كان مثلُه الأحاديثَ القدسيةَ، والاستدلالُ بها على أنَّه عليه الصلاة والسلام غيرُ متعبدٍ بالوحي محوجٌ لارتكاب خلافِ الظاهر، وتكلُّفٌ في دفع نَظَرِ البيضاوي عليه الرحمة كما لا يخفى على المنصف.

ولا يبعُدُ عندي أنْ يحملَ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ على العموم، فإنَّ مَن يَرَى الاجتهادَ له عليه الصلاة والسلام كالإمام أحمد وأبي يوسف عليهما الرحمة لا يقولُ بأنَّ ما ينطقُ به ﷺ مما أدَّى إليه اجتهادُه صادرٌ عن هوى النفسِ وشهوتها، حاشا حضرة الرسالةِ عن ذلك، وإنما يقولُ هو واسطةٌ بين ذلك وبين الوحي، ويجعلُ الضميرَ في قوله سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ﴾ للقرآن، على أنَّ الكلام جوابُ سؤالٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: إذا كان شأنُه عليه الصلاة والسلام أنَّه ما ينطقُ عن الهوى، فما هذا القرآنُ الذي جاء به وخالفَ فيه ما عليه قومه، واستمالَ به قلوبَ كثيرٍ من الناس، وكثُرَت فيه الأقاويلُ؟ فقيل: ما هو إلا وحيٌ يُوحيه اللهُ عز وجل إليه ﷺ، فتأمل.

وفي «الكشف»: أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ مضارعاً مع قوله سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ﴾ ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ ما يدلُّ على أنَّه عليه الصلاة والسلام حيث لم يكن له سابقةُ غوايةٍ وضلالٍ منذ تميَّز وقَبْلَ تحنُّكه واستنبائه لم يكن له نطقٌ عن الهوى، كيف وقد تحنَّكَ ونُبِّئَ؟ وفيه حثٌّ لهم على أنْ يُشاهدوا منطقَه الحكيم.

﴿عَلَّمَهُۥ﴾ الضميرُ للرسول ﷺ، والمفعولُ الثاني محذوفٌ، أي: القرآنَ، أو

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ١١٠.

الوحيَ. وجوَّز أبو حيان كونَ الضمير للقرآن، وأنَّ المفعول الأول محذوفٌ، أي: علَّمه الرسولَ عليه الصلاة والسلام[١].

﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ هو جبريلُ عليه السلام كما قال ابن عباس وقتادة والربيع، فإنَّه الواسطةُ في إبداء الخوارق، وناهيك دليلاً على شدَّة قوته أنَّه قلَعَ قُرَى قومِ لوطٍ من الماء الأسود الذي تحت الثرى، وحمَلَها على جناحه ورفَعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح بثمودَ صيحةً فأصبحوا جاثمين، وكان هبوطُه على الأنبياء عليهم السلام وصعودُه في أسرع من رَجْعة الطرف، فهو لَعَمْرِي أسرعُ من حركة ضياء الشمس على ما قرَّروه في الحكمة الجديدة.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حصافَةٍ واستحكام في العقل كما قال بعضُهم، فكأنَّ الأوَّلَ وصفٌ بقوة الفعلِ، وهذا وصفٌ بقوة النظر والعقل، لكن قيل: إنَّ ذاك بيانٌ لِمَا وُضِعَ له اللفظ، فإنَّ العرب تقولُ لكلِّ قويِّ العقل والرأي: ذو مرة، مِن أمرَرْتُ الحبل: إذا أحكمتَ فتلَه، وإلا فوصْفُ المَلَك بمثله غيرُ ظاهرٍ، فهو كنايةٌ عن ظهور الآثار البديعة.

وعن سعيد بن المسيب: ذو حكمة؛ لأنَّ كلامَ الحكماء متينٌ.

وروى الطَّستي أنَّ نافع بن الأزرق سألَ ابنَ عباس عنه فقال: ذو شدَّةٍ في أمر الله عز وجل. واسْتَشْهَد له[٢].

وحكى الطيبي عنه أنَّه قال: ذو مَنْظرٍ حسنٍ. واستصوبه الطبريُّ[٣]، وفي معناه قول مجاهد: ذو خَلْق حسن.

وهو في قوله ﷺ: «لا تَحِلُّ الصدقةُ لغنيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَويٍّ»[٤] بمعنى: ذي

(١) البحر المحيط ٨/ ١٥٧.
(٢) ذكره عن الطستي السيوطي في الدر ٦/ ١٢٢، وأخرجه من طريقه في الإتقان ١/ ٣٩٦.
(٣) ينظر تفسيره ٢٢/ ١١.
(٤) أخرجه أحمد (٦٥٣٠)، والترمذي (٦٥٢)، وأبو داود (١٦٣٤) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄، وقال الترمذي: حديث حسن.

قوةٍ. وفي «الكشف»: إنَّ المِرَّةَ لأنَّها في الأصل تدلُّ على المَرَّة بعد المرة تدلُّ على زيادة القوة، فلا تغفل.

﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي: فاستقامَ على صورته الحقيقيةِ التي خلَقَه الله تعالى عليها، وذلك عند حِراء في مبادئ النبوة، وكان له عليه الصلاة والسلام كما في حديث أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حُميد وجماعةٌ عن ابن مسعود: «ست مئة جناح، كلُّ جناحٍ منها يسدُّ الأُفُقَ»(١) فالاستواءُ هاهنا بمعنى اعتدال الشيء في ذاته كما قال الراغب(٢)، وهو المرادُ بالاستقامة، لا ضدّ الاعوجاج، ومنه استوى الثمر: إذا نَضِجَ.

وفي الكلام ـ على ما قال الخفاجي ـ طيٌّ؛ لأنَّ وصفَه عليه السلام بالقوَّة وبعضِ صفات البشر يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ رآه في غير هيئتِهِ الحقيقيةِ، وهذا تفصيلٌ لجواب سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: فهل رآه على صورته الحقيقية؟ فقيل: نعم رآه فاستوى.. إلخ(٣).

وفي «الإرشاد»: أنَّه عطفٌ على «عَلَّمه» بطريق التفسير، فإنَّه إلى قوله تعالى: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ بيانٌ لكيفية التعليم(٤).

وتُعقِّبَ بأنَّ الكيفيةَ غيرُ منحصرةٍ فيما ذكر، ومن هنا قيل: إنَّ الفاء للسببية، فإنَّ تشكُّلَه عليه السلام بشكله يتسبَّبُ عن قوته وقدرته على الخوارق، أو عاطفة على «علَّمه» على معنى: علَّمه على غير صورته الأصلية، ثم استوى على صورته الأصلية.

وتُعقِّب بأنَّه لا يتمُّ به التمامُ الكلام ويحسُنُ به النظام.

وقيل: استوى بمعنى ارتفَع، والعطفُ على علَّم، والمعنى: ارتفَعَ إلى السماء بعد أنْ علَّمه.

وأكثرُ الآثار تقتضي ما تقدَّم.

---

(١) مسند أحمد (٣٧٤٨)، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٣. وأخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) دون قوله: «كلُّ جناحٍ منها يسدُّ الأفق».
(٢) في المفردات (سوى).
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ١١٠.
(٤) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٥٥.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ أي: الجهةِ العليا من السماء المقابلة للناظر، وأصلُه الناحيةُ، وما ذكره أهلُ الهيئة معنًى اصطلاحيٌّ، وينقسم عندهم إلى حقيقيٍّ وغيره كما فُصِّل في محلِّه، وأخرج ابنُ المنذر عن ابن عباس أنَّ المرادَ به هنا مطلعُ الشمس[1]. وفي معناه قول الحسن: هو أُفُقُ المشرق.

والجملةُ في موضع الحال من فاعل «استوى»، وقال الفراء والطبري[2]: إنَّ «هو» عطفٌ على الضمير المستتر في «استَوَى»، وهو عائدٌ إلى النبي ﷺ، كما أنَّ ذلك عائدٌ لجبريل عليه السلام ـ وجوِّز العكس ـ والجارُّ متعلِّق بـ «استوى».

وفيه العطفُ على الضمير المرفوع من غير فصل، وهو مذهبُ الكوفيين مع أنَّ المعنى ليس عليه عند الأكثرين.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: ثم قَرُب جبريلُ عليه السلام من النبيِّ ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فتعلَّق جبريلُ عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الهواء، ومنه: تدلَّت الثَّمرةُ، و: دلَّى رجلَيه من السرير، والدوالي: الثَّمرُ المعلَّقُ كعناقيد العنب، وأنشدوا لأبي ذؤيب يصفُ مشتار عسل:

تـدَلَّـى عـلـيـهـا بـيـن سِـبٍّ وخَـيْـطَـةٍ ... بجَرداءَ مثل الوَكْفِ يكبو غُرابُها[3]

ومن أسجاع ابنةِ الخُسِّ: كُنْ حَذِراً كالقِرِلَّى: إنْ رأى خيراً تدلَّى، وإنْ رأى شرّاً تولَّى[4].

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٣.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٥، وتفسير الطبري ٢٢/ ١٢.

(٣) ديوان الهذليين ص ٧٩، يصف الشاعر مشتار العسل، أراد: أنه تدلى من رأس جبل على خلية عسلٍ ليشتارها بحبل شده في وسطه، وقد أثبته في رأس جبل، بجرداء: يعني أرضاً ملساء لا تنبت شيئاً يكبو غراب الفاس عنها لصلابتها إذا حفرت، والوكف: النطع. انظر اللسان (سبب) و(وكف).

(٤) المستقصى ١/ ٦٢، ومجمع الأمثال ١/ ٢٢٨، واللسان (قرل). قال الزمخشري: القِرِلَّى طائر من بنات الماء صغير الجرم سريع الخطف، يرفرف على وجه الماء، ويهوي بإحدى عينيه إلى الماء والأخرى إلى الجو فَرَقاً من جارح، فإذا أبصر في الماء سمكة يستطيع الاستقلال بها انقض كالسهم المرسل فاختطفها من قعر الماء، وإن أبصر جارحاً مرَّ في الأرض. وابنة =

فالمرادُ بالتدلِّي دنوٌّ خاصٌّ، فلا قَلْبَ ولا تأويلَ بإرادة الدنوِّ كما في «الإيضاح»[١]، نعم إنْ جُعِلَ بمعنى التنزُّل من علوٍّ كما يُرشدُ إليه الإشتقاق كان له وجه.

﴿فَكَانَ﴾ أي: جبريلُ عليه السلام من النبيِّ ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: مِن قِسيِّ العرب؛ لأنَّ الإطلاق ينصرفُ إلى مُتعارَفِهم، والقابُ وكذا القِيبُ، والقادُ والقِيدُ، والقيس: المقدارُ.

وقرأ زيد بن علي: «قادَ»، وقرئ: «قَيْدَ»، و«قَدْرَ»[٢].

وقد جاء التقديرُ بالقوس كالرمح والذراع وغيرهما، ويقال على ما بين مَقْبِض القوسِ وسِيَتها، وهي ما عطف مِن طَرَفَيها، فلكلِّ قوسٍ قابان، وفُسِّر به هنا، قيل: وفي الكلام عليه قلبٌ، أي: فكان قابَي قوسٍ، وفي «الكشف»: لك أنْ تقولَ: قابا قوسٍ وقابَ قوسَين، واحدٌ دون قَلْبٍ.

وعن مجاهد والحسن: أنَّ قاب القوس ما بينَ وَترها ومَقْبضها. ولا حاجةَ إلى القلب عليه أيضاً، فإنَّ هذا على ما قال الخفاجي: إشارةٌ إلى ما كانت العرب في الجاهلية تفعلُه إذا تحالَفُوا، فإنَّهم كانوا يُخرجون قوسَين ويَلصقون إحداهما بالأخرى فيكونُ القابُ ملاصقاً للآخر، حتى كأنَّهما ذا قابٍ واحدٍ، ثم ينزِعونهما معاً ويرمونَ بهما سهماً واحداً، فيكون ذلك إشارةً إلى أنَّ رضا أحدهم رضا الآخر وسَخَطه سخَطُه لا يمكن خلافُه.

وعن ابن عباس: القوسُ هنا ذراعٌ يُقاسُ به الأطوال، وإليه ذهَبَ أبو[٣] رزين، وذكر الثعلبي: أنَّه من لغة الحجاز[٤].

= الخُسّ ـ بضم الخاء المعجمة وتشديد السين المهملة ـ اسمها هند الإيادية، وهي جاهلية قديمة، أدركت القلمَّس أحد حكام العرب في الجاهلية. خزانة الأدب ١٠/ ٢٦٠.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ١/ ٧٩.

(٢) ذكر هذه القراءات الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٨.

(٣) في الأصل: ابن رزين، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٨/ ١٥٨.

(٤) تفسير الثعلبي ٩/ ١٣٨.

وأيًّا ما كان فالمعنى على حَذْف مضاف، أي: فكان ذا قابِ قوسَين، ونحوه قوله:

فـأدرَك إبـقـاءَ الـعَـرَادَة ظـلـعُـهـا ... وقد جَعَلْتَني مِن حَزيمةَ إصْبَعَا[١]

فإنَّه على معنى: ذا مقدارِ إصبع، وهو القُرْب، فكأنَّه قيل: فكان قريباً منه. وجوِّز أنْ يكونَ ضمير «كان» للمسافة بتأويلها بالبُعد ونحوه، فلا حاجةَ إلى اعتبار الحذْفِ. وليس بذاك.

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: أو أقربَ من ذلك، و«أو» للشكِّ من جهة العباد على معنى: إذا رآه الرائي يقول: هو قابُ قوسَين أو أدنى، والمرادُ إفادةُ شدَّة القرب.

﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي: عبد الله وهو النبيُّ ﷺ، والإضمارُ ـ ولم يجر له تعالى ذِكرٌ ـ لكونه في غاية الظهور، ومثلُه كثيرٌ في الكلام، ومنه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

﴿مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ أي: الذي أوحاه، والضميرُ المستترُ لجبريل عليه السلام أيضاً، وإبهامُ الموحَى به للتفخيم، فهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وقال ابن زيد[٢]: الضميرُ المستتر لله عز وجل، أي: أوحَى جبريلُ إلى عبد الله ما أوحاه اللهُ إلى جبريلَ. والأوَّلُ مرويٌّ عن الحسن وهو الأحسنُ.

---

(١) البيت للكَلْحَبة العريني هبيرة بن عبد منان العريني كما في المفضليات ص ٣٢، واللسان (حرم)، وخزانة الأدب ١/ ٣٨٨، ونسبه ابن يعيش في شرح المفصل للأسود بن يعفر ٣/ ٣١.

قوله: إبقاء، هو ما تبقيه الفرس من العَدْو، إذ من عتاق الخيل ما لا تعطي ما عندها من العَدو بل تبقي منه شيئاً إلى وقت الحاجة، يقال: فرس مبقية: إذا كانت تأتي بجري عند انقطاع جريها وقت الحاجة، والعرادة: اسم فرس الكلحبة، وقوله: ظلعها، الظلوع في الإبل بمنزلة الغَمْزِ، أي: العرج اليسير. وحزيمة: هو ابن طارق كان رئيساً لبني تغلب. يقول: فاتني حزيمة وما بيني وبينه إلا قدر إصبع، وينظر خزانة الأدب.

(٢) في (م): أبو زيد، وهو خطأ، والمثبت من الأصل والبحر ٨/ ١٥٨، والكلام منه، وأخرجه بنحوه عن ابن زيد الطبري ٢٢/ ٢١.

وقيل: ضميرا[1] «أوحى» الأوَّل والثاني لله تعالى، والمرادُ بالعبد جبريلُ عليه السلام. وهو كما ترى.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي: فؤادُ محمدٍ ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أي: ما قال فؤاده ﷺ لمَّا رآه ببصره: لم أَعرِفْك، ولو قال ذلك لكان كاذباً؛ لأنَّه عَرَفه بقلبه كما رآه ببصره، فهو من قولهم: كَذَب، إذا قال كذباً، فـ «ما كَذَب» بمعنى: ما قال الكذب.

وقيل: أي: ما كذَب الفؤادُ البصَرَ فيما حكاه له من صورة جبريل عليه السلام، وما في عالم الملكوت تدرك أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر.

قرأ أبو رجاء وأبو جعفر وقتادة والجحدري وخالد بن إلياس وهشام عن ابن عامر: «ما كذَّب» مشدَّداً[2]، أي: صدَّقه ولم يشكَّ أنَّه جبريلُ عليه السلام بصورته.

وفي الآيات مِن تحقيق أمرِ الوحي ما فيها.

وفي «الكشف»: أنَّه لمَّا قال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ﴾ أي: من عند الله تعالى ﴿يُوحَىٰ﴾، ذكر جل وعلا ما يصوِّر هذا المعنى ويُفصِّله ليتأكَّد أنَّه وَحْيٌ، وأنَّه ليس من الشعر وحديث الكهان في شيءٍ، فقال تعالى: علَّم صاحبَكم هذا الوحيَ مَن هو على هذه الصفات.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ وحديثُ قيامِه بصورته الحقيقية ليؤكِّدَ أنَّ ما يأتيه في صورة دِحْيَةَ هو هو، فقد رآه بصورة نفسه، وعرَفه حقَّ معرفته، فلا يشتبهُ عليه بوجهٍ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ تتْميمٌ لحديث نزوله إليه عليه الصلاة والسلام وإتيانه بالمنزل.

---

(١) في (م): ضمير.

(٢) قراءة أبي جعفر وهشام في التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩، وقراءة أبي رجاء وقتادة والجحدري وخالد في القراءات الشاذة ص ١٤٦، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٨، والبحر المحيط ٨/ ١٥٩.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: جبريل ذلك الوَحْيَ الذي مرَّ أنَّه مِن عند الله تعالى إلى عبد الله، وإنما قال سبحانه: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ ولم يأت بالضمير تفخيماً لشأن المنزَل، وأنَّه شيءٌ يَجِلُّ عن الوصف، فأنَّى يستجيزُ أحدٌ من نفسه أنْ يقولَ: إنَّه شعرٌ أو حديثُ كاهن.

وإيثارُ «عبده» بَدَلَ: إليه ـ أي: إلى صاحبكم ـ لإضافة الاختصاص، وإيثارُ الضمير على الاسم العَلَم في هذا المقامِ لترشيحه، وأنَّه ليس عبداً إلا له عز وجل، فلا لَبْسَ؛ لشهرته بأنَّه عبد الله لا غير. وجاز أنْ يكونَ التقديرُ: فأوحَى الله تعالى بسببه ـ أي: بسبب هذا المُعلَّم ـ إلى عبده، ففي الفاء دلالةٌ على هذا المعنى، وهذا وجهٌ أيضاً سديدٌ.

ثم قال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ على معنى أنَّه لمَّا عرَفَه وحقَّقَه لم يكذبه فؤادُه بعد ذلك ولو تصوَّر بغير تلك الصورة أنَّه جبريل، فهذا نَظْمٌ سريٌّ مرعيٌّ فيه النكتُ حقَّ الرعاية مطابقٌ للوجود، لم يعدل به عن واجب الوفاق بين البداية والنهاية. انتهى.

وهو كلام نفيسٌ يُرجَّح به ما روي عن عائشة رضي الله عنها، وسيأتي ذلك إن شاء الله عز وجل بما له وما عليه[1].

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي: أتكذِّبونه فتجادلونه على ما يراه معاينةً، فـ«تمارونه» عطف على محذوفٍ على ما ذهب إليه الزمخشري[2]، مِن المراء، وهو المجادلة، واشتقاقُه من مَرَى الناقة: إذا مسحَ ظهرَها وضَرْعها لِيَخْرُجَ لَبَنُها وتدرَّ به، فشبَّه به الجدال لأنَّ كلًّا من المتجادلَين يطلبُ الوقوفَ على ما عند الآخر ليُلزِمَه الحجَّةَ، فكأنه يستخرج درَّه.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وعبد الله وابن عباس والجحدري ويعقوب

---

(١) في (م): بما له وعليه. وسيأتي ص١٢٣ من هذا الجزء.
(٢) في الكشاف ٤/ ٢٩.

وابن سعدان وحمزة والكسائي وخلف: «أفتَمْرُونه» بفتح التاء وسكون الميم[(١)] مضارع مَريتُ، أي: جحدْتُ، يقال: مريتُه حقَّه: إذا جحدتَه، وأنشدوا لذلك قول الشاعر:

لئن هَجَرْتَ أخا صِدْقٍ ومَكْرُمَةٍ لقد مَرَيْتَ أخاً ما كان يَمْرِيْكَا[(٢)]

أو مضارع مَريتُه: إذا غلبتَه في المِراء على أنَّه من باب المغالبة، ويجوزُ حَمْل ما في البيت عليه، وعدِّي الفعلُ بـ «على» وكان حقُّه أنْ يُعدَّى بـ «في» لتضمينه[(٣)] معنى المغالبة، فإنَّ المجادِلَ والجاحد يقصدان بفعلهما غلبةَ الخَصْم.

وقرأ عبد الله فيما حكى ابنُ خالويه، والشعبيُّ فيما ذكر شعبة: «أفتُمْرُونه» بضم التاء وسكون الميم مضارع أمريتُ[(٤)]، قال أبو حاتم: وهو غلطٌ.

والمرادُ بـ «ما يَرَى» ما رآه من صورة جبريلَ عليه السلام، وعبَّر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية لِمَا فيها من الغَرابة، وفي «البحر»: جيء بصيغة المضارع وإنْ كانت الرؤية قد مضَت إشارةً إلى ما يمكن حدوثُه بعدُ[(٥)].

وقيل: المرادُ: أفتمارُونه على ما يرى مِن الصُّور التي يظهرُ بها جبريلُ عليه السلام بعدَ ما رآه قبلُ وحقَّقه، بحيث لا يشتَبِهُ عليه بأيِّ صورةٍ ظَهَر، فالتعبير بالمضارع على ظاهره.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي: رأى النبيُّ جبريلَ ﷺ في صورته التي خلَقَه الله تعالى عليها ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: مرَّةً أخرى من النزول، وهي «فَعْلَة» من النزول، أُقيمَت مقام المرة ونُصبَت نَصْبَها على الظرفية؛ لأنَّ أصل المرة مصدر مرَّ يمرُّ، ولشدَّة اتِّصال

---

(١) قراءة يعقوب وحمزة والكسائي وخلف في التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩، وقراءة علي كرم الله وجهه وعبد الله وابن عباس رضي الله عنهم وابن سعدان في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩، والبحر المحيط ٩/ ١٥٩.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٩، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٢٣، والبحر المحيط ٨/ ١٥٩.

(٣) في الأصل: لتضمنه.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والبحر المحيط ٨/ ١٥٩ والكلام منه.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٥٩.

الفعل بالزمان يُعبَّر به عنه، ولم يقل: مرةً، بدَلَها ليُفيدَ أنَّ الرؤيةَ في هذه المرة كانت بنزولٍ ودنوٍّ كالرؤية في المرة الأُولَى الدالِّ عليها ما مرَّ.

وقال الحوفي وابنُ عطية: إنَّ «نزلةً» منصوبٌ على المصدرية للحال المقدَّرة، أي: نازلاً نزلةً[1].

وجوَّز أبو البقاء كونَه منصوباً على المصدرية لـ «رأى» من معناه، أي: رؤيةً أُخرَى[2]. وفيه نظر.

والمرادُ من الجملة القَسَمية نَفْيُ الريبة والشكِّ عن المرة الأخيرة، وكانت ليلةَ الإسراء.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ هي شجرةُ نَبِق عن يمين العرشِ في السماء السابعة على المشهور، وفي حديث أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم في السماء السادسة[3]، نَبِقُها كقِلال هَجَر، وأَوراقُها مثلُ آذانِ الفيلة[4]، يسيرُ الراكبُ في ظلِّها سبعينَ عاماً لا يقطعُها[5].

وأخرج الحاكم وصحَّحه عن أسماء بنتِ أبي بكر رضي الله عنهما مرفوعاً: «يسيرُ الراكبُ في الفَنَنِ منها مئةَ سنةٍ»[6].

والأحاديث ظاهرةٌ في أنَّها شجرةُ نَبِقٍ حقيقةً، والنبات في الشاهد يكونُ ترابيّاً ومائيّاً وهوائيّاً؛ ولا يبعدُ من الله تعالى أنْ يخلُقَه في أيِّ مكانٍ شاء، وقد أخبر سبحانه عن شجرة الزقوم أنَّها تنبتُ في أصل الجحيم. وقيل: إطلاقُ السِّدرة

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٩.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٧، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٨/ ١٥٩.

(٣) مسند أحمد (٣٦٦٥)، وصحيح مسلم (١٧٣)، وسنن الترمذي (٣٢٧٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) ينظر حديث أنس رضي الله عنه عند أحمد (١٢٥٠٥)، ومسلم (١٦٢)، وفيه: «... ثم ذُهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال...».

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٣٨.

(٦) المستدرك ٢/ ٤٦٩، وأخرجه الترمذي (٢٥٤١) وقال: هذا حديث حسن غريب.

عليها مجازٌ لأنَّها تجتمعُ عندها الملائكة عليهم السلام كما يجتمعُ الناس في ظلِّ السِّدرة.

و«المنتهى» اسمُ مكانٍ، وجوِّز كونُه مصدراً ميميّاً. وقيل لها «سِدْرَة المنتهى» لأنَّها كما أخرج عبد بنُ حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس: إليها ينتهي علمُ كلِّ عالمٍ، وما وراءها لا يعلمه إلا الله تعالى[1]. أو لأنَّها ينتهي إليها علمُ الأنبياء عليهم السلام ويعزُبُ عِلْمُهم عما وراءها. أو لأنَّها تنتهي إليها أعمالُ الخلائق، بأنْ تُعرَضَ على الله تعالى عندها. أو لأنَّها ينتهي إليها ما ينزِلُ مِن فوقها وما يصعدُ من تحتها. أو لأنَّها تنتهي إليها أرواحُ الشهداء، أو أرواحُ المؤمنين مطلقاً. أو لانتهاء مَن رُفع إليها في الكرامة. وفي «الكشاف»: كأنَّها منتهى الجنة وآخرُها[2].

وإضافة «سِدْرة» إلى «المُنتهَى» من إضافة الشيءِ لمحلِّه، كما في: أشجار البستان، وجوِّز أنْ تكونَ من إضافة المحلِّ إلى الحالِّ كما في قولك: كتاب الفقه.

وقيل: يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بـ «المنتهى» اللهَ عز وجل، فالإضافةُ من إضافة المُلْك إلى المالك، أي: سِدْرة الله الذي إليه المنتهى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ وعُدَّ ذلك من باب الحذفِ والإيصال. ولا يخفَى أنَّ هذا القولَ يكادُ يكون المنتهى في البعد.

﴿عِندَهَا﴾ أي: عند السدرة، وجوِّزَ أنْ يكونَ الضميرُ للنزلة، وهو نازلٌ عن رُتبة القَبول.

﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة كما روي عن الحسن، واستُدلَّ به على أنَّ الجنةَ في السماء.

وقال ابن عباس بخلافٍ عنه وقتادة: هي جنةٌ تأوي إليها أرواح الشهداء، وليست بالتي وُعِد المتقون.

---

(١) عزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٥، وأخرج الطبري ٢٢/ ٣٣ عن كعب الأحبار، أنه حدث به ابن عباس لما سأله ابن عباس عن سدرة المنتهى.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٩.

وقيل: هي جنةٌ تأوي إليها الملائكةُ عليهم السلام. والأول أظهرُ.

والمأوى على ما نصَّ عليه الجمهور اسمُ مكانٍ، وإضافة الجنة إليه بيانية.

وقيل: من إضافة الموصوفِ إلى الصفة كما في مسجد الجامع. وتعقِّب بأنَّ اسمَ المكان لا يوصَف به.

والجملةُ حاليةٌ، وقيل: الحالُ هو الظرفُ، و«جنةٌ» مرتفعٌ به على الفاعلية.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وأبو الدرداء وأبو هريرةَ وابنُ الزبير وأنسُ وزرٌّ ومحمد بنُ كعب وقتادةُ: «جَنَّهُ» بهاء الضمير[1]، وهو ضميرُ النبيِّ ﷺ، وجَنَّ: فعلٌ ماضٍ، أي: عندها ستَرَه إيواءُ الله تعالى وجميلُ صُنعِهِ به، أو ستَرَه المأوَى بظلاله ودَخَل فيه. على أنَّ «المأوَى» مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمُ مكانٍ. وجنَّه بمعنى ستَرَه، قال أبو البقاء: شاذٌّ، والمستعملُ أَجنَّه[2]. ولهذا قالت عائشة ﷺ وكذا جَمْعٌ من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: مَن قَرأَ به فأَجنَّه الله تعالى، أي: جعَلَه مجنوناً، أو أدخله الجَنَنَ وهو القبرُ. وأنت تعلمُ أنَّه إذا صحَّ أنَّه قرأ به الأمير كرم الله تعالى وجهه ومَن معه من أكابر الصحابة فليس لأحدٍ ردُّه من حيث الشذوذ في الاستعمال، وعائشة قد حُكيَ عنها الإجازة أيضاً[3].

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ متعلِّقٌ بـ «رآه». وقيل: بما بَعْدُ مِن الجملة المنفية، ولا يضرُّ التقدُّم على «ما» النافية؛ للتوسع في الظرف.

والغَشَيانُ بمعنى التغطية والستر، ومنه الغَواشي، أو بمعنى الإتيان؛ يقال: فلانٌ يغشَى زيداً كلَّ حينٍ، أي: يأتيه. والأولُ هو الأَليَقُ بالمقام.

وفي إبهام «ما يغشى» من التفخيم ما لا يخفَى، فكأنَّ الغاشي أمرٌ لا يحيطُ به نطاقُ البيان، ولا تَسَعُه أردانُ الأذهان. وصيغةُ المضارع لحكاية الحالِ الماضية

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٦، والمحتسب ٢/ ٢٩٣، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٩، والبحر المحيط ٨/ ١٥٩.
(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٥٧.
(٣) البحر ٨/ ١٦٠.

استحضاراً لصورتها البديعة، وجوِّز أنْ يكونَ للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدُّد.

ووردَ في بعض الأخبار تعيينُ هذا الغاشي، فعن الحسن: غَشِيَها نورُ ربِّ العزة جلَّ شأنُه فاستنارَت. ونحوُه ما روي عن أبي هريرةَ: يَغْشاها نورُ الخلَّاق سبحانه.

وعن ابن عباسٍ: غَشِيَها ربُّ العزة عز وجل، وهو من المتشابه.

وقال ابنُ مسعود ومجاهد وإبراهيم: يغشاها جرادٌ من ذهب.

وروي عن مجاهد: أنَّ ذلك تبدُّل أغصانها لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً.

وأخرج عبدُ بن حميد عن سلمةَ قال: استأذنَت الملائكةُ الربَّ تبارك وتعالى أنْ ينظروا إلى النبيِّ ﷺ، فأذِنَ لهم، فغَشِيَت الملائكةُ السِّدرةَ لينظروا إليه عليه الصلاة والسلام[1].

وفي حديث: «رَأَيتُ على كلِّ ورقةٍ مِن وَرَقها ملكاً قائماً يُسبِّحُ الله تعالى»[2].

وقيل: يغشاها رَفْرَفٌ مِن طيرٍ خُضرٍ، والإبهامُ على هذا كلِّه على نحو ما تقدَّم.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: ما مالَ بصَرُ رسول الله ﷺ عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوَزَه، بل أثبتَهُ إثباتاً صحيحاً مستيقناً، وهذا تحقيقٌ للأمر ونَفْي للرَّيب عنه، أو: ما عدَلَ عن رؤية العجائبِ التي أُمِرَ برؤيتها وما جاوَزَها إلى ما لم يُؤمَر برؤيته.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي: واللهِ لقد رَأَى الآياتِ الكبرى من آياته تعالى، وعجائبِهِ الملكية والملكوتية ليلةَ المعراج، فـ «الكبرى» صفةُ موصوفٍ محذوفٍ مفعول لـ «رأى» أُقيمَت مقامَه بعد حذفه، وقدِّر مجموعاً ليطابِقَ الواقع.

وجوِّز أنْ تكونَ «الكبرى» صفة المذكورِ على معنى: ولقد رَأَى بعضاً من الآيات الكبرى، ورجِّح الأولُ بأنَّ المقامَ يقتضي التعظيمَ والمبالغة، فينبغي أنْ

---

(١) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٦.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/٤٢ عن عبد الرحمن بن زيد يرفعه إلى النبي ﷺ، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠-١٦١: وعبد الرحمن ضعيف، وهذا معضل.

يُصرَّح بأنَّ المَرئيَّ الآياتُ الكبرى، وجوَّزت الوصفيةُ المذكورةُ مع كون «مِن» مزيدةً، وأنت تعلم أنَّ زيادةَ «مِن» في الإثبات ليس مُجمَعاً على جوازه.

وجاء في بعض الأخبار تعيينُ ما رأى عليه الصلاة والسلام، أخرج البخاريُّ وابن جرير وابن المنذر وجماعة عن ابن مسعود أنَّه قال في الآية: رأى رَفْرفاً أخضرَ من الجنة قد سَدَّ الأفق[1].

وعن ابن زيد: رَأى جبريلَ عليه السلام في الصورة التي هو بها.

والذي ينبغي أنْ لا يُحمَلَ ذلك على الحصر كما لا يخفى، فقد رَأى عليه الصلاة والسلام آياتٍ كُبرَى ليلةَ المعراج لا تُحصَى، ولا تكادُ تُستقصَى.

هذا وفي الآيات أقوالٌ غيرُ ما تقدَّم، فعن الحسن: أنَّ «شديد القُوى» هو الله تعالى، وجمع «القُوى» للتعظيم، ويُفسِّر «ذو مِرَّة» عليه بذي حكمةٍ ونحوه مما يليقُ أنْ يكونَ وصفاً له عز وجل. وجعل أبو حيان الضميرَين في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ عليه له سبحانه أيضاً، وقال: إنَّ ذلك على معنى العظمةِ والقدرة والسلطان[2].

ولعلَّ الحسنَ يجعلُ الضمائر في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ له عز وجل أيضاً، وكذا الضميرُ المنصوب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فقد كان عليه الرحمة يحلفُ بالله تعالى، لقد رأى محمدٌ ﷺ ربَّه، وفُسِّر دنوُّه تعالى من النبيِّ ﷺ برَفْع مكانتِهِ ﷺ عنده سبحانه، وتَدلِّيه جل وعلا بجَذْبِهِ بشراشره إلى جناب[3] القدس، ويقال لهذا الجَذْبِ: الفناءُ في الله تعالى، عند المتألِّهين، وأُريدَ بنزوله سبحانه نوعٌ مِن دنوِّه المعنوي جل شأنه.

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاعُ عِلْمه إلى الله تعالى بعد نَفْي التشبيه.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٣) و(٤٨٥٨)، وتفسير الطبري ٢٢/ ٤٥، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٧.

(٣) في (م): جانب.

وجوّز أنْ تكونَ الضمائرُ في[1] «دنا فتدلّى فكان قابَ قوسَين أو أدنى» على ما روي عن الحسن للنبيِّ ﷺ، والمرادُ: ثمَّ دنا النبيُّ عليه الصلاة والسلام من ربِّه سبحانه، فكان منه عز وجل قابَ قوسَين أو أدنى، والضمائرُ في «فأوحى» إلخ لله تعالى، وقيل: «إلى عبده» ولم يقل: إليه، للتفخيم، وأمرُ المتشابه قد عُلم.

وذهب غيرُ واحد في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ إلى أنَّه في أمر الوحي وتلقِّيه من جبريل عليه السلام على ما سمعتَ فيما تقدَّم، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ إلخ إلى أنَّه في أَمْر العروجِ إلى الجناب الأقدس، ودنوِّه سبحانه منه ﷺ، ورؤيتِهِ عليه الصلاة والسلام إياه جل وعلا، فالضمائرُ في «دنا» و«تدلّى» و«كان» و«أوحى» وكذا الضمير المنصوب في «رآه» لله عز وجل. ويشهدُ لهذا ما في حديث أنس عند البخاري من طريق شَرِيك بن عبد الله: «ثمَّ عَلَا به فوقَ ذلك بما لا يعلَمُه إلا الله، حتى جاءَ سدرةَ المنتهى، ودنا الجبَّارُ ربُّ العزة، فتدلّى حتى كان منه قابَ قوسَين أو أدنى، فأوحَى إليه فيما أوحَى خمسينَ صلاةً» الحديث[2]، فإنَّه ظاهرٌ فيما ذكر.

واستدل بذلك مُثبتُو الرؤيةِ كحبر الأمةِ ابنِ عباس رضي الله عنهما وغيرِه، وادَّعَت عائشةُ رضي الله عنها خلافَ ذلك.

أخرج مسلم عن مسروق قال: كنتُ متَّكئاً عند عائشةَ فقالت: يا أبا عائشةَ، ثلاثٌ مَن تكلَّم بواحدةٍ منهنَّ فقد أعظمَ على الله تعالى الفريةَ. قلت: ما هنَّ؟ قالت: مَن زَعَم أنَّ محمداً رأى ربَّه، فقد أعظمَ على الله الفرية. قال: وكنتُ متَّكئاً فجلستُ فقلت: يا أمَّ المؤمنين أنظِريني ولا تَعجَليني، ألم يقُل الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أولُ هذه الأمةِ سألَ عن ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «لا، إنَّما هو جبريلُ لم أَرَه على صورتِهِ التي خُلِقَ عليها غير هاتَين المرَّتَين، رأيتُه مُنهَبِطاً من السماء ساداً عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السماء إلى الأرض» الحديث[3].

---

(١) قوله: في، ليس في الأصل.
(٢) صحيح البخاري (٧٥١٧)، وأخرجه مسلم (١٦٢).
(٣) صحيح مسلم (١٧٧)، وأخرجه البخاري مختصراً (٣٢٣٥).

وفي رواية ابن مردويه من طريقٍ أُخرَى عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق: فقالت: أنا أولُ مَن سألَ رسولَ الله ﷺ عن هذا فقلتُ: يا رسولَ الله، هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: «إنما رأيتُ جبريلَ مُنْهبِطاً»(١).

ولا يخفى أنَّ جوابَ رسولِ الله ﷺ ظاهرٌ في أنَّ الضمير المنصوبَ في «رآه» ليس راجعاً إليه تعالى، بل إلى جبريلَ عليه السلام، وشاعَ أنَّها تَنْفي أنْ يكونَ ﷺ رأى ربَّه سبحانه مطلقاً، وتستدلُّ لذلك بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى:٥١] وهو ظاهرُ ما ذكره البخاريُّ في «صحيحه» في تفسير هذه السورة(٢).

وقال بعضُهم: إنَّها تَنْفي رؤيةً تدل عليها الآية التي نحن فيها، وهي التي احتجَّ بها مسروق.

وحاصل ما روي عنها نَفْيُ صحةِ الاحتجاج بالآية المذكورة على رؤيته عليه الصلاة والسلام ربَّه سبحانه، ببيان أنَّ مَرجِعَ الضمير فيها إنَّما هو جبريلُ عليه السلام، على ما يدلُّ عليه جوابُ رسولِ الله ﷺ إيَّاها، وحَمْلُ قوله ﷺ في جوابها «لا» على أنَّه نَفْيٌ للرؤية المخصوصة، وهي التي يُظَنُّ دلالةُ الآية عليها، ويَرجِعُ إلى نَفْيِ الدلالة، ولا يلزمُ مِن انتفاءِ الخاصِّ انتفاءُ المطلَق.

والإنصافُ أنَّ الأخبار ظاهرةٌ في أنَّها تنفي الرؤيةَ مطلقاً، وتستدلُّ عليه بالآيتَين السابقتَين.

وقد أجاب عنهما مثبتو الرؤيةِ بما هو مذكورٌ في محلِّه.

والظاهرُ أنَّ ابن عباس لم يقُل بالرؤية إلا عن سماع، وقد أخرج عنه أحمدُ أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ربِّي»(٣) ذكره الشيخُ محمد الصالحي الشامي(٤)

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٤.
(٢) برقم (٤٨٥٥).
(٣) مسند أحمد (٢٥٨٠).
(٤) شمس الدين محمد الشامي، نزيل التربة البرقوقية، ألَّف السيرة النبوية التي جمعها من ألف =

تلميذُ الحافظ السيوطيِّ في «الآيات البينات» وصحَّحه.

وجمع بعضُهم بين قولَي ابن عباس وعائشةَ بأنَّ قولَ عائشةَ محمولٌ على نَفْي رؤيته تعالى في نوره الذي هو نورُه المنعوتُ بأنَّه لا يقوم له بصر، وقولَ ابنِ عباسٍ محمولٌ على ثبوت رؤيته تعالى في نوره الذي لا يذهبُ بالأبصار، بقرينة قوله في جواب عكرمة عن قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: ويحَكَ ذاك إذا تجلَّى بنورِهِ الذي هو نورُه[1].

وبه يظهرُ الجمعُ بين حديثَي أبي ذرٍّ، أخرج مسلم من طريق يزيد بنِ إبراهيم، عن قتادةَ، عن عبد الله بن شَقِيق، عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ أنَّى أَرَاه». ومِن طريق هشام وهَمَّام كلاهما عن قتادة عن عبد الله قال: قلتُ لأبي ذرٍّ: لو رأيتُ رسولَ الله ﷺ لسألتُه. فقال: عن أيِّ شيءٍ كنتَ تسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه هل رأيتَ ربك؟ فقال أبو ذرٍّ: قد سألتُه فقال: «رأيتُ نوراً»[2].

فيحمل النورُ في الحديث الأول على النور القاهرِ للأبصار، بجَعْل التنوينِ للنوعية أو للتعظيم، والنورُ في الثاني على ما لا يقومُ له البصرُ، والتنوين للنوعية، وإنْ صحَّت روايةُ الأول كما حكاه أبو عبد الله المازري بلفظ: «نُورَانيٌّ» بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء[3] لم يكن اختلافٌ بينَ الحديثَين، ويكون «نورانيٌّ» بمعنى المنسوب إلى النور على خلاف القياس؛ ويكونُ المنسوبُ إليه هو نورُه الذي هو نورُه، والمنسوبُ هو النورُ المحمول على الحجاب حَمْلَ مواطأةٍ في حديث السبحات في قوله عليه الصلاة والسلام: «حِجَابُه النُّورُ»[4]، وهو النورُ المانعُ من الإحراق الذي يقومُ له البصر.

= كتاب، وله: مرشد السالك إلى ألفية ابن مالك والنكت عليها، اقتضبه من نكت شيخه السيوطي عليها وعلى الشذور، والآيات البينات في معراج سيد أهل الأرض والسماوات. (ت ٩٤٢هـ). شذرات الذهب ١٠/ ٣٥٣.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٧٩) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) صحيح مسلم (١٧٨): (٢٩١)، و(١٧٨): (٢٩٢).

(٣) المعلم بفوائد مسلم للمازري ١/ ٢٢٣-٢٢٤. وينظر إكمال المعلم للقاضي عياض ١/ ٥٣٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٦٣٢)، ومسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ثم إنَّ القائلين بالرؤية اختلفُوا، فمنهم مَن قال: إنَّه عليه الصلاة والسلام رأى ربَّه سبحانه بعَيْنِهِ، ورَوَى ذلك ابنُ مردويه عن ابن عباس(١)، وهو مرويٌّ أيضاً عن ابن مسعود وأبي هريرة وأحمد ابن حنبل(٢).

ومنهم مَن قال: رآه عز وجل بقلبه، ورُوي ذلك عن أبي ذرٍّ، أخرج النسائي عنه أنَّه قال: رأى رسول الله ﷺ ربَّه بقلبه ولم يَرَهُ ببصره(٣). وكذا رُوي عن محمد بن كعب القرظي، بل أخرج عبد بنُ حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه [عن بعض أصحاب النبي ﷺ] أنَّه قال: قالوا: يا رسول الله، رأيتَ ربك؟ قال: «رأيتُه بفؤادي مرَّتين ولم أَرَهُ بعيني» ثم قرأ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾(٤). وفي حديثٍ عن ابن عباس يرفعُه: «فجَعَلَ نورَ بَصَري في فؤادي فنظرتُ إليه بفؤادي»(٥)

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٤ وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٦/ ٥٠٩-٥١٠: الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: رأى محمد ربَّه بفؤاده مرتين... والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة أو مقيدة بالفؤاد... ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه. وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: رآه بفؤاده، ولم يقل أحد إنه سمع أحمد يقول: رآه بعينه، لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق ففهموا منه رؤية العين، كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين.

وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدلُّ، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنَّى أراه»، وقد قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ ولو كان قد أراه نفسه بعينه لكان ذكر ذلك أولى. وكذلك قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ ولو كان رآه بعينه لكان ذكر ذلك أولى.

وقد ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الأمة أنه لا يرى اللهَ أحدٌ في الدنيا بعينه، إلا ما نازع فيه بعضهم من رؤية نبينا محمد ﷺ خاصة، واتفقوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة عياناً كما يرون الشمس والقمر. اهـ.

(٣) السنن الكبرى (١١٤٧٢).

(٤) عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٥، وأخرجه الطبري ٢٢/ ١٩ وما بين حاصرتين منهما.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٣، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: إسناده ضعيف.

وكأنَّ التقدير في الآية على هذا: ما كذَبَ الفؤادُ فيما رأى.

ومنهم مَن ذهَبَ إلى أنَّ إحدَى الرؤيَتَين كانت بالعين، والأُخرى بالفؤاد، وهي روايةٌ عن ابن عباس، أخرج الطبراني وابن مردويه عنه أنَّه قال: إنَّ محمداً ﷺ رَأى ربَّه عز وجل مرَّتَين مرَّةً ببصره ومرةً بفؤاده(١).

ونقل القاضي عياض عن بعض مشايخه أنَّه توقَّفَ، أي: في الرؤية بالعين، وقال: إنَّه ليس عليه دليلٌ واضحٌ(٢).

قال في «الكشف»: لأنَّ الروايات مصرِّحةٌ بالرؤية أما أنَّها بالعين فلا، وعن الإمام أحمد أنَّه كان يقول إذا سُئل عن الرؤية: رآه رآه. حتى ينقطعَ نفسُه، ولا يزيدُ على ذلك، وكأنَّه لم يثبُت عنده ما ذكرناه.

واختُلف فيما يقتضيه ظاهرُ النَّظم الجليل، فجَزَم صاحبُ «الكشف» بأنَّه ما عليه الأكثرون مِن أنَّ الدنوَّ والتدلِّي مقسَّم ما بين النبيِّ وجبريل صلاة الله تعالى وسلامه عليهما، أي: وأنَّ المرئيَّ هو جبريلُ عليه السلام، وإذا صحَّ خبرُ جوابه عليه الصلاة والسلام لعائشةَ ؓ لم يكن لأحدٍ محيصٌ عن القول به.

وقال العلامةُ الطيبي: الذي يقتضيه النظمُ إجراءُ الكلام إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ على أمر الوحي وتلقِّيه من المَلَك ورفع شُبَه الخصوم، ومن قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ على أمر العروجِ إلى الجناب الأقدَسِ، ثم قال: ولا يخفَى على كلِّ ذي لُبٍّ إباءُ مقام «فأوحى» الحملَ على أنَّ جبريلَ أوحَى إلى عبد الله «ما أوحى»، إذ لا يذوقُ منه أربابُ القلوب إلا معنى المناغاة بين المتَسارَّين، وما يضيقُ عنه بساطُ الوهم ولا يُطيقُه نطاقُ الفهم. وكلمةُ «ثم» على هذا للتراخي الرُّتْبي، والفرقُ بين الوحْيَيْن أنَّ أحدَهما وَحْيٌ بواسطة وتعليم، والآخَرُ بغير واسطةٍ بجهة التكريم،

---

(١) المعجم الكبير (١٢٥٦٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢، وفي إسناده مجالد بن سعيد، قال عنه ابن حجر في التقريب: ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره.

(٢) إكمال المعلم للقاضي عياض ١/ ٥٢٧، وشرح مسلم للنووي ٣/ ٤.

فيحصل عنه[١] عنده الترقِّي من مقام ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] إلى مَخْدَع (قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ).

وعن جعفر الصادق عليه الرضا أنَّه قال: لمَّا قَرُبَ الحبيبُ غايةَ القرب نالَته غايةُ الهيبة، فلاطفَه الحقُّ سبحانه بغاية اللطف؛ لأنَّه لا تُتحمَّل غايةُ الهيبةِ إلا بغاية اللطف، وذلك قوله تعالى: (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ) أي: كان ما كان وجَرَى ما جَرَى، قال الحبيبُ للحبيب ما يقول الحبيبُ لحبيبه، وألطفَ به إلطافَ الحبيب بحبيبه، وأسرَّ إليه ما يُسِرُّ الحبيب إلى حبيبه، فأخْفَيَا ولم يُطْلِعا على سرِّهما أحداً، وإلى نحو هذا يشير ابنُ الفارض بقوله:

ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا سرٌّ أرقُّ من النسيم إذا سرى[٢]

ومعظمُ الصوفية على هذا، فيقولون بدنوِّ الله عز وجل من النبيِّ ﷺ، ودنوِّه منه سبحانه على الوجه اللائق، وكذا يقولون بالرؤية كذلك.

وقال بعضُهم في قوله تعالى: (مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ): ما زاغَ بصرُ النبيِّ ﷺ، وما التفتَ إلى الجنة ومُزَخْرفاتها، ولا إلى الجحيم وزَفَراتها، بل كان شاخصاً إلى الحقِّ، وما طغَى عن الصراط المستقيم.

وقال أبو حفص السهروردي: «ما زاغ البصرُ» حيث لم يتخلَّف عن البصيرة ولم يتقاصر، «وما طغَى» لم يسبق البصرُ البصيرةَ[٣] ويتعدَّى مقامه.

وقال سهل بنُ عبد الله التستري: لم يرجع رسولُ الله عليه الصلاة والسلام إلى شاهد نفسه وإلى مشاهدتها، وإنَّما كان مشاهداً لربِّه تعالى، يُشاهد ما يظهرُ عليه من الصفات التي أَوجبَت الثبوت في ذلك المحلِّ.

وأرجَعَ بعضُهم الضميرَ في قوله تعالى: (وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ) إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وهو مُنتهى وصولِ اللطائف، وفسَّر «سِدرةَ المنتهى» بما يكون منتهى سيرِ

---

(١) قوله: عنه، ليس في الأصل.
(٢) ديوان ابن الفارض ص ١٦٩، وسلف عند تفسير الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.
(٣) في الأصل: تسبق البصيرة البصر، والمثبت من (م).

السالكين إليه، ولا يمكن لهم مجاوزتُه إلا بجذبةٍ من جذبات الحقِّ. وقالوا في «قابَ قوسَين» ما قالوا.

وأنا أقول برؤيته ﷺ ربَّه سبحانه، وبدنوِّه منه سبحانه على الوجه اللائق، ذهبْتَ فيما اقتضاه ظاهرُ النظم الجليلِ إلى ما قاله صاحبُ «الكشف»، أم ذهبتَ فيه إلى ما قاله الطيبي، فتأمَّل والله تعالى الموفق.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ هي أصنامٌ كانت لهم، فاللات كما قال قتادة: لثقيف بالطائف، وأنشدوا:

وَفَرَّتْ ثَقيفٌ إلى لاتِها بِمُنْقَلَبِ الخائبِ الخاسرِ[(١)]

وقال أبو عبيدة وغيرُه: كان بالكعبة[(٢)].

وقال ابنُ زيد: كان بنخلة عند سوقِ عُكاظ يعبدُه قريش.

ورجَّح ابنُ عطية قولَ قتادة[(٣)]، وقال أبو حيان[(٤)]: يمكنُ الجمعُ بأنْ يكونَ المسمَّى بذلك أصناماً فأُخبِرَ عن كلٍّ صنمٍ بمكانه.

والتاء فيه قيل: أصليةٌ، وهي لام الكلمة كالباء في باب، وألفه مُنقلبةٌ فيما يظهرُ من ياء؛ لأنَّ مادة «ل ي ت» موجودةٌ، فإنْ وُجِدَت مادةُ «ل وت» جازَ أنْ تكونَ مُنقلبةً من واو.

وقيل: تاءُ العِوض، والأصل لَوِيَة بزِنَةِ فَعلَة من لَوَى؛ لأنَّهم كانوا يَلْوُون عليه ويعتكفُون للعبادة، أو يلتوون عليه، أي: يطوفُون، فخفِّف بحذف الياء وأُبدِلَت واوُهُ ألفاً، وعوِّضَ عن الياء تاءً، فصارَت كتاء أخت وبنت، ولذا وُقِفَ عليها بالتاء.

---

(١) البيت لضرار بن الخطاب الفهري كما في سيرة ابن هشام ١/ ٤٧، وهو دون نسبة في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠، والبحر المحيط ٨/ ١٦٠.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٣٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٠.

(٤) في البحر المحيط ٨/ ١٦٠.

وقرأ ابن عباس ومجاهد ومنصور بنُ المعتمر وأبو صالح وطلحة وأبو الجوزاء ويعقوب وابن كثير في رواية بتشديد التاء[١] على أنَّه اسمُ فاعلٍ من لتَّ يلُتُّ إذا عَجَن؛ قيل: كان رجلٌ يلُتُّ السَّويق للحاجِّ على حَجَر، فلمَّا ماتَ عبدوا ذلك الحجَرَ إجلالاً له وسمَّوه بذلك.

وعن مجاهد أنَّه كان على صخرة في الطائف يصنعُ حَيساً، ويُطعم مَن يمرُّ من الناس، فلمَّا مات عبدوه.

وأخرجَ ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس: أنَّه كان يلُتُّ السَّويق على الحجر، فلا يشربُ منه أحدٌ إلا سَمِنَ فعبدوه[٢].

وأخرج الفاكهي عنه: أنَّه لمَّا مات قال لهم عمرو بن لحي: إنَّه لم يَمُت ولكنَّه دَخَل الصخرة. فعبدوها وبنَوا عليها بيتاً[٣].

وأخرج ابنُ المنذر عن ابن جريج أنَّه قال: كان رجلٌ من ثقيف يلُتُّ السويق بالزيت، فلمَّا تُوفي جعلوا قبرَه وثناً. وزعم الناس أنَّه عامرُ بن الظَّرِب أحدُ عَدْوان[٤]. وقيل غيرُ ذلك.

«والعزَّى» لغطفان، وهي على المشهور سَمُرَةٌ بنخلةَ كما قال قتادة، وأصلُها تأنيثُ الأعزِّ، وأخرج النسائيُّ وابن مردويه عن أبي الطفيل قال: لمَّا فتَحَ رسولُ الله ﷺ مكة بعَثَ خالد بنَ الوليد إلى نخلةَ وكانت بها العزَّى، فأتاها خالد، وكانت ثلاثَ سَمُرات، فقطَعَ السَّمُرات وهدَمَ البيت الذي كان عليها، ثم أَتَى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال: ارجع فإنَّك لم تصنع شيئاً، فرجَعَ خالد فلمَّا أبصرَته السَّدنة مضَوا وهم يقولون: يا عُزَّى يا عُزَّى، فأتاها فإذا امرأةٌ عُريانةٌ ناشرةٌ شعرها

---

(١) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٩، وهي رواية رويس عنه والكلام من البحر ٨/ ١٦٠، والمشهور عن ابن كثير تخفيف التاء كقراءة الباقين.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦، وأصله عند البخاري (٤٨٥٩) بلفظ: ﴿اللَّتَ﴾ رجلاً يلُتُّ سويق الحاج.

(٣) عزاه للفاكهي السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦.

(٤) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦.

تحثو الترابَ على رأسها، فجعَلَ يضربها بالسيف حتى قتَلَها، ثم رَجَع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك العُزَّى»[1].

وفي روايةٍ أنَّه ﷺ بعَثَ إليها خالداً، فقطعها فخرجَت منها شيطانةٌ ناشرةٌ شعرَها، داعيةٌ ويلَها، واضعةٌ يدَها على رأسها، فضرَبَها بالسيف حتى قتلها وهو يقول:

يـا عُـزُّ كُـفْـرَانَـك لا سـبـحـانَـك ‏ ‏ ‏ إنِّــي رأيــتُ الله قـــد أهـــانَـــكِ

ورجَعَ فأخبرَ رسولَ الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك العزَّى ولن تعبدَ أبداً»[2].

وقال ابنُ زيد: كانت العزَّى بالطائف. وقال أبو عبيدة: كانت بالكعبة[3]. وأيَّده في «البحر» بقول أبي سفيان في بعض الحروب للمسلمين: لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم[4]. وذَكَر فيه أنَّه صنمٌ، وجَمَعَ بمثل ما تقدَّم.

«ومناةَ» قيل: صخرة كانت لهذيل وخزاعة، وعن ابن عباس: لثقيف، وعن قتادة: للأنصار بقديد، وقال أبو عبيدة: كانت بالكعبة أيضاً[5]. واستظهر أبو حيان أنَّها ثلاثتُها كانت فيها؛ قال: لأنَّ المخاطَب في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ قريشٌ[6]. وفيه بحث.

و«مناة» مقصورةٌ قيل: وزنُها فَعْلَة، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّ دماءَ النَّسائِكِ كانت تُمنَى عندها، أي: تُراقُ.

---

(١) السنن الكبرى (١١٤٨٣)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٦، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٩٠٢)، وأبو نعيم في الدلائل (٤٦٣).

(٢) أخرجها الواقدي في المغازي ٣/ ٨٧٣-٨٧٤، ومن طريقه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ١٢٧-١٢٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٣٦.

(٤) البحر ٨/ ١٦١، وقول المصنف الآتي: وجمع بمثل ما تقدم، أي: جمع أبو حيان بين هذه الأقوال بمثل ما جمع بين الأقوال في اللات كما سلف قريباً.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٣٦.

(٦) البحر المحيط ٨/ ١٦١.

وقرأ ابن كثير على ما في «البحر»: «مَنَاءَةَ» بالمدِّ والهمز[١]، كما في قوله:

أَلَا هـل أتـى تَـيْـمَ بـنَ عـبـدِ مَـنَـاءةٍ على النأي فيما بيننا ابنُ تَميم[٢]

ووزنُها مَفْعَلَة، فالألف منقلبة عن واو كما في مقالة، والهمزةُ أصلٌ، وهي مشتَّقةٌ من النَّوء، كأنَّهم كانوا يستمطرون عندها الأنواءَ تبرُّكاً بها.

والظاهرُ أنَّ «الثالثةَ الأُخرَى» صفتان لـ «مناة»، وهما على ما قيل: للتأكيد، فإنَّ كونَها ثالثةً وأُخرَى مغايرةً لِمَا تقدَّمها معلومٌ غيرُ محتاجٍ للبيان.

وقال بعضُ الأجلَّة: «الثالثة» للتأكيد، و«الأخرى» للذمِّ بأنَّها متأخِّرة في الرتبة وضيعةُ المقدار.

وتعقبه أبو حيان: بأنَّ «آخر» ومؤنَّثَهُ «أُخرى» لم يُوضعا لذمٍّ ولا لمدحٍ، وإنما يدلَّان على معنَى «غير»[٣]. والحقُّ أنَّ ذلك باعتبار المفهوم الأصلي، وهي تدلُّ على ذمِّ السابقَتين أيضاً؛ قال في «الكشف»: هي اسمُ ذمٍّ يدلُّ على وَضاعة السابقتَين بوجهٍ أيضاً؛ لأنَّ «أُخرَى» تأنيثَ «آخر» تستدعي المشاركةَ مع السابق، فإذا أتَى بها لقصد التأخُّر في الرتبة عملاً بمفهومها الأصلي ـ إذ لا يمكن العملُ بالمفهوم العُرفي؛ لأنَّ السابقتَين ليستَا ثالثة أيضاً ـ استَدْعَت المشاركة قضاءً لحقِّ التفضيل، وكأنَّه قيل: «الأُخرَى» في التأخُّر. انتهى. وهو حَسَنٌ، وذكر في نكتة ذمِّ مناةَ بهذا الذمِّ أنَّ الكفرةَ كانوا يزعُمُون أنَّها أعظمُ الثلاثة، فأَكْذَبهم الله تعالى بذلك.

وقال الإمام: «الأُخرَى» صفةُ ذمٍّ كأنَّه قال سبحانه: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ الذليلة، وذلك لأنَّ اللاتَ كان على صورةِ آدميٍّ، والعزَّى صورةُ نباتٍ، ومناة صورةُ صخرة، فالآدميُّ أشرفُ مِن النبات، والنبات أشرفُ من الجماد، فالجماد متأخِّرٌ، ومناة جمادٌ فهي في أُخرَيات المراتب[٤]. وأنت تعلم أنَّه لا يتأتَّى على كلِّ الأقوال.

---

(١) البحر ٨/ ١٦١، وهي في التيسير ص ٢٠٤، والنشر ٢/ ٣٧٩.

(٢) البيت لهَوْبَر الحارثي كما في تفسير القرطبي ٢٠/ ٣٧، واللسان (منى).

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٢.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٢٩٦.

وقيل: «الأُخرَى» صفةٌ للعزَّى؛ لأنَّها ثانيةُ اللات، والثانيةُ يقال لها: «الأُخرَى»، وأُخِّرَت لموافقة رؤوس الآي.

وقال الحسين بن الفضل[1]: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، والتقدير: والعزَّى الأُخرى ومناة الثالثة. ولَعَمري إنَّه ليس بشيءٍ.

والكلامُ خطابٌ لعَبَدَةِ هذه المذكورات، وقد كانوا مع عبادتهم لها يقولون: إنَّ الملائكة عليهم السلام وتلك المعبوداتِ الباطلة بناتُ الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، فقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً: «أَفرأَيتُم» إلخ والهمزةُ للإنكار، والفاءُ لتوجيهه إلى ترتيب الرؤيةِ على ما ذكر مِن شؤون الله تعالى المنافيةِ لها غايةَ المنافاة، وهي عِلْميةٌ عند كثير، ومفعولُها الثاني على ما اختاره بعضُهم محذوفٌ لدلالة الحال عليه، فالمعنى: أعقيب ما سمعتُم من آثار كمال عظمةِ الله عز وجل في ملكه وملكوته وجلاله وجبروته، وإحكامِ قدرته ونفاذِ أمره، رأيتُم هذه الأصنامَ ـ مع غاية حقارتها ـ بناتِ الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ توبيخٌ مبنيٌّ على ذلك التوبيخ، ومدارُه تفضيلُ جانب أنفسهم على جنابه عز وجل، حيث جعلوا له تعالى الإناثَ واختاروا لأنفسهم الذكورَ، ومناطُ الأوَّل نفسُ تلك النسبة.

وقيل: المعنى: أرأيتُم هذه الأصنامَ مع حقارتها وذِلَّتها شركاءَ لله سبحانه، مع ما تقدَّم من عظمته؟

وقيل: المعنى: أخبروني عن آلهتكم، هل لها شيءٌ من القدرة والعظمة التي وُصِف بها ربُّ العزَّةِ في الآي السابقة؟

وقيل: المعنى: أظننتُم أنَّ هذه الأصنامَ التي تعبدونها تنفعُكم؟

وقيل: المعنى: أفرأيتُم هذه الأصنامَ إنْ عبدتُموها لا تنفعُكم، وإنْ تركتُموها لا تضرُّكم.

---

(١) في الأصل و(م): الحسن بن المفضل، والمثبت من زاد المسير ٨/ ٧٣، وتفسير القرطبي ٢/ ٣٧، وهو الصواب، ووقع في مطبوع البحر ٨/ ١٦٢ (والكلام منه): الحسن بن الفضل.

ولا يخفَى أنَّ قولَه تعالى: (أَلَكُمُ) إلخ لا يلتئمُ مع ما قبله على جميع هذه الأقوال التئامَه على القول السابق.

وقيل: إنَّ قوله سبحانه: (أَلَكُمُ) إلخ في موضع المفعول الثاني للرؤية، وخُلوُّها عن العائد إلى المفعول الأول لِمَا أنَّ الأصلَ: أَخبروني أنَّ اللات والعزَّى ومناةَ ألكم الذكر وله هنَّ، أي: تلك الأصنام، فوضعَ موضعَها الأُنثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ. وهو على تكلُّفه يقتضي اقتصارَ التوبيخِ على ترجيح جانبهم الحقير الذليل على جناب الله تعالى العزيز الجليل من غير تعرُّضٍ للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه.

وفي «الكشف»: وجه النظم الجليل أنَّه بعدما صوَّر أمرَ الوحي تصويراً تامّاً، وحقَّقه بأنَّ ما يستمعُه وحيٌ لا شبهةَ فيه؛ لأنَّه رأى الآتي به وعرَفَه حقَّ المعرفة، قال سبحانه: (أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ) على معنى: أتلاحونَه بعد هذه البيانات على ما يَرَى من الآيات المحقَّقة؛ لأنَّه على بيِّنةٍ من ربِّه سبحانه هادياً مهديّاً، وأنَّى يبقَى للمِراء مجال، وقد رآه نزلةً أخرى، وعرَفَه حقَّ المعرفة، ثم قيل: «لقد رأى مِن آيات» إلخ تنبيهاً على أنَّ ما عُدَّ منها فهو أيضاً نَفْيٌ للضلالة والغواية، وتحقيقٌ للدراية والهداية. وقوله تعالى: «أفرأيتُم» عطف على «تمارونه» وإدخالُ الهمزة لزيادة الإنكار، والفاء لأنَّ القول بأمثاله مسبَّبٌ عن الطبع والعناد وعدمِ الإصغاء لداعي الحقِّ، والمعنى: أَبَعْدَ هذا البيان تستمرُّون على ما أنتم عليه من المِرَاء، فتَرَون اللاتَ والعزَّى ومناةَ أولاداً له تعالى ثَمَّ أخسَّها، وسدَّ مسدَّ المفعول الثاني قولُه تعالى: (أَلَكُمُ) إلخ زيادةً للإنكار، فعلى هذا ليس «أفرأيتُم» في معنى الاستخبار، وجاز أنْ يكونَ في معناه على معنى: أفتُمارونَه فأخبروني هل لكم الذكرُ وله الأنثى؟ والقولُ مقدَّرٌ، أي: فقل لهم: أخبروني، والمعنى هو كذا تهكُّماً وتنبيهاً على أنَّه نتيجةُ مِرائهم، وأنَّ مَن كان هذا معتقدَه فهو على الضلال الذي لا ضلالَ بعدَه، ولا يبعدُ عن أمثاله نسبةُ الهادين المهديِّين إلى ما هو فيه من النقص. انتهى. وما ذكره أوَّلاً أَوْلَى، وهو ليس بالبعيد عما ذكرنا.

﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى القِسْمة المنفهمة من الجملة الاستفهامية ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾

أي: جائرةٌ حيث جعلتُم له سبحانه ما تستنكِفُون منه، وبذلك فَسَّر «ضيزَى» ابنُ عباس وقتادة، وفي معناه قولُ سفيان: منقوصةٌ، وابن زيد: مخالفةٌ، ومجاهد ومقاتل: عوجاءُ، والحسنُ: غيرُ معتدلة.

والظاهرُ أنَّه صفةٌ، واختُلِفَ في يائه فقيل: منقلبةٌ عن واو، وقيل: أصليةٌ، ووَزنُهُ فُعْلَى بضم الفاء كحُبْلى وأنثى، ثم كُسِرَت لتسلم الياء كما فُعل ذلك في بِيْض جمعِ أَبيض، فإنَّ وزْنَه فُعْل بضم الفاء كحُمْر، ثم كُسِرَت الفاء لِمَا ذكر، ومثلُه شائع، ولم يُجعَل وزنُه فِعْلَى بالكسر ابتداءً لِمَا ذهب إليه سيبويه مِن أنَّ فِعْلَى بالكسر لم يجئ عن العرب في الصفات[1]. وجعلَه بعضُهم كذلك متمسِّكاً بورود ذلك؛ فقد حَكَى ثعلب: مشيةٌ حِيَكَى[2]، ورجل كِيْصَى[3]، وغيره: امرأة عِزْهَى[4] وامرأة سِعْلَى[5]، ورُدَّ بأنَّه من النوادر، والحملُ على الكثير المطَّرد في بابه أَوْلَى، وأيضاً يمكن أن يقال في حِيْكى وكِيْصَى ما قيل في ضِيْزَى؛ ويمنع ورود عِزْهى وسِعْلى، فإنَّ المعروف عِزْهاةٌ وسِعْلاةٌ.

وجوز أنْ يكونَ «ضيزى» فِعْلَى بالكسر ابتداءً على أنَّه مصدرٌ كذِكْرى، وَوُصِفَ به مبالغةً، ومجيءُ هذا الوصفِ في المصادر كما ذكر، والأسماء الجامدة كدِفْلَى وشِعْرَى[6]، والجموع كحِجْلَى كثيرٌ.

وقرأ ابنُ كثير: «ضِئزَى» بالهمز[7] على أنَّه مصدرٌ وُصِفَ به، وجوِّز أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر الكتاب ٤/ ٣٦٤ و٣٨٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ١١٣.

(٢) مشية حِيَكَى: إذا كان فيها متبختراً. ينظر اللسان (حيك).

(٣) رجل كِيْصَى: يأكل وحده وينزل وحده ولا يهمه غير نفسه. ينظر اللسان والقاموس (كيص).

(٤) امرأة عِزْهى: والعِزْهاة كسِعْلاة: المرأة أسنَّت ونفسُها تُنازعها إلى الصِّبا. القاموس (عزه).

(٥) امرأة سِعْلَى: استسعَلَت المرأة: صارت كالسِّعلاة خبثاً وسلاطةً، يقال ذلك للمرأة الصخابة البذية، السِّعلا يمد ويقصر. اللسان (سعل).

(٦) الدِّفْلَى: نبتٌ مرٌّ، زهره كالورد الأحمر، وحمله كالخرنوب. وشِعْرَى: جبل عند حرة بني سليم. القاموس (دفل) و(شعر).

(٧) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ١/ ٣٩٥.

وصفاً، وهو مضمومٌ عُومل معاملةَ المعتلِّ؛ لأنَّه يَؤُول إليه.

وقرأ ابنُ زيد: «ضَيْزَى» بفتح الضاد وبالياء(١)، على أنَّه كدَعْوى أو كسَكْرى، ويقال: ضُؤزى بالواو والهمز وضم الفاء، وقد حكى الكِسائي: ضَأَزَ يَضْأَزُ ضأزاً بالهمز، وأنشد الأخفش:

فإنْ تَنْأَ عنها تقتنِصْكَ وإنْ تَغِبْ فسهمُك مَضْؤوزٌ وأنفُكَ راغمُ(٢)

والأكثرُ «ضازَ» بلا همزٍ كما في قول امرئ القيس:

ضازَت بنو أسدٍ بحُكمِهمُ إذ يجعلونَ الرأسَ كالذَّنبِ

وأنشده ابنُ عباس على تفسيره السابق(٣).

﴿إِنْ هِيَ﴾ الضميرُ للأصنام، أي: ما الأصنامُ باعتبار الأُلوهية(٤) التي تدَّعونها ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ محضةٌ ليس فيها شيءٌ ما أصلاً من معنى الأُلوهية.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ صفةٌ للأسماء، وضميرُها لها لا للأصنام، والمعنى: جعلتموها أسماءً، فإنَّ التسمية نسبةٌ بين الاسم والمسمَّى، فإذا قِيْسَت إلى الاسم فمعناها: جَعله اسماً للمسمَّى، وإنْ قيسَت إلى المسمَّى فمعناها: جعله مسمًّى للاسم، وإنما اختير هاهنا المعنى الأولُ من غير تعرُّضٍ للمسمَّى، لتحقيق أنَّ تلكَ الأصنامَ التي يسمُّونها آلهةً أسماءٌ مجرَّدةٌ ليس لها مسمَّياتٌ قطعاً، كما في قوله سبحانه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ الآية [يوسف: ٤٠] لا أنَّ هناك مسمياتٍ لكنَّها لا تستحقُّ التسمية.

---

(١) نسبها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٦٢ لزيد بن علي.

(٢) الصحاح (ضيز)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٥٢، وتفسير الطبري ٢٢/ ٥٢، واللسان (ضيز)، والبحر المحيط ٨/ ١٦٢.

(٣) يعني: جائرة، وخبر ابن عباس أخرجه الطستي في مسائله كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٧، ومن طريقه السيوطي في الإتقان ١/ ٤١٠، وهو من جواب ابن عباس عن سؤالات نافع بن الأزرق، ولم نقف على البيت في ديوان امرئ القيس، وهو دون نسبة في تفسير القرطبي ٢٠/ ٣٨، والبحر المحيط ٨/ ١٥٤.

(٤) في هامش الأصل: أي: إطلاق اسم الإلهية عليها. اهـ.

وقيل: هي للأسماء الثلاثة المذكورة، حيث كانوا يُطلقونها على تلك الأصنامِ، لاعتقادهم أنَّها تستحقُّ العكوفَ على عبادتها والإعزازَ والتقرُّبَ إليها بالقرابين، وتُعقِّب بأنَّه لو سلِّم دلالةُ الأسماء المذكورة على ثبوت تلك المعاني الخاصة للأصنام، فليس في سلبها عنها مزيدُ فائدة، بل إنما هي في سَلْب الأُلوهية عنها، كما هو زعمُهم المشهورُ في حقِّ جميع الأصنام على وجهٍ برهانيٍّ، فإنَّ انتفاءَ الوصف بطريق الأَولَوية، أي: ما هي شيءٌ من الأشياء إلا أسماءٌ خالية عن المسمَّيات وضعتموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى الأهواء الباطلة.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ برهانٍ يتعلَّقون به.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتَّبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا توهُّمَ أنَّ ما هم عليه حقٌّ تَوَهُّماً باطلاً، فالظنُّ هنا مرادٌ به التوهُّمُ وشاع استعمالُه فيه، ويُفهم من كلام الراغب أنَّ التوهَّم من أفراد الظنِّ(١).

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: والذي تشتهيه أنفسُهم الأمَّارةُ بالسوء، على أنَّ «ما» موصولةٌ وعائدُها مقدَّر، و«أل» في «الأنفس» للعهد، أو عِوَضٌ عن المضاف إليه، وجوِّز كونُ «ما» مصدرية، وكذا جوِّز كونُ «أل» للجنس، والنفسُ من حيث هي إنما تهوَى غيرَ الأفضلِ؛ لأنَّها مجبولةٌ على حبِّ الملاذِّ، وإنما يسوقُها إلى حسن العاقبة العقلُ.

والالتفات في «يتبعون» إلى الغيبة للإيذان بأنَّ تعدادَ قبائحهم اقتضَى الإعراضَ عنهم، وحكايةَ جناياتهم لغيرهم.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر: «تتبعون» بتاء الخطاب(٢).

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ حالٌ من ضمير «يتَّبعُونَ» مقرِّرةٌ لبطلان ما هم عليه من اتباع الظنِّ والهوى، والمرادُ بـ «الهدى» الرسول ﷺ، أو القرآن العظيم، على

---

(١) مفردات الراغب (ظن).
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠١، وتفسير القرطبي ٢٠/ ٣٩، والبحر المحيط ٨/ ١٦٢-١٦٣.

أنَّه بمعنى الهادي، أو جعَلَه هدًى مبالغةً، أي: ما يتبعون إلا ذلك والحال لقد جاءهم من ربِّهم جلَّ شأنه ما ينبغي لهم معه تركُه واتِّباعُ سبيل الحقِّ، وحاصله: يتَّبعون ذلك في حال يُنافيه.

وجوِّز أنْ تكونَ الجملة معترضةً، وهي أيضاً مؤكِّدة لبطلان ذلك.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ «أم» منقطعة مقدَّرة بـ «بل» ـ وهي للانتقال من بيان أنَّ ما هم عليه غيرُ مستندٍ إلا إلى توهُّمهم وهوَى أنفسِهم إلى بيان أنَّ ذلك مما لا يُجدي نفعاً أصلاً ـ والهمزةِ وهي للإنكار والنفي، أي: بل ليس للإنسان كلُّ ما يتمناه وتشتهيه نفسُه، ومفادُه قيل: رفعُ الإيجاب الكلِّي، ومرجعُه إلى سالبةٍ جزئية، وإليه يُشير قول بعضهم: المرادُ نَفْي أنْ يكونَ للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الآلهة والظَّفَر بالحسنى عند الله تعالى يوم القيامة، وما كانوا يشتهونه من نزول القرآنِ على رجل من إحدى القريتَين عظيم ونحو ذلك.

ويُفهَم من كلام بعضِ المحققين أنَّ المرادَ السلبُ الكلِّي، والمعنى: لا شيءَ مما يتمناه الإنسانُ مملوكاً له مختصّاً به، يتصرَّف فيه حسب إرادته، ويتضمَّن ذلك نَفْيَ أنْ يكونَ للكفرة ما ذُكِرَ وليس الإنسان خاصّاً بهم كما قيل.

وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ تعليلٌ لانتفاء ذلك، فإنَّ اختصاصَ مِلْك أمورِ الآخرة والأُولَى جميعاً به تعالى مقتضٍ لانتفاء أنْ يكونَ للإنسان أمرٌ من الأمور، بل ما شاء الله تعالى له كان وما لم يشأ لم يكن، وقدِّمَت «الآخرة» اهتماماً بردِّ ما هو أهمُّ أطماعهم عندهم من الفوز فيها.

ولذا أردف ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ وإقناطُهم عما طَمِعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجبٌ لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية. و«كم» خبريةٌ مفيدةٌ للتكثير، محلُّها الرفعُ على الابتداء، والخبرُ الجملة المنفية، وجمع الضمير في «شفاعتُهم» مع إفراد «المَلَك» باعتبار المعنى، أي: وكثيرٌ من الملائكة لا تغني شفاعتُهم عند الله تعالى شيئاً من الإغناء في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَن

﴿يَشَآءُ﴾ أنْ يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويراه سبحانه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان، وأما مَن عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل. وعنه بألف ألفِ منزل.

وجوِّز أنْ يكون المرادُ: إلا من بعد أنْ يأذنَ الله لمن يشاء من الملائكة بالشفاعة، ويراه عز وجل أهلاً لها. وأيَّاما كان فالمعنى على أنَّه إذا كان حالُ الملائكة في باب الشفاعة كما ذُكر، فما ظنُّهم بحال الأصنام؟ والكلامُ قيل: من باب:

على لاحبٍ لا يهتدَى بمنارِهِ[1]

فحاصلُه: لا شفاعةَ لهم ولا غناءَ بدون أنْ يأذنَ الله سبحانه.. إلخ. وقيل: هو واردٌ على سبيل الفرض فلا يخالفُ قولَه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقرأ زيد بن علي: «شفاعته» بإفراد الشفاعة والضمير، وابنُ مقسم: «شفاعاتهم» بجمعهما[2]، وهو اختيار صاحب «الكامل» أبي القاسم الهذلي، وأُفردَت الشفاعة في قراءة الجمهور، قال أبو حيان: لأنَّها مصدرٌ؛ ولأنَّهم لو شفع جميعُهم لواحد لم تغنِ شفاعتهم عنه شيئاً[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المنزَّهين عن سمات النقصان على الإطلاق ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ فإنَّهم كانوا يقولون: الملائكةُ بنات الله، سبحانه وتعالى عما يقولون، و«الملائكة» في معنى استغراق المفرد، فيكون التقديرُ: ليسمُّون كلَّ واحدٍ من الملائكة تسمية الأُنثى، أي: يسمونه بنتاً؛ لأنَّهم إذا قالوا ذلك فقد جعلوا كلَّ واحدٍ منهم بنتاً، فالكلام على وزان: كَسَانا الأميرُ حلةً، أي: كسا كلَّ واحد منَّا حلةً،

---

(١) سلف ١/ ٤٥٧.
(٢) القراءتان في البحر المحيط ٨/ ١٦٣.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٣، وعنه نقل المصنف كلام أبي القاسم الهذلي.

والإفرادُ لعدم اللَّبس، ولذا لم يقل: تسميةَ الإناث، فلا حاجةَ إلى تأويل «الأنثى» بالإناث، ولا إلى كون المراد: الطائفة الأنثى، وما ذكر أولاً قيل: مبنيٌّ على أنَّ تسميةَ الأنثى في النظم الجليل ليس نصباً على التشبيه، وإلا فلا حاجةَ إليه أيضاً.

وفي تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعارٌ بأنَّها في الشناعة والفظاعة واستتباعِ العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلا مَن لا يؤمن بها رأساً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حالٌ من فاعل «يسمُّون» وضميرُ «به» للمذكور من التسمية، وبهذا الاعتبار ذكِّر، أو باعتبار القول، أي: يسمُّونهم إناثاً، والحالُ أنَّهم لا علمَ لهم بما يقولون أصلاً.

وقرأ أبيٌّ: «بها»[1] أي: بالتسمية، أو بالملائكة.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتبعون في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: التوهُّمَ الباطل ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ أي: جنسَ الظنِّ، كما يلوح به الإظهارُ في موقع الإضمار، وقيل: الإظهارُ ليستقلَّ الكلامُ استقلال المثل ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء، فإنَّ الحقَّ الذي هو عبارةٌ عن حقيقة الشيء وما هو عليه، إنما يُدرَك إدراكاً معتدّاً به إذا كان عن يقينٍ، لا عن ظنٍّ وتوهُّم، فلا يعتدُّ بالظنِّ في شأن المعارف الحقيقية، أعني المطالبَ الاعتقادية التي يلزم فيها الجزمُ ولو لم يكن عن دليل، وإنما يعتدُّ به في العمليات وما يؤدِّي إليها.

وفسَّر بعضهم «الحق» بالله عز وجل لقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢].

واستَدلَّ بالآية مَن لم يَعتبر التقليدَ في الاعتقاديات، وفيه بحث، والظاهريةُ على إبطاله مطلقاً، وإبطالُ القياس وردُّه على أتمِّ وجه في الأصول.

وما أخرج ابن أبي حاتم عن أيوب قال: قال عمر بنُ الخطاب: احذروا هذا الرأيَ على الدّين، فإنَّما كان الرأيُ من رسول الله ﷺ مصيباً؛ لأنَّ الله تعالى كان

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٢، وتفسير أبي السعود ٨/ ١٦٠.

يُريه، وإنما هو منّا تكلفٌ وظنٌّ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[1] = هو أحدُ أدلتهم على إبطال القياس أيضاً.

وقد حكى الآمدي في «الإحكام» نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما، فقال: قال ابن عمر: اتَّهِموا الرأيَ على الدّين، فإنَّ الرأيَ منّا تكلُّفٌ وظنٌّ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾. وأجابَ عنه بأنَّ غايتَه الدلالةُ على احتمال الخطأ فيه، وليس فيه ما يدلُّ على إبطاله، وأنَّ المرادَ بقوله: «وإنَّ الظنَّ» إلخ استعمالُ الظنِّ في مواضع اليقين، وليس المرادُ به إبطالَ الظنِّ، بدليل صحة العمل بظواهر الكتاب والسنة. ويقال نحوُ هذا في كلام عمرَ رضي الله عنه، وقد ذكر جملةً من الآثار استَدلَّ بها المبطلُ على ما زعمَه وردَّها كلَّها، فمَن أراد ذلك فليراجعه[2].

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: عنهم، ووضع الموصول موضعَ ضميرهم، للتوسُّل به إلى وصفهم بما في حيِّز صلتِهِ من الأوصاف القبيحة، وتعليلِ الحُكْمِ بها، أي: فأعرِضْ عمَّن أعَرضَ عن ذكرنا المفيدِ للعلم الحقِّ، وهو القرآنُ العظيم، المنطوي على بيان الاعتقادات الحقَّة، المشتملُ على علوم الأوَّلين والآخِرين، المذكِّرُ للآخرة وما فيها من الأمور المرغوبِ فيها والمرهوبِ عنها. والمرادُ بالإعراض عنه تركُ الأخذ بما فيه وعدمُ الاعتناء به.

وقيل: المرادُ بالذكر الرسولُ ﷺ وبالإعراض عنه تركُ الأخذ بما جاء به.

وقيل: المراد به الإيمان.

وقيل: هو على ظاهره والإعراضُ عنه كنايةٌ عن الغفلة عنه عز وجل.

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ راضياً بها قاصراً نظَرَه عليها، جاهداً فيما يُصلِحُها، كالنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة، والمرادُ من الأمر المذكور النهيُ عن المبالغة في الحرص على هداهم، كأنَّه قيل: لا تبالغ في الحرص على هدى مَن تولَّى عن ذكرنا، وانهمَكَ في الدنيا بحيث كانت منتهَى هِمَّتِه وقُصارَى سعيه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٢٧.

(٢) ينظر الإحكام للآمدي ٤/ ٤٨ وما بعد.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: أمرُ الحياة الدنيا المفهومُ من الكلام، ولذا ذكّر اسم الإشارة، وقيل: أي: ما أدّاهم إلى ما هم فيه من التولِّي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا.

وقيل: «ذلك» إشارةٌ إلى الظنِّ الذي يتَّبعونه. وقيل: إلى جَعْلِهِم الملائكةَ بنات الله سبحانه. وكلا القولَين كما ترى.

﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: منتَهَى علمهم لا عِلْمَ لهم فوقَه، اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها مِن قَصْر الإرادة على الحياة الدنيا. والمرادُ بالعلم مطلَقُ الإدراك المنتظِم للظنِّ الفاسد، وضميرُ «مبلغهم» لـ «مَن»، وجُمع باعتبار معناه، كما أنَّ إفرادَه قبلُ باعتبار لفظِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تعليلٌ للأمر بالإعراض، وتكرير قوله تعالى: «هو أعلم» لزيادة التقرير والإيذانِ بكمال تباينِ المعلومَين، والمرادُ بـ «مَن ضل»: مَن أصرَّ على الضلال ولم يرجع إلى الهدى أصلاً، و«بمَن اهتدَى»: من شأنه الاهتداءُ في الجملة، أي: هو جل شأنه المبالغُ في العلم بمَن لا يرْعَوي عن الضلال أبداً، وبمن يقبلُ الاهتداء في الجملة، لا غيرُه سبحانه، فلا تُتْعب نفسَك في دعوتهم ولا تبالغ في الحرص عليها، فإنَّهم من القبيل الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له ذلك على الوجه الأتمِّ، أي: خَلْقاً ومُلْكاً، لا لغيره عز وجل أصلاً، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، ويُشعر بفعلٍ يتعلَّق به قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: خَلَق ما فيهما ليجزيَ الضالِّين بعقاب ما عملوا من الضلال، الذي عبَّر عنه بالإساءة بياناً لحاله، أو بمثل ما عملوا، أو بسبب ما عملوا، على أنَّ الباء صلةُ الجزاء بتقدير مضافٍ أو للسببية بلا تقدير ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي: اهتدوا ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي: بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة، أو بأحسن من أعمالهم، أو بسبب الأعمال الحسنى، تكميلٌ لِمَا قَبْلُ؛ لأنَّه سبحانه لمَّا أمره عليه الصلاة والسلام بالإعراض نَفَى توهُّم أنَّ ذلك لأنَّهم يُتركون سُدًى.

وفي العدول عن ضمير ربك إلى الاسم الجامع ما يُنبئُ عن زيادة القدرة، وأنَّ الكلامَ مسوقٌ لوعيد المعرضين، وأنَّ تسويةَ هذا المُلْك العظيم لهذه الحكمة، فلا بدَّ من ضالٍّ ومهتدٍ، ومن أنْ يلقَى كلٌّ ما يستحقُّه. وفيه أنَّه ﷺ يلقَى الحسنى جزاءً لتبليغه، وهم يلقون السُّوأَى جزاءً لتكذيبهم.

وكرَّر فعلَ الجزاء لإبراز كمالِ الاعتناء به، والتنبيهِ على تبايُن الجزاءَين.

وجوِّز أنْ يكونَ معنى «فأعرِضْ» إلخ: لا تقابِلْهم بصنيعهم وَكِلْهم إلى ربك، إنَّه أعلمُ بك وبهم، فيجزي كلًّا ما يستحقُّه، ولا يخفَى ما في العدول عن الضميرَين في «بمَن ضَلَّ» و«بمَن اهتدَى»، وجُعِلَ قوله تعالى: «ليجزِيَ» على هذا متعلِّقاً بما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ إلخ، أي: ميَّز الضالَّ عن المهتدي وحَفِظ أحوالَهم ليجزي.. إلخ، وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جملةٌ معترضةٌ تؤكِّدُ حديثَ أنَّهم يُجزَون البتة ولا يُهمَلُون، كأنَّه قيل: هو سبحانه أعلمُ بهم، وهم تحت مُلْكه وقدرته، وجوِّز على ذلك المعنى أنْ يتعلَّق «ليجزيَ» بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كما تقدَّم على تأكيد أمرِ الوعيد، أي: هو أعلمُ بهم، وإنما سوَّى هذا المُلْكَ للجزاء. ورجح بعضُهم ذلك المعنى بالوجهَين المذكورَين على ما مرَّ.

وجوِّز في جملة «لله ما في السماوات» كونُها حالاً من فاعل «أعلم» سواء كان بمعنى: عالم، أو لا، وفي «ليجزِيَ» تعلُّقُه بـ «ضَلَّ» و«اهتدَى» على أنَّ اللام للعاقبة، أي: هو تعالى أعلمُ بمَن ضَلَّ ليؤول أمرُه إلى أنْ يجزيَه اللهُ تعالى بعمله، وبمَن اهتدَى ليؤول أمرُه إلى أنْ يجزيَه بالحسنى. ولا يخفى بُعْدُه، وأَبعدُ منه بمراحلَ تعلُّقُه بقوله سبحانه: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ كما ذكره مكِّي[1].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «لنجزي» «ونجزي» بالنون فيهما[2].

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ بدلٌ من الموصول[3] الثاني، وصيغةُ الاستقبال في

---

(١) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦٤.
(٣) في الأصل: الموصوف، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٨/ ١٦٢.

صلته للدلالة على تجدُّد الاجتنابِ واستمرارِه، أو بيانٌ، أو نعتٌ، أو منصوبٌ على المدح، أو مرفوعٌ على أنَّه خبرُ محذوفٍ.

و«الإثم»: الفعل المبطئ عن الثواب وهو الذنبُ. وكبائرُه ما يكبر عقابُه.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «كبيرَ الإثم»[1] على إرادة الجنس أو الشرك.

و﴿الفواحش﴾: ما عظُمَ قُبحُه من الكبائر، فعَطْفُه على ما تقدَّم من عطف الخاصِّ على العامِّ. وقيل: الفواحش والكبائر مترادفان.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ ما صَغُرَ من الذنوب، وأصلُه ما قلَّ قَدْرُه، ومنه لِمَّةُ الشَّعر؛ لأنَّها دون الوَفْرَة، وفسَّره أبو سعيد الخدْري بالنظرة والغمزة والقُبلة، وهو من باب التمثيل.

وقيل: معناه: الدنوُّ من الشيء دون ارتكابٍ له، من أَلْمَمْتُ بكذا، أي: نزلتُ به وقاربتُه من غير مواقعةٍ، وعليه قولُ الرمَّاني: هو الهمُّ بالذنب وحديثُ النفس دون أنْ يواقع. وقول ابن المسيب: ما خطَرَ على القلب.

وعن ابن عباس وابن زيد: هو ما أَلَمُّوا به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام. والآية نزلَت لقول الكفار للمسلمين: قد كنتُم بالأمس تعملون أعمالَنا، فهي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ﴾ [النساء: ٢٣] على ما في «البحر»[2].

وقيل: هو مطلَق الذنب.

وفي روايةٍ عن ابن عباس: أنَّه ما يلمُّ به المرء في الحين من الذنوب ثم يتوبُ. والمعظمُ على تفسيره بالصغائر.

والاستثناء منقطعٌ، وقيل: إنَّه لا استثناء فيه أصلاً، و«إلا» صفةٌ بمعنى: «غير»، إما لجعل المضافِ إلى المعرَّف باللام الجنسية أعني «كبائر الإثم» في حكم النكرة،

(١) التيسير ص ١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧.
(٢) ٨/ ١٦٤، وذكر سبب النزول أيضاً أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٣/ ٢٩٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٤.

أو لأنَّ «غير» و«إلا» التي بمعناها قد يتعرَّفان بالإضافة كما في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ [الفاتحة: ٧].

وتعقَّبه بعضُهم بأنَّ شرط جوازِ وقوع «إلا» صفةً كونُها تابعةً لجمعٍ منكَّر غيرِ محصورٍ، ولم يوجد هنا.

ورُدَّ بأنَّ هذا ما ذهب إليه ابنُ الحاجب، وسيبويه يَرَى جوازَ وقوعها صفةً مع جواز الاستثناء، فهو لا يشترطُ ذلك، وتَبِعَه أكثرُ المتأخِّرين(١)، نعم كونُها هنا صفةً خلافُ الظاهر، ولا داعي إلى ارتكابه.

والآيةُ عند الأكثرين دليلٌ على أنَّ المعاصي منها كبائرُ ومنها صغائر، وأنكر جماعةٌ من الأئمة هذا الانقسامَ وقالوا: سائرُ المعاصي كبائر، منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمَين في «الإرشاد»(٢)، وتقيُّ الدين السُّبكي، وابنُ القشيري في «المرشد»، بل حكاه ابنُ فورَك عن الأشاعرة، واختاره في تفسيره فقال: معاصي الله تعالى كلُّها عندنا كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرةٌ وكبيرةٌ بالإضافة، وحَكَى الانقسام عند المعتزلة، وقال: إنَّه ليس بصحيح.

وقال القاضي عبد الوهاب: لا يمكنُ أنْ يقالَ في معصيةٍ إنَّها صغيرةٌ إلا على معنى أنَّها تَصغُرُ باجتناب الكبائر، ويوافق ذلك ما رواه الطبراني عن ابن عباس ـ لكنَّه منقطعٌ ـ أنَّه ذُكِرَ عنده الكبائر فقال: كلُّ ما نَهَى الله تعالى عنه فهو كبيرةٌ(٣). وفي

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١١٥.

(٢) ص ٣٢٨، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر الهيتمي في الزواجر ص ٤، والكلام منه.

(٣) المعجم الكبير ١٨/(٢٩٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٠٣: رجاله ثقات إلا أن الحسن مدلس وعنعنه.
وأخرجه الطبري ٦/ ٦٥٠، والبيهقي في الشعب (٢٩٢) و(٧١٥٠)، من طريق ابن سيرين عن ابن عباس، وإسناده منقطع، فإن محمد بن سيرين لم يسمع من ابن عباس فيما قاله علي بن المديني وأحمد كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص ١٥٠.

رواية: كلُّ شيء عُصِيَ اللهُ تعالى فيه فهو كبيرةٌ[١].

والجمهورُ على الانقسام؛ قيل[٢]: ولا خلافَ في المعنى، وإنما الخلافُ في التسمية والإطلاق؛ لإجماع الكلِّ على أنَّ مِن المعاصي ما يقدحُ في العدالة، ومنها ما لا يقدحُ فيها، وإنَّما الأوَّلُون فرُّوا من التسمية، فكرهوا تسميةَ معصيةِ الله تعالى صغيرةً نظراً إلى عظمة الله عز وجل، وشدَّةِ عقابه سبحانه، وإجلالاً له جل شأنُه عن تسمية معصيتِه صغيرةً؛ لأنَّها بالنظر إلى باهر عظمتِهِ كبيرةٌ أيُّ كبيرةٍ، ولم ينظر الجمهورُ إلى ذلك؛ لأنَّه معلومٌ، وقسَّموها إلى ما ذُكِرَ لظواهر الآيات والأحاديث، ولذلك قال الغزاليُّ: لا يليقُ إنكارُ الفرق بينَ الكبائر والصغائر، وقد عُرِفَتَا من مدارك الشرع[٣].

ثم القائلون بالفَرْق اختلفوا في حدِّ الكبيرة فقيل: هي ما لَحِقَ صاحبَها عليها بخصوصها وعيدٌ شديدٌ بنصِّ كتابٍ أو سنةٍ. وهي عبارةُ كثيرٍ من الفقهاء.

وقيل: كلُّ معصيةٍ أوجبَت الحدَّ. وبه قال البغوي وغيرُه، والأولُ أوفقُ بِمَا[٤] ذكروه في تفصيل الكبائر، إذ عدُّوا الغيبةَ والنميمةَ والعقوقَ وغيرَ ذلك منها، ولا حدَّ فيه، فهو أصحُّ من الثاني وإنْ قال الرافعيُّ: إنَّهم إلى ترجيحه أَمْيَلُ. وقد يقال: يَرِدُ على الأول أيضاً أنَّهم عدُّوا من الكبائر ما لم يَرِد فيه بخصوصه وعيدٌ شديدٌ.

وقيل: هي كلُّ ما نصَّ الكتابُ على تحريمه، أو وَجَب في جنسه حدٌّ، وتركُ فريضةٍ تجبُ فوراً، والكذبُ في الشهادة والروايةِ واليمين، زاد الهروي وشريح: وكلُّ قولٍ خالفَ الإجماعَ العامَّ.

---

(١) أخرجها الطبري ٦/ ٦٥٢ من طريق عبد الله بن معدان، عن أبي الوليد، عن ابن عباس، وعبد الله بن معدان قال عنه الأزدي كما في اللسان ٣/ ٣٦٥: متروك الحديث، وإسناده ليس بالقائم.

(٢) القائل هو ابن حجر الهيتمي.

(٣) ينظر إحياء علوم الدين ٤/ ١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر الهيتمي في الزواجر ص ٤.

(٤) في الأصل و(م): لما، والمثبت من الزواجر.

وقيل: كلُّ جريمةٍ تُؤذن بقلَّة اكتراثِ مرتكبها بالدِّين ورقَّة الديانةِ، وهو المحكيُّ عن إمام الحرمين[١]، ورجَّحه جمعٌ لِمَا فيه من حسنِ الضبط.

وتُعقِّبَ بأنَّه بظاهره يتناول صغيرةَ الخِسَّةِ، والإمامُ ـ كما قال الأَذْرَعي ـ إنما ضبَطَ به ما يُبطل العدالةَ من المعاصي الشاملةِ لذلك، لا الكبيرة فقط، نعم هو أشملُ من التعريفَين الأوَّلَين.

وقيل: هي ما أوجَبَ الحدَّ أو توجَّه إليه الوعيدُ، ذكره الماوردي في «حاويه»[٢].

وقيل: كلُّ محرَّمٍ لعينه منهيٌّ عنه لمعنى في نفسه، فإنْ فَعَلَه على وجهٍ يجمع وجهَين أو وجوهاً من التحريم كان فاحشةً، فالزنى كبيرةٌ، وبحليلة الجارِ فاحشةٌ، والصغيرةُ تَعاطي ما تَنقُصُ رتبتُه عن رتبتِهِ المنصوص عليه، أو تعاطيه على وجهٍ دون المنصوص عليه، فإنْ تعَاطَاه على وجهٍ يجمَعُ وجهَين أو أكثرَ من التحريم كان كبيرةً، فالقُبْلةُ واللَّمسُ والمفاخَذة صغيرةٌ، ومع حليلة الجار كبيرةٌ، كذا نقَلَه ابنُ الرفعة وغيرُه عن القاضي حسين عن الحليمي.

وقيل: هي كلُّ فعلٍ نصَّ الكتابُ على تحريمه، أي: بلفظ التحريم، وهو أربعةُ أشياءَ: أكلُ الميتةِ، ولحمِ الخنزير، ومال اليتيم، والفرارُ من الزَّحف، ورُدَّ بمنع الحصر.

وقيل: إنَّها كلُّ ذنبٍ قُرِنَ به حدٌّ أو وعيدٌ أو لعنٌ بنصِّ كتابٍ أو سنةٍ، أو عُلِمَ أنَّ مفسدتَه كمفسدة ما قُرِنَ به ذلك أو أكثر، أو أَشعرَ بتهاون مرتكبه في دينه إشعاراً صغَّر الكبائرَ المنصوصَ عليها بذلك، كما لو قَتَلَ مَن يعتقدُه معصوماً فظهَرَ أنَّه مستحِقٌّ لدمه، أو وَطِئ امرأةً ظانّاً أنَّه زانٍ بها، فإذا هي زوجتُه أو أمتُه، وإليه ذهب شيخ الإسلام البارزي وقال: هو التحقيق.

وقيل غير ذلك.

---

(١) في الإرشاد ص ٣٢٩.

(٢) في الأصل و(م): فتاويه، والمثبت من الزواجر، وهو الصواب، والكلام في الحاوي للماوردي ١٧/ ١٤٩.

واعتمد الواحدي أنَّها لا حدَّ لها يحصُرُها فقال: الصحيحُ أنَّ الكبيرةَ ليس لها حدٌّ يعرِفُها العبادُ به، وإلا لاقْتَحَم الناسُ الصغائرَ واستباحوها، ولكنَّ الله تعالى أخفَى ذلك عنهم ليجتهدوا في اجتناب المنهيِّ عنه رجاءَ أنْ تُجتَنَبَ الكبائرُ، ونظيرُ ذلك إخفاءُ الاسم الأعْظَمِ، والصلاةِ الوسطى، وليلةِ القدر، وساعةِ الإجابة.

وقال العلامة ابن حجر الهيتَمي(١): كلُّ ما ذُكِرَ من الحدود إنما قُصِدَ به التقريب فقط، وإلا فهي ليسَت بحدودٍ جامعة، وكيف يمكنُ ضبطُ ما لا مطمَعَ في ضبطه؟

وذهبَ جمعٌ إلى تعريفها بالعدِّ؛ فعن ابن عباس أنَّها ما ذكره الله تعالى في أول سورةِ النساء إلى قوله سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

وقيل: هي سبعٌ، وروي ذلك عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه وعطاء وعبيد بن عمير، واستدلَّ له بما في الصحيحين: «اجْتَنبوا السَّبعَ الموبقات: الإشراكَ بالله تعالى، والسِّحرَ، وقَتْلَ النفسِ التي حرَّمَ اللهُ تعالى إلا بالحقِّ، وأكلَ مال اليتيمِ، وأكلَ الرِّبا، والتولِّي يوم الزحفِ، وقَذْفَ المحصَنات الغافلاتِ المؤمناتِ»(٢).

وقيل: خمْسَ عشرةَ، وقيل: أربعَ عشرة، وقيل: أربع، وعن ابن مسعود: ثلاث. وفي رواية أخرى: عشرة.

وقال شيخُ الإسلام العلائي: المنصوصُ عليه في الأحاديث أنَّه كبيرةٌ خمسٌ وعشرون، وتعقَّبه ابنُ حجر بزيادةٍ على ذلك(٣)، وقال أبو طالب المكي: هي سبعَ عشرةَ؛ أربعٌ في القلب: الشركُ، والإصرار على المعصية، والقنوطُ، والأمنُ من المكر، وأربعٌ في اللسان: القذفُ، وشهادةُ الزور، والسحرُ وهو كلُّ كلام يُغيِّرُ الإنسانَ أو شيئاً من أعضائه، واليمينُ الغموس وهي التي تُبطل بها حقّاً أو تُثبتُ بها باطلاً، وثلاثٌ في البطن: أكلُ مالِ اليتيمِ ظُلماً، وأكلُ الربا، وشُرْب كلِّ

(١) في الزواجر ص ٧.
(٢) صحيح البخاري (٢٧٦٦)، وصحيح مسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) الزواجر ص ٨.

مسكرٍ، واثنان في الفرج: الزنى، واللواط، واثنتان في اليد: القتلةُ والسرقةُ، وواحدةٌ في الرجل: الفرارُ من الزحف، وواحدةٌ في جميع الجسد عقوقُ الوالدَين. وفيه ما فيه.

وروى الطبرانيُّ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنَّ رجلاً قال له: كم الكبائر، سبعٌ هي؟ فقال: هي إلى سبع مئة أقربُ منها إلى سبعٍ، غيرَ أنَّه لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرةَ مع الإصرار(١).

وقد أَلَّفَ فيها غيرُ واحدٍ من العلماء، وفي كتاب «الزواجر» تأليف العلامة ابن حجر ما فيه كفايةٌ فليراجَع(٢)، والله تعالى الموفِّقُ، وإنا لنستغفرُه ونتوبُ إليه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يَغفرُ الصغائرَ باجتناب الكبائرِ، فالجملةُ تعليلٌ لاستثناء اللَّمَم، وتنبيهٌ على أنَّ إخراجَه عن حكم المؤاخذةِ ليس لخلوِّه عن الذنب في نفسه، بل لسعةِ المغفرةِ الربانية.

وجوِّزَ أنْ يكونَ المعنى: له سبحانه أنْ يغفرَ لمن يشاء من المؤمنين ما يشاءُ من الذنوب صغيرِها وكبيرِها، ولعلَّ تعقيبَ وعيدِ المسيئين ووَعْد المحسنين بذلك حينئذٍ لئلَّا ييأسَ صاحبُ الكبيرة من رحمته تعالى، ولا يتوهَّمَ وجوبَ العقاب عليه عز وجل.

وزَعْمُ بعضٍ جوازَ كونِ الموصول مبتدأً، وهذه الجملةُ خبره، والرابطُ محذوفٌ، أي: واسعُ المغفرة لهم، ليس بشيء كما لا يخفى.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي: بأحوالكم من كلِّ أحدٍ ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ في ضمن إنشاءِ أبيكم آدمَ عليه السلام ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إنشاءً إجماليّاً حسبما مرَّ تحقيقُه.

وقيل: إنشاؤهم من الأرض باعتبار أنَّ المنيَّ الذي يتكوَّنون منه من الأغذية التي منشؤُها من الأرض.

---

(١) لم نقف عليه عند الطبراني، وأخرجه الطبري ٦٥١/٦، وابن أبي حاتم ٩٣٤/٣.
(٢) ينظر الزواجر ص ٣ وما بعدها، وجميع ما سبق نقله المصنف عنه.

وأيّاً ما كان ف «إذ» ظرفٌ لـ «أعلم» وهو على بابه من التفضيل. وقال مكي: هو بمعنى عالم(١)، إذ تعلّقُ علمِه تعالى بأحوالهم في ذلك الوقت لا مشاركَ له تعالى فيه. وتُعقّب بأنَّه قد يتعلّق علمُ مَن أطلَعه الله تعالى مِن الملائكة عليه. وقيل: «إذ» منصوبٌ بمحذوفٍ، والتقدير: اذكروا إذ أنشأكم. وهو كما ترى.

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ ووقت كونكم أجنَّةً ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ على أطوارٍ مختلفةٍ مترتِّبةٍ لا يخفى عليه سبحانه حالٌ من أحوالكم، وعملٌ من أعمالكم التي من جملتها اللَّمَم الذي لولا المغفرةُ الواسعةُ لأصابكم وبالُه، فالجملةُ استئنافٌ مقرِّرٌ لِمَا قبلَها، وذكر «في بطون أمهاتكم» مع أنَّ الجنينَ ما كان في البطن للإشارة إلى الأطوار كما أشرنا إليه، وقيل: لتأكيد شأنِ العلم؛ لِمَا أنَّ بَطْنَ الأمِّ في غاية الظلمة.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لترتيب النهي عن تزكية النفس على ما سبَقَ، من أنَّ عدمَ المؤاخذةِ باللَّمَم ليس لعدم كونِهِ من قبيل الذنوب، بل لمحضِ مغفرتِهِ تعالى مع علمه سبحانه بصدوره عنكم، أي: إذا كان الأمرُ كذلك فلا تُثنُوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصي بالكلِّية، أو بزكاء العمل وزيادةِ الخير، بل اشكرُوا الله تعالى على فضله ومغفرته جل شأنه.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ المعاصيَ جميعاً، وهو استئنافٌ مقرِّرٌ للنهي، ومشعرٌ بأنَّ فيهم مَن يتَّقيها بأسرها كذا في «الإرشاد»(٢). وقيل: اتَّقى الشركَ. وقيل: اتَّقى شيئاً من المعاصي.

والآية نزلَت على ما قيل: في قومٍ من المؤمنين كانوا يعملون أعمالاً حسنةً ثم يقولون: صلاتُنا وصيامنا وحجُّنا، وهذا مذمومٌ منهيٌّ عنه إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء، أمَّا إذا لم يكن كذلك فلابأسَ به، ولا يُعَدُّ فاعلُه من المزكِّين أنفسَهم، ولذا قيل: المسرَّةُ بالطاعة طاعةٌ، وذِكْرُها شكرٌ.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٣.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ١٦٢.

ولا فرقَ في التزكية بين أنْ تكونَ عبارةً وأنْ تكونَ إشارةً، وعُدَّ منها التسميةُ بنحو برَّة. أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن مردويه وابن سعد عن زينبَ بنتِ أبي سلمة أنَّها سُمِّيَت برَّةً، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكُّوا أنفسَكم الله أعلمُ بأهل البرِّ منكم، سَمُّوها زينب»(١)، وكذا غيَّر عليه الصلاة والسلام إلى ذلك اسم برَّةَ بنتِ جحش(٢)، وتغييرُ مثل ذلك مستحَبٌّ، وكذا ما يُوقعُ نَفْيُه بعضَ الناس في شيء من الطِّيَرة كـ : بركة ويَسار، والنهيُ عن التسمية به للتنزيه، وقوله ﷺ كما روى جابر: «إنْ عِشْتُ إنْ شاء الله أنهى أمتي أنْ يُسَمُّوا نافعاً وأفلَحَ وبَرَكة»(٣) محمولٌ كما قال النووي على إرادةِ: أنهَى نَهيَ تحريم(٤).

والظاهرُ أنَّ كراهةَ ما يُشعرُ بالتزكية مخصوصةٌ بما إذا كان الإشعار قويّاً، كما إذا كان الاسمُ قبل النقل ظاهرَ الدلالة على التزكية مستعمَلاً فيها، فلا كراهةَ في التسمية بما يُشعرُ بالمدح إذا لم يكن كذلك كسعيد وحَسَن، وقد كان لعمرَ رضي الله عنه ابنةٌ يقال لها: عاصية، فسمَّاها رسول الله ﷺ جميلة(٥)، كذا قيل.

والمقامُ بعدُ لا يخلو عن بحث فليراجَع.

وقيل: معنى «لا تزكوا أنفسكم»: لا يُزكي بعضُكم بعضاً، والمرادُ النهيُ عن تزكية السمعةِ أو المدح للدنيا، أو تزكيةٍ على سبيل القطع، وأما التزكيةُ لإثبات الحقوق ونحوه فهي جائزةٌ.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ الآية نزلَت في اليهود، أخرج الواحدي وابن المنذر وغيرُهما عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهودُ إذا هلَكَ لهم صبيٌّ

---

(١) مسند أحمد (٩٥٦٠)، وصحيح مسلم (٢١٤٢)، وسنن أبي داود (٤٩٥٣)، وطبقات ابن سعد ٨/ ٤٦١، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٨. وهو عند أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وعند الباقين من حديث زينب، وأخرجه من حديث أبي هريرة أيضاً البخاري (٦١٩٢).

(٢) قطعة من حديث زينب بنت أبي سلمة عند مسلم (٢١٤٢): (١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٣٨)، وأبو داود (٤٩٦٠)، واللفظ له.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٤/ ١١٩.

(٥) أخرجه مسلم (٢١٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

صغيرٌ قالوا: هو صدِّيقٌ. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «كذَبت يهودُ، ما مِن نسمةٍ يخلُقها الله تعالى في بطن أمِّها إلا يعلمُ سعادتَها أو شقاوتَها» فأنزل الله سبحانه عند ذلك ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية(١).

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ أي: عن اتِّباع الحقِّ والثبات عليه ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أي: شيئاً قليلاً، أو إعطاءً قليلاً ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: قطَعَ العطاء، من قولهم: حَفَر فأكدَى: إذا بلَغَ إلى كُديةٍ، أي: صلابةٍ في الأرض فلم يُمكنه الحفر.

قال مجاهد وابن زيد: نزلَت في الوليد بن المغيرة، كان قد سمعَ قراءةَ رسول الله ﷺ، وجلَسَ إليه ووَعَظه فقرب من الإسلام، وطمِعَ فيه رسولُ الله ﷺ، ثم إنَّه عاتَبَه رجلٌ من المشركين، وقال له: أتَتْرُك ملَّة آبائك؟! ارجِعْ إلى دينك واثبُتْ عليه، وأنا أتحمَّل عنك كلَّ شيءٍ تخافُه في الآخرة، لكن على أنْ تُعطيَني كذا وكذا من المال، فوافَقَه الوليدُ على ذلك، ورجع عمَّا هَمَّ به من الإسلام وضلَّ ضلالاً بعيداً، وأعطى بعضَ المال لذلك الرجل ثمَّ أمسك عنه وشحَّ(٢).

وقال الضحاك: هو النضر بن الحارث أعطى خمسَ قلائصَ لفقيرٍ من المهاجرين حتى ارتَدَّ عن دينه وضَمِن له أنْ يَحمِل عنه مأثَمَ رجوعِهِ.

وقال السدي: نزلَت في العاص بن وائل السَّهمي، كان يوافقُ النبيَّ ﷺ في بعض الأمور.

وقال محمد بن كعب: في أبي جهل؛ قال: والله ما يأمرُ محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق.

والأوَّلُ هو الأشهرُ الأنسبُ لِمَا بعده من قوله سبحانه: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إلى آخره، وأمَّا ما في «الكشاف»: من أنَّها نزلَت في عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان يُعطي مالَه في الخير فقال له عبد الله بنُ سعد بن أبي سَرْح: يُوشك أنْ لا يبقَى لك شيءٌ.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٢٢، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢٨. وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٦٨).

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٧١-٧٢، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٤٢٣.

فقال عثمان: إنَّ لي ذُنوباً وخطايا، وإنِّي أطلبُ بما أصنعُ رضا الله تعالى، وأرجُو عفوَه. فقال عبد الله: أعطني ناقتَكَ برحْلِها وأنا أحملُ عنك ذُنوبَك كلَّها. فأعطاه وأشهَدَ عليه وأمسَكَ عن العطاء[1] = فباطلٌ كما قال ابن عطية، ولا أصل له، وعثمانُ رضي الله عنه منزَّهٌ عن مثل ذلك[2].

و«أفرأيتَ» هنا على ما في «البحر» بمعنى: أخبرني، ومفعولُها الأولُ الموصول، والثاني الجملةُ الاستفهامية[3].

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ للتسبُّب عما قبلَه، أي: أعندَه علمٌ بالأمور الغيبية فهو بسبب ذلك يعلمُ أنَّ صاحبَه يتحمَّل عنه يومَ القيامة ما يخافُه، وقيل: يرى أنَّ ما سمعَه من القرآن باطلٌ.

وقال الكلبي: المعنى: أأُنْزِل عليه قرآنٌ فرأى أنَّ ما صنعَه حقٌّ.

وأيًّا ما كان فـ «يرى» من الرؤية القلبية، وجوِّز أنْ تكونَ من الرؤيةِ البصرية، أي: فهو يُبصرُ ما خفي عن غيره مما هو غيبٌ.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ أي: بل ألم يُخبَّر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ وهي التوراة ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وبما في صحف إبراهيم التي نزلَت عليه ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: وَفَّرَ[4] وأتمَّ ما أُمِرَ به، أو بالغ في الوفاء بما عاهدَ عليه اللهَ تعالى.

وقال ابن عباس: وفَّى بسهام الإسلام كلِّها، ولم يوفِّها أحدٌ غيرُه، وهي ثلاثون سهماً، منها عشرةٌ في «براءة»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآيات [التوبة: ١١١-١١٢]، وعشرةٌ في «الأحزاب»: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآيات [الأحزاب: ٣٥]، وستٌّ في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ الآيات التي في أولها، وأربعٌ في سأل سائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الآيات [٢٦ وما بعدها].

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٧.

(٤) من التوفير وهو التكثير، فتكثيره لفِعْلِه وأمرِ الغير به، أو لمبالغته في كيفيته. حاشية الشهاب ٨/ ١١٦.

وفي حديثٍ ضعيف عن أبي أمامة يرفعُه: «وَفَّى بأربعِ ركعاتٍ كان يُصلِّيهنَّ في كلِّ يومٍ»[1] وفي روايةٍ: «يصلِّيهنَّ أوَّلَ النهارَ»[2].

وأخرج أحمدُ من حديث معاذ بن أنس مرفوعاً أيضاً: «ألا أخبركم لِمَ سمَّى اللهُ تعالى إبراهيمَ خليلَه الذي وفَّى؟ إنَّه كان يقول كلَّما أصبحَ وأمسَى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الآية [الروم:١٧]»[3].

وقال عكرمة: «وفَّى» بتبليغ هذه العشرة (أَلَّا تَزِرُ) إلى آخره. وقيل وقيل.

والأَوْلى العمومُ، وهو مرويٌّ عن الحسن قال: ما أَمَره الله تعالى بشيءٍ إلا وفَّى به. وتخصيصُه عليه السلام بهذا الوصْفِ لاحتماله ما لا يحتملُه غيرُه، وفي قصة الذبح ما فيه كفاية.

وخُصَّ هذان النبيَّان عليهما السلام بالذكر قيل: لأنَّه فيما بين نوحٍ وإبراهيمَ كانوا يأخذون الرجلَ بابنه وبأبيه وعمِّه وخاله، والزوجَ بامرأته، والعبدَ بسيدِه، فأَوَّلُ من خالَفَهم إبراهيمُ، وقرَّر ذلك موسى، ولم يأتِ قبلَه مقرِّرٌ مثله عليه السلام، وتقديمُه لِمَا أنَّ صُحفَه أشهرُ عندهم وأكثر.

وقرأ أبو أمامة الباهلي وسعيد بن جبير وأبو مالك الغفاري وابن السميفع وزيد بن علي: «وَفَى» بتخفيف الفاء[4].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨﴾ أي: أنَّه لا تحملُ نفسٌ مِن شأنها الحملُ حمْلَ نفسٍ أُخرى، على أنَّ «أن» هي المخفَّفة من الثقيلة، وضميرُ الشأن الذي هو اسمُها محذوفٌ، والجملةُ المنفيةُ خبرُها، ومحلُّ الجملة الجرُّ على أنَّها بدلٌ من «ما في

---

(١) أخرجه الدوري في جزء قراءات النبي (١٠٩)، والطبري ٢٢/ ٧٨ من طريق جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة به، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: رواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير، وهو ضعيف.

(٢) أخرجها البغوي ٤/ ٢٥٤ بالإسناد المذكور.

(٣) مسند أحمد (١٥٦٢٤).

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤٧، والمحتسب ٢/ ٢٩٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦، والبحر المحيط ٨/ ١٦٧.

صُحف موسى»، أو الرفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والاستئنافُ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: ما في صحفهما؟ فقيل: هو أن لا تزر.. إلخ، والمعنى أنَّه لا يؤاخَذُ أحدٌ بذنب غيرِه ليتخلَّصَ الثاني عن عقابه، ولا يقدحُ في ذلك قوله ﷺ: «مَن سَنَّ سنةً سيِّئةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة»[١] فإنَّ ذلك وزْرُ الإضلال الذي هو وِزْرُه لا وزْرُ غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ بيانٌ لعدم إثابة الإنسان بعمل غيرِه إِثْر بيان عدمِ مؤاخذتِه بذنب غيره، و«أنْ» كأختها السابقة، و«ما» مصدرية، وجوِّز كونُها موصولةً، أي: ليس له إلا سعيُه، أو إلا الذي سَعَى به وفَعَلَه.

واستشكل بأنَّه وردَت أخبارٌ صحيحة بنفع الصدقةِ عن الميِّت، منها ما أخرجه مسلم والبخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة أنَّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إنَّ أُمِّي افتُلِتَت نفسُها، وأظنُّها لو تكلَّمَت تصدَّقَت، فهل لها أجرٌ إنْ تصدَّقْتُ عنها؟ قال: «نعم»[٢].

وكذا بنفع الحجِّ، أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس قال: أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ أُختي نذَرَت لأن تحجَّ، وإنَّها ماتَت؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لو كان عليها دينٌ أكنتَ قاضيَهُ»؟ قال: نعم. قال: «فحقُّ الله أحق بالقضاء»[٣].

وأُجيبَ بأنَّ الغير لمَّا نَوَى ذلك الفعلَ له صارَ بمنزلة الوكيل عنه، القائم مقامَه شرعاً، فكأنَّه بسعيه، وهذا لا يتأتَّى إلا بطريق عمومِ المجاز، أو الجمعِ بين الحقيقة والمجاز عند مَن يُجوِّزُه.

وأُجيبَ أيضاً بأنَّ سَعْيَ غيره لمَّا لم ينفعْهُ إلا مبنيّاً على سَعْي نفسِه مِن الإيمان، فكأنَّه سعيُه، ودلَّ على بنائه على ذلك ما أخرجه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه

---

(١) سلف ٢٢/ ٢٨٢.

(٢) صحيح البخاري (١٣٨٨)، وصحيح مسلم (١٠٠٤)، وسنن أبي داود (٢٨٨١)، وسنن النسائي ٦/ ٢٥٠.

(٣) الخبر بنحوه في صحيح البخاري (٦٦٩٩)، وسنن النسائي ٥/ ١١٦، ولم نقف عليه عند مسلم.

عن جده أنَّ العاص بنَ وائل نذَرَ في الجاهلية أنْ ينحرَ مئةَ بدنةٍ، وأنَّ هشاماً ابنَه نحرَ حصَّتَه خمسين، وأنَّ عمراً سألَ النبيَّ ﷺ عن ذلك فقال: «أما أبوك فلو كان أقرَّ بالتوحيد فصُمْتَ وتصدَّقْتَ عنه نفعَه ذلك»(١).

وأُجيبَ بهذا عما قيل: إنَّ تَضْعيفَ الثوابِ الواردِ في الآيات يُنافي أيضاً القصْرَ على سعيه وحده. وأنت تعلمُ ما في الجواب من النظر.

وقال بعضُ أجلَّة المحقِّقين: إنَّه ورد في الكتاب والسنة ما هو قطعيٌّ في حصول الانتفاع بعمل الغير، وهو يُنافي ظاهرَ الآية، فتُقيَّد بما لا يَهبُهُ العامل، وسألَ والي خراسان عبدُ الله بنُ طاهر الحسينَ بنَ الفضل عن هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] فقال: ليس له بالعدل إلا ما سعَى، وله بالفضل ما شاء الله تعالى. فقبَّلَ عبدُ الله رأسَ الحسين(٢).

وقال عكرمةُ: كان هذا الحكمُ في قوم إبراهيمَ وموسى عليهما السلام، وأما هذه الأمةُ فللإنسان منها سعيُ غيرِه، يدلُّ عليه حديثُ سعد بن عبادة: هل لأمِّي إذا تطوَّعْتُ عنها؟ قال ﷺ: «نعم»(٣).

وقال الربيعُ: الإنسانُ هنا الكافرُ، وأما المؤمنُ فلَه ما سعَى وما سعَى له غيرُه.

وعن ابن عباس أنَّ الآيةَ منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١] وقد أخرج عنه ما يُشعرُ به أبو داود والنحاس كلاهما في «الناسخ»، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه(٤).

---

(١) مسند أحمد (٦٧٠٤)، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٣٨٦-٣٨٧، وأبو داود (٢٨٨٣).

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦، وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٣٥-١٣٦، والبحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٢٧٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها، فقال: يا رسول الله، إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، أينفعها شيء إن تصدقت به عنها، قال: «نعم»، الحديث، ولفظ المصنف منقول من البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٣٥-٣٦، وتفسير الطبري ٢٢/ ٨٠، وعزاه لأبي داود وابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٠.

وتعقَّبَ أبو حيان روايةَ النسخ بأنَّها لا تصحُّ؛ لأنَّ الآيةَ خبرٌ لم تتضمَّن تكليفاً[(١)]، ولا نسْخَ في الأخبار. وما يُتوهَّمُ جواباً من أنَّه تعالى أخبرَ في شريعة موسى وإبراهيم عليهما السلام أنْ لا يُجعلَ الثوابُ لغير العامل، ثم جَعَلَه لمن بعدهم من أهل شريعتنا، مرجعُه إلى تقييد الأخبارِ لا إلى النسخ، إذ حقيقتُه أنْ يُراد المعنى، ثم مِن بعد ذلك ترتفعُ إرادتُه، وهذا تخصيصُ الإرادة بالنسبة إلى أهل الشرائع فافهمه.

وقيل: اللام بمعنى «على» أي: ليس على الإنسان غيرُ سعيه. وهو بعيدٌ من ظاهرها ومِن سياق الآية أيضاً، فإنَّها وعظٌ للذي تولَّى وأعطَى قليلاً وأكدَى.

والذي أميلُ إليه كلام الحسين، ونحوه كلامُ ابن عطية قال: والتحريرُ عندي في هذه الآية أنَّ ملاكَ المعنى هو اللام من قوله سبحانه: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ فإذا حقَّقْت الشيءَ الذي حَقُّ الإنسان أنْ يقولَ فيه: لي كذا، لم تجدْهُ إلا سعيَه، وما يكونُ من رحمةٍ بشفاعة، أو رعايةِ أبٍ صالحٍ، أو ابنٍ صالحٍ، أو تضعيفِ حسناتٍ، أو نحو ذلك، فليس هو للإنسان، ولا يَسَعُه أنْ يقولَ: لي كذا وكذا، إلا على تجوُّز وإلحاق بما هو حقيقةٌ[(٢)]. انتهى.

ويُعلم من مجموع ما تقدَّم أنَّ استدلال المعتزلةِ بالآية على أنَّ العبدَ إذا جعلَ ثوابَ عمله ـ أيَّ عملٍ كان ـ لغيره لا يَنْجَعلُ ويلغُو جعلُه = غيرُ تامٍّ؛ وكذا استدلالُ الإمام الشافعيِّ بها على أنَّ ثوابَ القراءة لا تلحقُ الأمواتَ، وهو مذهبُ الإمام مالك، بل قال الإمام ابنُ الهمام: إنَّ مالكاً والشافعيَّ لا يقولان بوصول العباداتِ البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة، بل غيرها كالصدقة والحجِّ[(٣)].

وفي «الأذكار» للنووي عليه الرحمة المشهورُ من مذهب الشافعي رضي الله عنه وجماعةٍ أنَّها لا تصلُ، وذهب أحمد بنُ حنبل وجماعةٌ من العلماء ومِن أصحاب الشافعيِّ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٣٠٨.

إلى أنَّها تصل، فالاختيارُ أنْ يقولَ القارئ بعد فراغه: اللهمَّ أَوْصِلْ ثوابَ ما قرأته إلى فلان[١].

والظاهرُ أنَّه إذا قال ذلك ونحوَه، ك: وهبتُ ثوابَ ما قرأتُه لفلان، بقلبه كفَى، وعن بعضهم اشتراطُ نيةِ النيابةِ أوّل القراءة، وفي القلب منه شيءٌ.

ثم الظاهرُ أنَّ ذلك إذا لم تكن القراءةُ بأجرةٍ، أما إذا كانت بها كما يفعلُه أكثرُ الناس اليومَ، فإنَّهم يُعطُون حَفَظَةَ القرآن أُجرةً ليقرؤوا لموتاهم، فيقرؤون لتلك الأجرة، فلا يصلُ ثوابُها، إذ لا ثوابَ لها ليصلَ، لحرمةِ أخْذِ الأُجرة على قراءة القرآن، وإنْ لم يَحرُم على تعليمه، كما حقَّقه خاتمةُ الفقهاء المحقِّقين الشيخُ محمد الأمين ابن عابدين الدمشقي رحمه الله تعالى[٢].

وفي «الهداية» من كتاب الحج عن الغير إطلاقُ صحةِ جَعْلِ الإنسان عملَه لغيره - ولو صلاةً وصوماً - عند أهل السنة والجماعة[٣]. وفيه ما علمت مما مرّ[٤] آنفاً.

وقال الخفاجي: هو محتاجٌ إلى التحرير، وتحريُره أنَّ محلَّ الخلاف العبادةُ البدنية، هل تَقبل النيابةَ فتسقُطَ عمَّن لزمتْهُ بفعل غيره، سواء كان بإذنه أم لا، بعدَ حياته أم لا، فهذا وَقَع في الحجِّ كما ورد في الأحاديث الصحيحة، أما الصومُ فلا، وما ورَدَ في حديث: «مَن ماتَ وعليه صيامٌ صامَ عنه وليُّهُ»[٥] وكذا غيرُه من العبادات، فقال الطحاوي: إنَّه كان في صدر الإسلام ثم نُسِخَ، وليس الكلامُ في الفدية وإطعامِ الطعام، فإنَّه بدلٌ، وكذا إهداءُ الثواب سواءٌ كان بعينه أو مثله، فإنَّه دعاءٌ، وقبوله بفضله عز وجل كالصدقة عن الغير فاعرفه[٦]. انتهى فلا تغفل.

---

(١) الأذكار ص ١٤٠.

(٢) حاشية ابن عابدين ٦/ ٥٥.

(٣) الهداية مع فتح القدير ٢/ ٣٠٨.

(٤) في (م): ما مرَّ.

(٥) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) حاشية الشهاب ٨/ ١١٧، وينظر شرح مشكل الآثار للطحاوي ٦/ ١٨٠.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾ أي: يُعرض عليه ويُكشف له يومَ القيامة في صحيفته وميزانه، مِن أَريتُه الشيءَ، وفي «البحر»: يراه حاضِرُو القيامة ويطَّلعون عليه تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسيء[١].

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي: يُجزَى الإنسانُ سعيَه، يقال: جزاه الله عز وجل بعمله، وجزاهُ على عمله، وجزاهُ عملَه، بحذف الجارِّ وإيصال الفعل؛ وقوله تعالى: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ مصدرٌ مبيِّنٌ للنوع، وإذا جاز وصفُ المجزيِّ به بـ «الأَوْفى» جازَ وصفُ الحدث عن[٢] الجزاء لملابسته له، وجوِّز كونُه مفعولاً به بمعنى المجزي به، وحينئذٍ يكونُ الفعلُ في حكم المتعدِّي إلى ثلاثة مفاعيل، ولابأسَ لأنَّ الثاني بالحذف والإيصال لا التوسُّعِ فيجيءَ فيه الخلافُ، وبعضُهم يجعلُ «الجزاءَ» منصوباً بنزع الخافضِ، وجوِّز أنْ يكونَ الضمير المنصوب في «يجزاه» للجزاء لا للسعي، و«الجزاءَ الأَوْفَى» عليه عطفُ بيانٍ أو بدلٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣].

وتعقبه أبو حيان بأنَّ فيه إبدالَ الظاهر من الضمير، وهي مسألةٌ خلافيةٌ، والصحيحُ المنعُ[٣].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ أي: إنَّ انتهاءَ الخلقِ ورجوعَهم إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه استقلالاً ولا اشتراكاً، والمرادُ بذلك رجوعُهم إليه سبحانه يوم القيامة حين يُحشَرون، ولهذا[٤] قال غيرُ واحدٍ: أي: إلى حساب ربِّك، أو إلى ثوابه تعالى من الجنة وعقابِه من النار الانتهاءُ.

وقيل: المعنى: أنَّه عز وجل مُنتهَى الأفكار، فلا تزالُ الأفكارُ تسيرُ في بيداء حقائقِ الأشياء وماهِياتها والإحاطة بما فيها، حتى إذا وُجِّهَت إلى حَرَم ذات الله عز وجل وحقائقِ صفاته سبحانه وقَفَت وحَرَنَت وانتهى سيرُها.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.
(٢) في الأصل: أعني، والمثبت من (م).
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.
(٤) في الأصل: ولذا.

وأُيِّد بما أخرجه البغويُّ عن أُبيٍّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في الآية: «لا فكرةَ في الربِّ»[(١)]، وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» عن سفيان الثوري[(٢)].

ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام: «إذا ذُكِر الربُّ فانتهوا»[(٣)].

وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس قال: مرَّ النبيُّ ﷺ على قومٍ يتفكرون في الله فقال: «تفكَّرُوا في الخلق ولا تفكَّروا في الخالق، فإنَّكم لن تقدروه»[(٤)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٥٥. وفي معناه ما أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «يأتي الشيطانُ أحدكم فيقول: مَن خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربَّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتَهِ».

(٢) العظمة (٦).

(٣) أخرجه بنحوه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣٩٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٣٥٠) من طريق عطاء الخراساني عن أبي هريرة مرفوعاً، ورواية عطاء عن أبي هريرة مرسلة كما في تهذيب التهذيب ٣/ ١٠٨.
وأخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٩٣ من حديث أنس ﷺ، وفي إسناده سنان بن سعد، ويقال سعد بن سنان، قال يحيى بن معين: ثقة. وقال محمد بن سعد والنسائي: منكر الحديث. وقال أحمد بن حنبل: روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها، ما أعرف منها واحداً. تهذيب التهذيب ١/ ٦٩٣.

(٤) لم نقف عليه في سنن ابن ماجه، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥) من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن رجل حدثه عن ابن عباس مرفوعاً. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عباس.
وأخرجه موقوفاً على ابن عباس أبو الشيخ في العظمة (٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦١٨)، وسنده جيد كما قال الحافظ في الفتح ١٣/ ٣٨٣.
وأخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، وأبو الشيخ في العظمة (١)، والبيهقي في الشعب (١٢٠) من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً، وفي إسناده الوازع بن نافع العقيلي، قال عنه البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال أحمد وابن معين: ليس بثقة. الميزان ٤/ ٣٢٧.
وأخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٦٦-٦٧ من حديث عبد الله بن سلام، وفي إسناده عبد الجليل بن عطية، وهو صدوق قال البخاري عنه: ربما يهم. ينظر ميزان الاعتدال ٢/ ٥٣٥. وفيه أيضاً شهر بن حوشب قال الحافظ في التقريب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.
وقال صاحب كشف الخفاء ١/ ٣٧٢ بعد أن ذكر للحديث طرقاً وروايات كثيرة: =

وأخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «تفكَّروا في خَلْق الله ولا تَفكَّروا في الله فتهلَكُوا»[1].

واستَدلَّ بذلك مَن قال باستحالةِ معرفتِهِ عز وجل بالكُنْه، والبحثُ في ذلك طويلٌ، وأكثرُ الأدلة النقلية على عدم الوقوع.

وقرأ أبو السمال: «وإنَّ» بالكسر هنا وفيما بعد، على أنَّ الجملَ منقطعةٌ عما قبلها، فلا تكون مما في الصحف[2].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ خَلَق فِعْلَي الضَّحك والبُكاء، وقال الزمخشريُّ: خَلَق قوَّتَي الضَّحك والبكاء[3]. وفيه دسيسةُ اعتزالٍ.

وقال الطيبي: المرادُ: خَلَق السرورَ والحُزْن، أو ما يَسرُّ ويُحزن من الأعمال الصالحة والطالحة، ولذا قُرِنَ بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ وعليه فهو مجازٌ، ولا يخفَى أنَّ الحقيقةَ أيضاً تُناسبُ الإماتَةَ والإحياءَ، لاسيما والموتُ يعقبُهُ البكاءُ غالباً، والإحياء عند الوِلادِ الضحك، وما أحسنَ قوله:

وَلَدتْكَ أُمُّك يا ابنَ آدمَ باكياً ... والناسُ حولَك يضحكون سروراً
فاجْهَدْ لنفسكَ أَنْ تكونَ إذا بكَوا ... في يوم مَوتِكَ ضاحكاً مسروراً[4]

وقال مجاهد والكلبي: أضحَكَ أهلَ الجنة، وأبكَى أهلَ النار.

وقيل: أضحَكَ الأرضَ بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

= وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكسبه قوةً ومعناه صحيح، وفي صحيح مسلم [برقم: (١٣٤): (٢١٢)] عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لايزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا، خلقَ اللهُ الخلقَ، فمَن خلقَ الله؟ فمن وجد مِن ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله». اهـ.

(١) العظمة (٤)، وفيه سيف بن محمد الكوفي ابن أخت سفيان، قال الحافظ في التقريب: كذبوه.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٣٤.

(٤) الكشكول للعاملي ٢/ ١٣٢ دون نسبة، وهما في تفسير القرطبي ٢/ ٣١٧ بنحوهما.

وتقديمُ الضمير وتكريرُ الإسناد للحصر، أي: إنَّه تعالى فَعَل ذلك لا غيرُه سبحانه، وكذا في «أنَّه هو أماتَ وأحيا» فلا يقدِرُ على الإماتة والإحياء غيرُه عز وجل، والقاتلُ إنَّما ينقُضُ البنيةَ الإنسانيةَ ويفرِّقُ أجزاءها، والموتُ الحاصلُ بذلك فعلُ الله تعالى على سبيل العادة في مثله، فلا إشكالَ في الحصر.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ من نوع الإنسانِ وغيرِه من أنواع الحيوانات، ولم يذكر الضمير على طَرْز ما تقدَّم؛ لأنَّه لا يتوهَّم نسبةُ خَلْق الزوجَين إلى غيره عز وجل.

﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي: تُدفَق في الرحم يقال: أَمنَى الرجلُ ومَنَى بمعنًى، وقال الأخفشُ: أي: تُقدَّر، يقال: مَنَى لك الماني، أي: قدَّر لك المقدِّر[1]. ومنه المَنَا الذي يُوزَن به فيما قيل، والمَنِيَّة وهي الأجل المقدَّر للحيوان.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أي: الإحياءَ بعد الإماتةِ وفاءً بوعده جل شأنه، وفي «البحر»: لمَّا كانت هذه النشأةُ يُنكرها الكفَّارُ بُولِغَ بقوله تعالى: (عَلَيْهِ) كأنَّه تعالى أوجَب ذلك على نفسه[2].

وفي «الكشاف»: قال سبحانه: (عَلَيْهِ) لأنَّها واجبةٌ في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة[3]. وفيه مع كونه على طريق الاعتزال نظرٌ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «النشاءة» بالمدِّ[4]، وهي أيضاً مصدر نَشَأَه الثلاثي.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ وأعطى القِنْيَة، وهو ما يبقَى ويدومُ من الأموال ببقاء نفسِه أو أصله، كالرياض والحيوان والبناء، وإفرادُ ذلك بالذكر مع دخوله في قوله تعالى: (أَغْنَىٰ) لأنَّ القنية أَنْفَسُ الأموال وأشرفُها، وفي «البحر»: يقال: قنيتُ المال، أي: كسبتُه. ويُعدَّى أيضاً بالهمزة والتضعيف فيقال: أَقْنَاهُ الله تعالى مالاً، وقَنَّاه الله تعالى مالاً، وقال الشاعر:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦٨.

(٣) الكشاف ٤/ ٣٤.

(٤) التيسير ص ١٧٣، والنشر ١/ ٤٦٠.

كم مِن غنيٍّ أصابَ الدهرُ ثروتَه ومِن فقيرٍ يُقَنَّى بعدَ إقلالِ

أي: يُقْنَّى المالَ[١].

وعن ابن عباس: «أغْنَى»: مَوَّلَ، و«أَقْنَى»: أَرْضَى. وهو بهذا المعنى مجازٌ من القنية، قال الراغب: وتحقيقُ ذلك أنَّه جَعَلَ له قِنْيةً مِن الرضا والطاعة، وذلك أعظمُ القنائن[٢]. ولله تعالى درُّ مَن قال:

هل هي إلا مدةٌ وتَنْقضي ما يغلبُ الأيامَ إلا مَن رَضِي[٣]

وعن ابن زيد والأخفش: «أقنى» أفقر. ووُجِّهَ بأنَّهما جَعَلا الهمزةَ فيه للسلب والإزالة، كما في «أشكى». وقيل: إنَّهما جعلا «أَقْنَى» بمعنى: جعل له الرضا والصبرَ قِنْيةً، كنايةً عن ذلك، ليظهرَ فيه الطباقُ كما في «أمات وأحيا» و«أضحك وأبكى».

وفسَّره بـ «أفقر» أيضاً الحضرميُّ، إلا أنَّه ـ كما أخرج عنه ابنُ جرير وأبو الشيخ ـ قال: أغنَى نفسَه سبحانه، وأفقرَ الخلائقَ إليه عز وجل[٤]. والظاهرُ على تقدير اعتبارِ المفعول في جميع الأفعال المتقدِّمةِ أنْ يكونَ من المحدَثات الصالحة لتعلُّقِ الفعل، وعندي أنَّ أغنَى سبحانه نفسَه، كـ : أَوْجَد جل شأنه نفسَه، لا يخلو عن سماجةٍ وإيهامِ محذورٍ، وإنما لم يُذكَرُ مفعولٌ لأنَّ القَصْدَ إلى الفعل نفسِه.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ هي «الشِّعرَى» العَبُور بفتح العين المهملة والباء الموحدة والراء المهملة بعد الواو، وتقال: «الشِّعرَى» أيضاً على الغُمَيْصاء بغينٍ معجمة مضمومة، وميمٍ مفتوحة، بعدها ياءٌ مثناةٌ تحتية، وصادٌ مهملة ومدٌّ.

والأُولَى في الجوزاء، وإنما قيل لها: العَبُور؛ لأنَّها عَبَرت المجرَّة فلقِيَتْ

(١) البحر ٨/ ١٦٨، والبيت في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٧، واللباب ١٨/ ٢١٥.
(٢) مفردات الراغب (قني).
(٣) نفحة الريحانة ١/ ٥٥١.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٨٤، والعظمة (١٧٦).

سُهيلاً؛ ولأنَّها تراه إذا طَلَع كأنَّها ستعبُرُ، وتُسمَّى أيضاً كَلْب الجبار؛ لأنَّها تَتْبع الجوزاء المسماة بالجبار كما يَتْبعُ الكلبُ الصائدَ أو الصيدَ.

والثانية في ذراع الأسد المبسوطة، وإنَّما قيل لها الغُمَيْصاء؛ لأنَّها بكَتْ مِن فراق سُهيل، فغُمِصَت عينُها، والغَمْصُ ما سال من الرَّمَص، وهو وسخٌ أبيضُ يجتمع في المُوق، وذلك مِن زَعْم العرب أنَّهما أختا سهيل.

وفي «القاموس»: من أحاديثهم: أنَّ الشِّعرَى العَبُور قطَعَت المجرَّة فسُمِّيت عَبُوراً، وبكَت الأخرى على إثْرها حتى غَمصَت، ويقال لها: الغَمُوصُ أيضاً[1].

وقيل: زعموا أنَّ سهيلاً والشِّعرى كانا زوجَين، فانحدَرَ سهيل وصارَ يمانيّاً، فاتَّبعه الشِّعرَى فعَبَرت المجرةَ، فسمِّيت العَبُور، وأقامَت الغُمَيْصاء وسمِّيت بذلك لأنَّها دون الأولى ضياءً، وكلٌّ ذلك من تخيُّلاتهم الكاذبة التي لا حقيقةَ لها.

والمتبادر عند الإطلاق وعدم الوصف العَبُور؛ لأنَّها أكبرُ جرماً وأكثرُ ضياء، وهي التي عُبدَت من دون الله سبحانه في الجاهلية.

قال السدي: عبدتها حِميرُ وخُزاعة. وقال غيره: أوَّلُ مَن عبدَها أبو كبشة رجلٌ من خزاعة، أو هو سيدُهم واسمُه: وَخْزُ[2] بن غالب، وكان المشركون يقولون للنبيِّ ﷺ: ابنُ أبي كبشة، شبَّهوه به لمخالفته قومَه في عبادة الأصنام. وذكر بعضُهم أنَّه أحدُ أجداده عليه الصلاة والسلام مِن قبل أُمِّه، وأنَّهم كانوا يزعمون أنَّ كلَّ صفةٍ في المرء تسري إليه من أحد أصوله، فيقولون: نزَعَ إليه عرقُ كذا، وعرقُ الخال نزَّاع.

وقيل: هو كنيةُ وَهْب بنِ عبد مناف جدِّه ﷺ مِن قِبَلِ أمِّه، وقولهم له عليه الصلاة والسلام ذلك على ما يقتضيه ظاهرُ «القاموس»[3] لأنَّه ﷺ في الشَّبه الخَلْقي دون المخالفة[4].

(١) القاموس المحيط (غمص).
(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي المؤتلف والمختلف للدارقطني ٤/ ٢٢٩١: وَجْز.
(٣) مادة (كبش).

وقيل: كنيةُ زوجِ حليمةَ السعدية مرضعتِهِ عليه الصلاة والسلام. وقيل: كنيةُ عمٍّ ولدها[١].

ولكونها عُبِدَت من دونه عز وجل خُصَّت بالذكر، ليكون ذلك تجهيلاً لهم بجعل المربوب ربّاً، ولمزيد الاعتناء بذلك جيء بالجملة على ما نطَقَ به النظمُ الجليل.

ومن العرب مَن كان يُعظِّمها ويعتقدُ تأثيرَها في العالم، ويزعمون أنَّها تقطعُ السماء عرضاً، وسائرُ النجوم تقطعها طولاً، ويتكلَّمون على المغيبات عند طلوعها، ففي قوله تعالى: (وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ) إشارةٌ إلى نَفْي تأثيرها.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ أي: القدماء لأنَّهم أُوْلَى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح كما قاله ابن زيد والجمهور.

وقال الطبري: وُصِفَت بالأولى لأنَّ في القبائل عاداً أخرى، وهي قبيلةٌ كانت بمكة مع العماليق، وهم بنو لُقَيْم بن هزَّال[٢].

وقال المبرد: عادٌ الأخرى هي ثمود[٣].

وقيل: الجبَّارون.

وقيل: عادٌ الأُولَى وَلَدُ عادِ بن إرَم بنِ عوف بن سام بن نوح، وعادٌ الأخرى من ولد عادٍ الأولى.

وفي «الكشاف»: الأولى قومُ هودٍ، والأخرى إرَمُ. والله تعالى أعلم، وجوَّز أنْ يُرادَ بالأولى المتقدِّمون الأشراف[٤].

وقرأ قومٌ: «عاداً الولى» بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى اللام قبلها[٥].

---

(١) ينظر الخلاف في ذلك في الروض الأُنف ٢/ ٢٢٨، وفتح الباري ١/ ٤٠، والقاموس (كبش).
(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٨٧-٨٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٦٩.
(٤) الكشاف ٤/ ٣٤.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٦٩.

وقرأ نافع وأبو عمرو: «عاداً لُّولَى» بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركةُ الهمزة المحذوفة[١]، وعاب هذه القراءةَ المازنيُّ والمبرد، وقالت العرب في الابتداء بعد النقل: الحَمْرَ، ولَحْمَر، فهذه القراءة جاءت على لَحْمَر، فلا عيبَ فيها[٢].

وأتى قالون بعد ضمَّةِ اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو[٣] كما في قوله:

أَحَبُّ المُؤْقِدِينَ إِلَيَّ مُؤْسَى[٤]

وكما قرأ بعضهم: «على سؤقه»[٥] وفيه شذوذ. وفي حرف أبيٍّ: «عاد» غير مصروف[٦] للعَلَمية والتأنيث، ومَن صَرَفه فباعتبار الحيِّ، أو عامَلَه معاملةَ هند لكونه ثلاثيًّا ساكن الوسط.

﴿وَثَمُودَا﴾ عطف على «عاداً» ولا يجوز أنْ يكونَ مفعولاً لـ «أبقى» في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ لأنَّ «ما» النافية لها صدرُ الكلام، والفاءُ ـ على ما قيل ـ مانعةٌ أيضاً، فلا يتقدَّمُ معمولُ ما بعدَها. وقيل: هو معمول لـ «أهلك» مقدَّر. ولا حاجةَ إليه.

---

(١) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ١/ ٤١٠، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب.

(٢) ذكر السمين في الدر المصون ١٠/ ١١٠ في هذه المسألة كلاماً مفيداً، ولا بأس بذكره للتوضيح، قال: وأما قراءة مَن أدغم التنوين في لام التعريف ـ وهما نافع وأبو عمرو ـ فوَجْهُه الاعتدادُ بحركة النقل، وذلك أن من العرب مَن إذا نَقَل حركة الهمزة إلى ساكنٍ قبلها ـ كـ : لام التعريف ـ عامَلَها معاملتَها ساكنةً، ولا يَعْتدُّ بحركة النقل، فيكسِرُ الساكن الواقع قبلها، ولا يُدغم فيها التنوين، ويأتي قبلها بهمزة الوصل، فيقول: لم يذهبِ لَحْمَر، و: رأيت زياداً لَعْجم، من غير إدغام التنوين، والَحْمَر والَعْجَم بهمزة الوصل؛ لأن اللام في حُكْم السكون، وهذه هي اللغة المشهورة. ومنهم مَن يَعتدُّ بها، فلا يكسِرُ الساكن الأول، ولا يأتي بهمزة الوصل، ويدغم التنوين في لام التعريف، فيقول: لم يذهبْ لَحمر، بسكون الباء، ولَحْمَر ولَعْجَم من غير همز، وزياد لَّعجم بتشديد اللام، وعلى هذه اللغة جاءت هذه القراءة.

(٣) التيسير ص ٢٠٤، والنشر ١/ ٤١٠.

(٤) البيت لجرير كما في المحتسب ١/ ٤٧، والخصائص ٢/ ١٧٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٠٨، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٨/ ٧٨، ودون نسبة في الحجة للفارسي ١/ ٢٣٩، والبحر ٨/ ١٦٩، وفي المصادر عدا الحجة والبحر: لحب، بدل: أحب.

(٥) وهو قنبل عن ابن كثير كما في التيسير ص ١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨، وسلفت القراءة عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩].

(٦) البحر المحيط ٨/ ١٦٩.

وقرأ عاصم وحمزة: «ثمود» بلا تنوين، ويقفان بغير ألف[1]. والباقون بالتنوين ويقفون بالألف.

والظاهر أنَّ متعلق «أبقى» يرجعُ إلى «عاد» و«ثمود» معاً، أي: فما أبقَى عليهم، أي: أخذَهم بذنوبهم، وقيل: أي: ما أبقى منهم أحداً، والمراد: ما أبقى من كفارهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ عطف على «عاداً» أيضاً ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إهلاك عادٍ وثمودَ، وصرَّح بالقَبْلية لأنَّ نوحاً عليه السلام آدمُ الثاني، وقومه أولُ الطاغين والهالكين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي: من الفريقَين حيث كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكاد يتحرك، وكان الرجلُ منهم يأخذُ بيد ابنه يتمشَّى به إليه يُحذِّره منه ويقول: يا بنيَّ إنَّ أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذ، فإياك أنْ تُصدِّقه. فيموت الكبيرُ على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه، ولم يتأثَّروا من دعائه وقد دعاهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً.

وقيل: ضمير «إنهم» يعودُ على جميع مَن تقدَّم: «عاد» و«ثمود» و«قوم نوح» أي: كانوا أظلمَ من قريش وأطغى منهم، وفيه من التسلية للنبيِّ عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى.

و«هم» يجوز أنْ يكونَ تأكيداً للضمير المنصوب، ويجوز أنْ يكونَ فصلاً؛ لأنَّه واقعٌ بين معرفة وأفعَلَ التفضيل، وحذفُ المفضول مع الواقع خبراً لـ «كان» لأنَّه جارٍ مجرى خبرِ المبتدأ، وحذفُه فصيحٌ فيه، فكذلك في خبر «كان».

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ هي قُرى قومِ لوطٍ، سمِّيت بذلك لأنَّها ائتفكَت بأهلها، أي: انقلَبَت بهم، ومنه الإفكُ لأنَّه قلبُ الحقِّ، وجوَّز أنْ يُراد بـ «المؤتفكة» كلُّ ما انقلَبَت مساكنُه ودَثَرَت أماكنُه.

وقرأ الحسن: «والمؤتفكات» جمعاً[2].

---

(١) التيسير ص ٢٠٥، والنشر ٢/ ٢٨٩، وهي قراءة يعقوب.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٩، والبحر المحيط ٨/ ١٧٠.

﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: أسقطَها إلى الأرض بعد أنْ رفَعَها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء، وقال المبرِّد: جعلها تهوي[١].

والظاهر أنَّ «أهوى» ناصبٌ للمؤتفكة، وأُخِّر العاملُ لكونه فاصلةً، وجوِّز أنْ يكونَ «المؤتفكة» معطوفاً على ما قبله، و«أهوى» مع فاعله جملةً في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونه توضِّح كيفيةَ إهلاكهم.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ فيه تهويلٌ للعذاب وتعميمٌ لِمَا أصابهم منه؛ لأنَّ الموصولَ من صيغ العموم، والتضعيف في «غشَّاها» يحتملُ أنْ يكونَ للتعدية فيكون «ما» مفعولاً ثانياً، والفاعل ضميرُه تعالى، ويحتملُ أنْ يكون للتكثير والمبالغة ف «ما» هي الفاعل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ تَتَشكَّكُ، والتفاعل هنا مجرَّدٌ عن التعدُّد في الفاعل والمفعول للمبالغة في الفعل، وقيل: إنَّ فعلَ التَّماري للواحد باعتبار تعدُّد متعلّقه، وهو الآلاء المتمارَى فيها، والخطاب قيل: لرسول الله ﷺ على أنَّه من باب الإلهاب والتعريض بالغير، وقيل: للإنسان على الإطلاق، وهو أظهرُ، والاستفهام للإنكار.

و«الآلاء» جمعُ إِلَى[٢]: النِّعَم، والمرادُ بها ما عُدَّ في الآيات قبلُ، وسمَّى الكلَّ بذلك مع أنَّ منه نِقَماً، لِمَا في النقم من العِبَر والمواعظ للمعتبرين والانتفاع للأنبياء والمؤمنين، فهي نِعَمٌ بذلك الاعتبار أيضاً.

وقيل: التعبير بـ «الآلاء» للتغليب. وتُعُقِّب بأنَّ المقامَ غيرُ مناسبٍ له.

وقرأ يعقوب وابن محيصن: «ربك تَّمارى» بتاءٍ مشدَّدة[٣].

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ الإشارةُ إلى القرآن، وقال أبو مالك: إلى الأخبار عن الأمم، أو الإشارةُ إلى الرسول ﷺ. و«النذيرُ» يجيءُ مصدراً ووَصْفاً،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧٠.

(٢) وتجمع أيضاً على: أَلَى وإِلْيٍ. إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٢.

(٣) قراءة يعقوب في النشر ١/ ٣٠٠، والكلام من البحر ٨/ ١٧٠.

و«النذر» جمعُه مطلقاً، وكلٌّ من الأمرَين محتَملٌ هنا، ووَصْفُ «النذر» جمعاً للوَصْفِ بـ «الأُولى» على تأويل الفرقة أو الجماعة، واختير على غيره رعايةً للفاصلة، وأيّاً ما كان فالمرادُ: هذا نذير من جنس النُّذُر الأُولى.

وفي «الكشف»: أنَّ قولَه تعالى: (هَٰذَا نَذِيرٌ) إلخ فذلكةٌ للكلام إما لِمَا عدَّد من المشتمل عليه الصحف، وإما لجميع الكلام من مفتَتَح السورة. فتدبر ولا تغفل.

﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ أي: قربَت الساعة الموصوفةُ بالقرب في غير آية من القرآن، فـ «أل» في «الآزفة» للعهد[1] لا للجنس. وقيل: «الآزفة» عَلَمٌ بالغلبة للساعة هنا. وقيل: لابأسَ بإرادة الجنس، ووصف القريب بالقرب للمبالغة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله تعالى، أو: إلا الله عز وجل ﴿كَاشِفَةٌ﴾ نفسٌ قادرةٌ على كشفها إذا وقَعَت، لكنَّه سبحانه لا يكشِفُها؛ والمرادُ بالكشف الإزالة، وقريبٌ من هذا ما روي عن قتادة وعطاء والضحاك، أي: إذا غَشِيَت الخلْقَ أهوالُها وشدائدُها لم يكشِفْها ولم يَرُدَّها عنهم أحدٌ.

أو: ليس لها الآن نفسٌ كاشفةٌ، أي: مزيلةٌ للخوف منها، فإنَّه باقٍ إلى أنْ يأتيَ الله سبحانه بها، وهو مرادُ الزمخشري بقوله: أو: ليس لها الآن نفسٌ كاشفةٌ بالتأخير[2]. وقيل: معناه: لو وقَعَت الآن لم يردَّها إلى وقتها أحدٌ إلا الله تعالى. فالكشف بمعنى التأخير، وهو إزالةٌ مخصوصةٌ.

وقال الطبري والزجَّاج: المعنى: ليس لها من دون الله تعالى نفسٌ كاشفةٌ تكشِفُ وقتَ وقوعها وتُبيِّنُه؛ لأنَّها من أخفَى المُغَيَّبات[3]. فالكشفُ بمعنى التبيين، والآيةُ كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(١) في (م): كاللعهد.

(٢) الكشاف ٤/ ٣٥.

(٣) بنحوه في تفسير الطبري ٢٢/ ٩٥-٩٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٧٨، وينظر البحر المحيط ٨/ ١٧٠.

والتاء في «كاشفة» على جميع الأوجه للتأنيث، وهو لتأنيث الموصوفِ المحذوف كما سمعتَ، وبعضُهم يُقدِّر الموصوفَ «حالٌ»[١]، والأول أَوْلَى.

وجوَّز أنْ تكونَ للمبالغة مثلها في علَّامة. وتُعقِّب بأنَّ المقام يأباه؛ لإيهامه ثبوتَ أصل الكشف لغيره عز وجل، وفيه نظر.

وقال الرمَّاني وجماعة: يحتملُ أنْ يكون «كاشفة» مصدراً كالعافية، وخائنة الأعين، أي: ليس لها كَشْفٌ من دون الله تعالى.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً مع كونه أبعدَ شيءٍ من ذلك ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حُزْناً على ما فرَّطتُم في شأنه، وخوفاً من أنْ يحيقَ بكم ما حاقَ بالأُمم المذكورة ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لاهون، كما روي عن ابن عباس جواباً لنافع بن الأزرق، وأنشد عليه قول هزيلة بنت بكرٍ وهي تبكي قومَ عاد:

ليت عاداً قبلوا الحقَّ ... ولم يُبدُوا جُحودا
قيل قُمْ فانظُرْ إليهم ... ثم دَعْ عنك السُّمُودا[٢]

وفي رواية أنَّه ﷺ سئل عن السُّمود، فقال: البَرْطَمَة. وهي رفعُ الرأس تكبُّراً، أي: وأنتم رافعون رؤوسَكم تكبُّراً، وروي تفسيرُه بالبرطمة عن مجاهد أيضاً.

وقال الراغبُ: السَّامدُ: اللَّاهي الرافعُ رأسَه، مِن سَمَدَ البعيرُ في سيره: إذا رَفَع رأسه[٣].

وقال أبو عبيدة: السُّمود: الغناء بلغة حِمْيَر؛ يقولون: يا جاريةُ اسمُدي لنا، أي: غنِّي لنا[٤]. وروي نحوُه عن عكرمةَ، وأخرج عبد الرزاق والبزار وابن جرير والبيهقي في «سننه» وجماعة عن ابن عباس أنَّه قال: هو الغناء باليمانية، وكانوا إذا

---

(١) في (م): حالاً.
(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٢ للطستي والطبراني، وأخرجه في الإتقان ١/ ٣٨٨.
(٣) مفردات الراغب (سمد).
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٥٥.

سمعوا القرآنَ غنَّوا تشاغُلاً عنه[١]. وقيل: يفعلون ذلك ليشغلوا الناسَ عن استماعه.

والجملةُ الاسمية على جميع ذلك حالٌ من فاعل «لا تبكون»، ومضمونها قيدٌ للنفي، والإنكار متوجِّهٌ إلى نَفْي البكاء ووجودِ السُّمود.

وقال المبرِّد: السُّمود: الجمودُ والخشوع، كما في قوله:

رَمَى الحِدْثانُ نِسْوَةَ آلِ سَعْدٍ بمقدارٍ سَمِدْنَ له سُمودا
فردَّ شعورَهنَّ السُّودَ بيضاً وردَّ وجوهَهُنَّ البيضَ سودا[٢]

والجملةُ عليه حالٌ من فاعل «تبكون» أيضاً إلا أنَّ مضمونَها قيدٌ للمنفي، والإنكار واردٌ على نَفْي البكاء والسُّمود معاً. فلا تغفل.

وفي حرف أبيٍّ وعبد الله: «تضحكون» بغير واو[٣]. وقرأ الحسن: «تُعجِبون تُضحِكون» بغير واو وضمِّ التاءَين وكسر الجيم والحاء[٤].

واستُدل بالآية كما في «أحكام القرآن» على استحباب البكاءِ عند سماع القرآن وقراءته، أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة قال: لمَّا نزلت: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ الآية بكى أصحابُ الصُّفَّة حتى جَرَت دموعُهم على خدودهم، فلمَّا سمع رسول الله ﷺ حنينَهم بكى معهم، فبكينا ببكائه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يلجُ النارَ مَن بكى من خشية الله تعالى، ولا يدخل الجنةَ مصرٌّ على معصيته، ولو لَمْ تُذْنبُوا لجاءَ الله تعالى بقومٍ يُذنبون فيستغفرون فيغفرُ لهم»[٥].

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٥٥، والبزار (٢٢٦٤ - كشف)، وتفسير الطبري ٢٢/ ٩٧، والسنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٢٢٣.

(٢) البيت اختلف في نسبته، فنسبه المرزباني في معجم الشعراء ص ١٧٧، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ٦٧ إلى فضالة بن شريك، ونسبه القالي في ذيل الأمالي ٣/ ١١٥ إلى الكميت الأسدي، ونسبه المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ٩٤١ لعبد الله بن الزبير الأسدي، وسلف ٤/ ٣٥٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٧١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) شعب الإيمان (٧٩٨) وقوله: «ولو لم تذنبوا لجاء...» أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرج أحمد في «الزهد» وابن أبي شيبة وهنَّاد وغيرهم عن صالح أبي الخليل قال: لمَّا نزلت هذه الآية (أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ) ما ضحك النبيُّ ﷺ بعد ذلك إلا أنْ يتبسَّم. ولفظ عبدِ بن حميد: فما رُئيَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام ضاحكاً ولا متبسِّماً حتى ذهب من الدنيا[١]. وفيه سدُّ باب الضحك عند قراءة القرآن ولو لم يكن استهزاءً، والعياذ بالله عز وجل.

﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۝٦٢﴾ الفاء لترتيب الأمر أو موجبه، على ما تقرَّر من بطلان مقابلةِ القرآن بالتعجُّب والضحك، وحَقِّيَّةِ مقابلته بما يليقُ به، ويدلُّ على عظم شأنه، أي: وإذا كان الأمرُ كذلك فاسجدوا لله تعالى الذي أنزله واعبدوه جلَّ جلاله، وهذه آيةُ سجدةٍ عند أكثر أهل العلم، وقد سجَدَ النبيُّ ﷺ عندها.

أخرج الشيخان وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أولُ سورةٍ أُنزلَت فيها سجدةٌ «والنجم» فسجَدَ رسول الله ﷺ، وسجَدَ الناسُ كلُّهم إلا رجلاً، الحديث[٢].

وأخرج ابنُ مردويه والبيهقي في «السنن» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ فقرأ «النجم» فسجد بنا فأطال السجود[٣].

وكذا عمر رضي الله عنه؛ أخرج سعيد بن منصور عن سبرة قال: صلَّى بنا عمر بنُ الخطاب الفجرَ فقرأ في الركعة الأولى سورةَ يوسف، ثم قرأ في الثانية سورة النجم فسجَدَ، ثم قام فقرأ «إذا زلزلت» ثم ركع[٤].

ولا يرى مالكٌ السجودَ هنا، واستدلَّ له بما أخرجه أحمدُ والشيخان وأبو داود

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٣٤، والزهد لهناد ١/ ٢٧١ (٤٧٣)، وعزاه لأحمد في الزهد وعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣١.

(٢) صحيح البخاري (٤٨٦٣)، وصحيح مسلم (٥٧٦)، وسنن أبي داود (١٤٠٦)، وسنن النسائي (المجتبى) ٢/ ١٦٠، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١، وسلف في بداية هذه السورة.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٨٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١.

(٤) عزاه لسعيد بن منصور السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٢.

والترمذي والنسائي والطبراني وغيرهم عن زيد بن ثابت قال: قرأتُ النجمَ عند النبي ﷺ فلم يسجُد فيها[(١)].

وأُجيبَ بأنَّ الترك إنَّما يُنافي وجوبَ السجود، وليس بمجمَعٍ عليه، وهو عند القائل به على التراخي في مثل ذلك على المختار، وليس في الحديث ما يدلُّ على نَفْيه بالكلِّية، فيحتمل أنَّه عليه الصلاة والسلام سَجَدَ بَعْدُ، وكذا زيدٌ رضي الله عنه، نعم التأخيرُ مكروه تنزيهاً، ولعله فُعِل لبيان الجواز، أو لعذرٍ لم نطَّلع عليه، وما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس من قوله: إنَّ رسول الله ﷺ لم يسجد في شيءٍ من المفصَّل منذ تحوَّل إلى المدينة. نافٍ وضعيف، وكذا قوله فيما رواه أيضاً عنه: كان رسول الله ﷺ يسجد في «النجم» بمكة، فلمَّا هاجر إلى المدينة تركها[(٢)]. على أنَّ الترك إنما ينافي ـ كما سمعتَ ـ الوجوبَ، والله تعالى أعلم.

---

(١) المسند (٢١٥٩١)، وصحيح البخاري (١٠٧٢) و(١٠٧٣)، وصحيح مسلم (٥٧٧)، وسنن أبي داود (١٤٠٤)، وسنن الترمذي (٥٧٦)، وسنن النسائي (المجتبى) ٢/ ١٦٠، والمعجم الكبير (٤٨٢٩).

(٢) الحديثان عزاهما لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٢١.